تصدير

إن إعادة إصدار مجلة "الإكليل" قد شكل مطلباً ما برحنا نتحين المناسبة والظروف لإتمام إنجازه والخروج به إلى حيزّ الوجود، وتكللت الجهود أخيراً بخروج هذا العدد وما سيليه من الأعداد الأخرى. وجاء هذا بمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على إصدار أول عدد من هذه المجلة الإكليل في هامة البحث ورأس العلوم.

وللإكليل مكانة خاصة في نفوس الباحثين والمعنيين بالشأن العلمي اليمني تاريخاً وحضارة وسوف يجدون في أعداد الإكليل القادمة مبتغاهم وزيادة. فالاهتمام بفكر اليمن وحضارته سيبقى حيزاً هاماً في المجلة. غير أن الاتجاه الجديد للمجلة أن لا تبقى محصورة بالشأن اليمني-وأن ظل له نصيب كبير منها- لكنها سوف توسع دائرة اهتمامها لتشمل المعارف عامة أكانت تاريخية أو غير تاريخية علمية أو أدبية أو اجتماعية، بحيث تشكل نافذة واسعة لمجالات المعرفة والبحث العلمي. ولعل الوضع اليوم أصبح أفضل مما كان عليه الأمر قبل سنوات فيما يتعلق بمخرجات البحث العلمي. ذلك أن اليمن اليوم يمتلك ما يزيد عن عشر جامعات

بين حكومية وأهلية وأن لدى المنشغلين بالبحث العلمي في هذه الجامعات ما يريدون إشراك الآخرين في معرفته ونشره. من هنا جاء حرصنا أن تكرس هذه المجلة للبحوث الرصينة ذات المستوى العلمي المشهود به، وأن تكون محكّمة .

وأما الإبداع فإن مجالات نشره قد كُرّست له إصدارات أخرى عن وزارة الثقافة والسياحة وعن الهيئات التابعة لها. كما أن النشر في الصحف السيّارة وملاحقها الخاصة قد لعب دوراً هاماً في التعريف بهذا الإبداع وتشجيعه والترويج له في حين حرم البحث العلمي من هذا الانتشار.

وهكذا فإن الإكليل بعودتها ستقدم خدمة تتعاضد فيها المنفعة الثقافية والإنجاز العلمي ليشكلا معا رافدا جديدا لتطور الوضع الثقافي والبحثي في اليمن. وبذلك تتأكد العلاقة الوطيدة بين الثقافة والنهضة العلمية التي هي أساس تقدم الأمم ووقود ازدهارها.

همنا اليوم هو الحفاظ على انتظام صدور المجلة وتذليل الصعوبات التي قد تعترضها وهذا لن يتأتى هذا إلا بنطاق جهود الجميع قراءا، وباحثين، وناشرين وهو المرجو حاضرا ومستقبلا .

نتمنى التوفيق للجميع .

د. عبدالملك منصور
وزير الثقافة والسياحة
المشرف العام

مقدمة

مثلت الإكليل خلال السنوات الخمس والعشرين المنصرمة خصوصية يمنية اسماً وفحوى. فالاسم الذي تفردت به يوحي بأصالتها اليمنية اعتماداً على مُؤَلَّف أبي الحسن الهمداني لسان الجزيرة وعلاّمتها. وفحواها انحصر في تاريخ اليمن الفكري والحضاري. وبذلك كانت عنواناً يحمل هوية خاصة واريجاً يمنياً عريقاً.

ولا نريد التخلي عن خط الإكليل السابق في الاهتمام بتاريخ اليمن وفكره وحضارته. لكننا نرغب في فك العزلة ونطمح إلى الارتباط بمجريات البحث العلمي خارج اليمن لأن العالم صار قرية واحدة. وثراء الخصوصية يزداد بالتفاعل مع الآخر تأثيراً وتأثراً.

إن الواقع الثقافي والعلمي في اليمن قد تغير كثيراً عن الفترة التي كانت الإكليل تصدر فيها، حيث اتسع نطاق القراءة وكثرت الابحاث العلمية وتعددت الجامعات والمراكز البحثية وتولدت الحاجة للنشر والبحث، وتعميم النفع العلمي.

ومن هنا جاء تحويل المجلة إلى مجلة مُحكّمة لها لجان تحكيم في مختلف الجامعات اليمنية وغير يمنية. والتحكيم فضلاً عن دوره الأكاديمي يُجوِّد المادة ويصقلها، وبذلك ترتقي الإكليل مكانة ضمن مجلات البحث العلمي.

وقد رأت هيئة التحرير تقسيم المجلة إلى أجزاء خاصة بالدراسات والبحوث العربية، وأجزاء خاصة بالترجمة لبحوث ودراسات كتب بلغات غير العربية، ومساحة هامة للمخطوطات تحقيقاً وتعريفاً، ومساحات خاصة بالقراءات والمناقشات. وبهذا تحافظ المجلة على نوع من التوازن في مادتها بين الاختصاص المحض والتوجه العام فتكون في آن معاً في خدمة المختص والقارئ العادي.

أما مجالات النشر فإنها تشمل كافة العلوم النظرية والتطبيقية مثل العلوم الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية، والدراسات اللغوية والنقدية والسياسية والقانونية، والتاريخ، والآثار، والفكر وحوار الحضارات، والديمقراطية وحقوق الإنسان وعلوم الأرض والعلوم الطبية والزراعية وكل المواضيع والبحوث الثقافية والعلمية الرصينة في مجالات العلوم النظرية والتطبيقية. بحيث تظهر هذه الدراسات في نطاق ملف أو أكثر تدور حول موضوع واحد.

ولدى الإكليل اتجاه في تبني آلية النشر المشترك مع المجلات العربية والأجنبية التي يصعب الحصول عليها في اليمن ونخص بآلية النشر المشترك إما المجلات الجامعية محدودة التداول أو المجلات في المغرب العربي والتي لا تصل إلى القارئ في المشرق والنشر المشترك يكون متبادلا أصلا ومتفق عليه مسبقا.

سيلاحظ القارئ أن هذا العدد لا يحتوى ملفا معنيا وسيكون العـدد التـالي كذلك. ولكن بقية الأعداد ستكرس ملفا ذا موضوع واحـد تـدور في فلكـه عـدة بحوث كما أن الإحالات إلى المراجـع والهوامـش لمـا توحـد، لكـن الإرشادات التي ذكرناها في قواعد النشر ستكون معيارا موحدا بعد ذلك.

وأخيرا إن جهد هيئة التحرير لا يمكن أن يؤتى ثماره إلا بالالتفـاف المتمـيز للباحثين والذين نأمل أن يتجاوبوا مع هذا الإصدار وسوف تتـولى المجلـة أمـر التحكيم ونفقاته. كما أنها ستخصص مكافآت رمزية للبـاحثين حسـب قواعـد المكافأة فيها.

نرجوا مكاتبتنا وإبداء الآراء لمزيد التحسين .

رئيس التحرير

د. حميد العواضي

alhamid21 @ yahoo.com

مؤشرات المعاصرة في الـــرصيد المرجعي لمجلة الحكمة (1938-1941)

د. عبداللطيف الأدهم

المقدمة

صدرت مجلة الحكمة بمدينة صنعاء في شهر ذي القعدة 1357هـ/ ديسمبر 1938م وتوقفت نهائياً في شهر صفر 1360هـ/ مارس 1941م، بعد أن صدر منها 28 عدداً[1]. وقد أسهم في كتابة غالبية موادها عدد من رواد الانتلجنسيا اليمنية الإصلاحية والتحديثية[2]، ومجموعة أخرى من الكتاب اليمنيين، وهو ما جعل منها مصدراً من المصادر الأساسية لدراسة ما حمله على وجه الخصوص خطاب ذلك الجيل من الرواد، وتحليل جوانبه المختلفة. وما يلاحظ في تناول مضامين كتابات المجلة، ولاسيما ما تعلق منها بخطاب أولئك الرواد، هو أن مسألة المعاصرة-بامتداداتها الفكرية، والمعرفية والإبداعية- هي من بين

المسائل التي يتركز حولها الاهتمام، ولاعتبارات متعددة لعل أحد أبرزها تتبع مراحل تطور الفكر اليمني الحديث.

ومع أن بعض الدراسات قد تطرقت إلى أكثر من جانب من جوانب هذه المسألة، فإن الجانب المرجعي لم ينل بعد ما يستحقه من بحث معمق، في حين أنه يعد أحد المداخل التي قد تسهم في توسيع معرفتنا حولها. ويمكن، من الناحية المنهجية، أن تتأسس دراسة الرصيد المرجعي الوارد في مدونة ما على مقاربة عامة يشمل منظورها كل الإحالات التي تضمنتها، أو على مقاربة محددة لا تدرج في منظورها سوى نوع أو أنواع معينة من الإحالات، مثل الإحالات إلى المؤلفات، أو الدواوين الشعرية،إلخ. كما يمكن في كلتا الحالتين أن تدخل مقاربتنا في منظورها تحليل مختلف خصائص الرصيد المختار سواء ما تعلق منها بالمراجع أو السياقات التي وردت فيها، أو التركيز على عدد معين من ابعادها في أحد هذين المستويين، أو في كليهما معاً. وهناك، بصورة عامة، بعض العوامل التي غالباً ما تتدخل في توجيه اختيارنا، مثل حدود الموضوع، وأهدافه، والصعوبات المنهجية التي يطرحها هذا الاختيار أو ذاك، إلخ.

أما بالنسبة إلى دراستنا، فإنها ستتجه في مقاربتها للرصيد المرجعي لمجلة الحكمة نحو الاختيار الثاني، حيث ستركز أساساً على الاحالات إلى المؤلفات، وذلك من منطلق أهمية تكراراتها من الناحية العددية، إلى جانب بعض الاعتبارات الأخرى التي ستذكر لاحقاً، والتي كان لها إسهامها أيضاً في النزوع نحو تفضيل أن يتمحور تحليلنا للرصيد المستهدف حول بعض ابعاد خصائصه، وعلى مستوى كل من المراجع والسياقات على حدٍ سواء. وعلى ضوء ضبط هذه الدراسة للخطوط العامة لمقاربتها، فضلاً عما سيشار إليه من تدقيقات إضافية، فانها في تناولها لمؤشرات المعاصرة ستسعى للكشف أولاً عن الملامح العامة لأبرز تلك المؤشرات التي يمكن أن تستنبط من إطار خصائص ذلك الرصيد، قبل أن تبحث في العلاقة بين توزيع تكرارات ظهورها في الكتابات المختلفة، وتوزيع الكتاب الذين أسهموا بهذه الكتابات بحسب انتماءاتهم الفكرية.

أولاً : الملامح العامة لمؤشرات المعاصرة

قبل الدخول في التفاصيل التي حملتها ثنايا هذا القسم،هناك ضرورة منهجية لتقديم بعض الملاحظات التي توضح الخطوات التي اتبعت لتحديد مادة الرصيد المرجعي المدروس بعد أن حدد اطارها العام فيما سبق. فقد تم بهذا الخصوص مسح كل الاحالات إلى المراجع المندرجة ضمن صنف المؤلفات دون تمييز بين سياقات توظيفها، وعلى مستوى جميع الاعداد الصادرة من المجلة. وتبين لنا من خلال عملية المسح أن المجلة احتوت على كتابات منها ما يعود لكتاب يمنيين، ومنها ما يعود، وإن بصورة أقل، لكتّاب غير يمنيين. ولأن منطلقات موضوعنا هي منطلقات ترتبط بواقعنا اليمني، فإن العامل المنهجي اقتضى الابقاء فقط على الاحالات الواردة في الكتابات التي اسهم بها الكتاب اليمنيون.

كما تبين أن نصوص الفقرات التي اقتبسها بعض هؤلاء الكتاب من المراجع التي عادوا إليها كانت تتضمن أحياناً عدة إحالات داخل سياقاتها. لكنه لم يتم في كل وضعية مماثلة سوى احتساب إحالة واحدة، على اعتبار أنّ ما عدا ذلك يخص المرجع الذي تمت الإحالة إليه. بالإضافة إلى ذلك، فان معيار حسابنا للاحالات إلى المراجع المعنية بعد أن تم فرزها، قام على إدراج كل ما أنطوى منها-كحد أدنى- على إشارة إلى اسم المؤلف أو عنوان مؤلفه. وقد رأينا، في الأخير، ولكي نتمكن من معرفة الرصيد المرجعي للمجلة بتفاصيله العامة والجزئية، التعامل مع نسبة التكرارات التي وجدناها على النحو التالي:

أ- حساب كل الإحالات المكررة إلى أحد المراجع في كل مرة وجدنا فيها أن مصدر هذا التكرار هم عدة كتاب.

ب- الاكتفاء بحساب الإحالة الأولى في كل مرة وجدنا فيها أن أحد الكتاب كرر الإحالة إلى نفس المرجع عدة مرات.

وكانت مادة الرصيد المرجعي التي تشكلت لدينا وفق ماذكر، والتي تعكس لنا هكذا في مجموعها، الذي تضمن 160 إحالة، العدد الفعلي للمراجع التي احال إليها كل كاتب(*)، هي الأساس الذي سننطلق منه فيما يلي لتناول المؤشرات المستهدفة بالدراسة.

(*) سنأتي على بعض التفاصيل الأخرى في كل من متن هذه الدراسة وملحقها.

1– المؤشرات المستمدة من خصائص المراجع

يمكن دراسة الرصيد المرجعي للمجلة من ناحية خصائص المراجع من عدة ابعاد، وأن تتم الاستعانة على مستوى كل بعد بأكثر من متغير. غير أننا سنركز في هذا العمل على بعدي الزمان والمكان في هذه المراجع، وسنستعين في تحليلنا بمتغيرين لأولهما عمق زماني تاريخي ويرتبط بحقب التأليف، ولثانيهما عمق مكاني جغرافي ويرتبط بمنحدرات المؤلفين. ويستند هذا الاختيار في تفسيره إلى عدة عوامل، منها التمكن في الغالبية العظمى من الحالات من الحصول على بيانات كافية حول هذين المتغيرين، وصلتهما المباشرة بموضوع الدراسة. وسيسمح لنا الرجوع إلى الجدول التالي بتلمس أبرز ما يستخلص من هذين المتغيرين من مؤشرات:

جدول رقم (1)

توزيع المراجع التي تمت الإحالة إليها حسب حقب التأليف والمنحدرات الجغرافية للمؤلفين

ح. التأليف / م. الجغرافية	الحقبة القديمة	الحقبة الوسيطة	الحقبة الحديثة والمعاصرة	بيانات ناقصة	المجموع	النسبة المئوية
الإطار اليمني	–	10	24	–	34	%21.3
الإطار العربي والإسلامي	–	64	33	6	103	%64.4
الإطار الأجنبي	5	0	14	2	21	%13.1
بيانات ناقصة	–	–	–	2	2	%1.2
المجموع	5	74	71	10	160	%100
النسبة المئوية	%3.1	%46.2	%44.4	%6.3	%100	

يتيح لنا ما يستنتج مما ورد في هذا الجدول من تنوع في مكونات كلا المتغيرين، ومن اتجاهات توزيع تكرارات هذه المكونات، الخروج بعدد من المؤشرات التي يصب مضمونها في سياق موضوعنا. ويتضح، بالرجوع إلى المتغير الأول، وهو متغير حقب التأليف أن الرصيد المرجعي للمجلة لم يتلون بلون حقبة تاريخية واحدة، بل تشكلت مادته من كمٍ من المراجع مستمد، وإن بنسب متفاوتة، من جل الحقب. وتكشف لنا مثل هذه الملاحظة عن

وجود مؤشر على بداية ظهور نمط جديد من التفكير شرع في تجاوز الرصيد المرجعي شبه الواحد، واخذ يوظف بقدر أكبر من التحرر بعض ما يقع في متناوله من مراجع تعود إلى حقب التاريخ المختلفة. زيادة على ذلك، فإن ما يسترعي الانتباه هو أن التفاوت أتى بنقطة هامة تستحق التوقف عندها. فهو يظهر أن نسبة الاحالات إلى المراجع المستمدة من الحقبة الحديثة والمعاصرة، التي بلغت 44.4%، هي من بين أعلى النسب، إذ أنها تزيد عن ثلث المجموع الكلي لباقي الإحالات إلى مراجع غيرها من الحقب. ويستنبط من هذه النسبة مؤشر بارز آخر لا يقل أهمية عن سابقه، من منطلق أنها تشير إلى أنه بقدر التعدد في الابعاد الزمانية لرصيد المجلة، فإن اندماجه في سياق حقبته، بامتداداتها التاريخية، بدا بوضوح، حيث شكل فيه الزاد المرجعي المتأتي من هذه الحقبة مكوناً أساسياً من مكونات مادته.

ويمدنا المتغير الآخر بدوره بمجموعة من المؤشرات يأتي في مقدمتها المؤشرات التي تُستشف من التعدد في المنحدرات الجغرافية للمؤلفين. وإذا رجعنا مجدداً إلى الجدول رقم (1)، فإن ما سيتبين لنا هو أن الرصيد المرجعي للمجلة ضلم مراجع ينحدر مؤلفوها من أجزاء مختلفة من العالم. وفي الواقع، فان هذا التعدد يعبر عن اتساع آفاق هذا الرصيد، ويعكس لنا وجود إدراك واعٍ بتنوع مصادر المعرفة وامتداد حدود توزعها، خصوصاً في مثل السياق التاريخي الذي ظهرت فيه المجلة، واستشعار بقيمة ما ينطوي عليه ذلك من إضافات معرفية. ويستخلص من إطار هذا التعدد المزيد من المؤشرات منها نزعة الاهتمام بالاسهامات الفكرية والمعرفية للأنا التي وصلت نسبتها 21.3%، والتي ناهز مجموعها نحو ثلث ما تمت الإحالة إليه من إسهامات المؤلفين الذين ينحدرون من المنطقة العربية والإسلامية. وتعتبر هذه النسبة مرتفعة إذا ما أخذنا في الحسبان التباين الكمي في حجم الاسهامات المقدمة على الصعيد اليمني بالمقارنة مع ما قدم منها على الصعيد العربي والإسلامي. كما أن منها ما يستنبط من نسبة المراجع الأجنبية التي لم تكن مستمدة لا من الأنا الثقافي (اليمني)، ولا من عمقه الحضاري (العربي والإسلامي). فوجود هذه النسبة، على الرغم من انها كانت أدنى من غيرها، و لم تتجاوز 13.1%، يعد في حد ذاته مؤشراً ذا دلالة.فحضور اسهامات الآخر الاجنبي، لاسيما الآخر الغربي، الذي تكررت الإحالة إليه

بصورة أكبر من غيره، والرجوع إلى مضامينها بصفة مباشرة-حتى وإن كانت في معظمها مترجمة- ينُم عن أن هناك نمطاً من التفكير أخذ يعطي للاعتبارات المعرفية مكانة في رؤيته، مما جعله لا يستثني من مرجعيته مثل تلك الاسهامات، وإن يستعين في كتاباته بما كان يلتقي منها مع اهتماماته، وفي نطاق ما كانت تميله عليه محددات واقع وجوده.

2- المؤشرات المستمدة من خصائص السياقات

يسمح تناول الرصيد المرجعي للمجلة من ناحية خصائص السياقات بالنظر إلى الرصيد من زاوية أخرى، وفتح آفاق جديدة للبحث من خلاله عن مؤشرات المعاصرة البارزة. وبالإمكان أن تتم دراسة هذه المسألة كذلك من اتجاهات متعددة الأبعاد، وان يتم في تحليل كل منها الاستعانة بأكثر من متغير من متغيرات التحليل. ومع ذلك، فان الاهتمام سيتمحور بهذا الخصوص ايضاً، ولاعتبارات تهم في الأساس أهداف الموضوع ومقتضيات الرؤية المنهجية في طرح جوانب مكوناته، حول بعدي الزمان والمكان، وسيتأسس التحليل على متغيرين اثنين. ويتعلق أول هذين المتغيرين بالإطار التاريخي للاهتمامات التي عبرت عنها مضامين السياقات التي وظف فيها مجموع الاحالات إلى ذلك الرصيد، في حين يتعلق ثانيهما بإطارها الجغرافي. ويتضح من مسح مضامين هذه السياقات أن ما ورد فيها من بيانات حول المتغيرين آنفي الذكر توزعت على الوجه المبين في الجدول التالي:

جدول رقم (2)

توزيع سياقات الاحالات حسب الإطارين التاريخي والجغرافي لمضامينها

ح. التاليف / م. الجغرافية	الحقبة القديمة	الحقبة الوسيطة	الحقبة الحديثة والمعاصرة	المجموع	النسبة المئوية
الإطار اليمني	28	8	34	70	%43.7
الإطار العربي والإسلامي	15	69	4	88	%55
الإطار الأجنبي	1	1	-	2	%1.3
المجموع	44	78	38	160	%100
النسبة المئوية	%27.5	%48.7	%23.8	%100	

تَبرُز لنا من قراءة الارقام الواردة في الجدول أعلاه جملة من المؤشرات التي يمكن استنباطها عن طريق تحليل تكرارات الإحالات، والمقارنة بين مجاميعها ونسبها المئوية، وذلك على مستوى كلا المتغيرين. وإذا تم الانطلاق بتناول ما تضمنه المتغير الأول، الذي يهم توزيع مضامين سياقات الإحالات حسب الحقب التاريخية، فإن ما يلاحظ من تعدد في الحقب يعد أحد أولى المؤشرات التي تستخلص من المعطيات الخاصة بهذا المتغير. ويشير البحث في ما وراء هذا التعدد من تفسيرات إلى بداية ظهور نمط من التفكير لم يعد يتجاهل متغير الزمان في اهتماماته أو يقصيه منها.

كذلك، وإذا كانت نسبة الإحالات إلى الحقبة الحديثة والمعاصرة، التي بلغت 23.8%، تقدم في تعبيراتها مؤشراً إضافياً، بحكم أنها تكشف عن عدم تغييب هذا النمط من التفكير، في مضامين ماكان يطرحه، للمسائل ذات الصلة بالحقبة الزمنية التي ينتمي إليها، فإنها لا تعكس حجم الحيز الفعلي الذي احتلته هذه المسائل في اهتماماته. ويستمد المؤشر الأهم حول هذه النقطة من الإحالات إلى الحقبتين الوسطية والقديمة. فما يوحي به ظاهر تكرارات هذه الاحالات ونسبها ينم عن استمرار نزعة تركيز توجيه الفكر نحو الماضي. غير أن التصور الذي ينطوي عليه عدد لا بأس به منها يحمل رؤية لا يغفل أبعادها الحاضر أو المستقبل. فقد كان التركيز على الحقبة الوسيطة على الصعيد العربي الإسلامي، والعودة بصورة تلفت الانتباه إلى الحقبة القديمة، خصوصاً ما تعلق في إطارها باليمن، يمثل بالنسبة إلى هذا العدد، مثلما سنرى ذلك لاحقاً، شكلاً من أشكال التفاعل مع إحدى الظواهر المعرفية التي كانت تميز عصر صدور المجلة، وهي ظاهرة الحفر المعرفي في حقب التاريخ الماضية لاستكشاف مكامن القوة والضعف فيها، والاستلهام من ذلك في التفكير في اشكالات الواقع وعوامل التجاوز والنهضة.

وفي نفس الوقت، تسمح العودة إلى ما جاء في الجدول السابق من معطيات حول المتغير الثاني باستنباط عدد آخر من المؤشرات. ويعتبر مؤشر التعدد الذي تواتر تكرار

ظهوره على مستوى كل ما سبق تناوله من متغيرات، من ضمن أولى المؤشرات التي تبرز هنا أيضاً. وكما يستنتج من ذلك الجدول، فان السياقات التي وظفت فيها الاحالات لم ينحصر ما انطوت عليه مضامينها على مسائل ذات علاقة بإطار جغرافي واحد، بل أن منحاها العام كان منحى نلحظ فيه الاهتمام بأكثر من إطار. وفي الواقع، فإن هذا المنحى يشكل مظهراً لنمط من التفكير أخذت حدود اهتماماته المكانية تتجاوز من ناحية تعددها تلك التي كانت سائدة في المحيط الذي وجد فيه. ولا يخلو ما يستخلص من استنتاجات حول هذا المؤشر من الدلالة، مثلما هو الشأن مع بعض المؤشرات الأخرى التي يمكن تبينها على وجه الخصوص من خلال النظر في شكل توزيع النسب التي تهم هذا المتغير. فما يلاحظ في هذا التوزيع هو ارتفاع كل من نسبة الاحالات التي وردت في سياقات تتعلق مضامينها باليمن، وتلك التي وردت في سياقات تتعلق مضامينها بالإطار العربي والإسلامي، وكذا تقارب هاتين النسبتين، مقابل انخفاض ما عداهما. وعند قراءة ما وراء هذا التوزيع، فإن ما يستدل من مثل هذه القراءة هو أن هناك اتجاها لوضع الأنا في موقع محوري، دون تقليل من أهمية وثقل عمقه الحضاري العربي والإسلامي، مع بداية اهتمام، وإن بدرجة أدنى، بما يتجاوز هاتين الدائرتين من دوائر وجوده.

ثانياً: مؤشرات المعاصرة وانتماءات الكتاب الفكرية

استندت مسألة استنباط مؤشرات المعاصرة من الرصيد المرجعي للمجلة على ما عكسته البيانات المستمدة من بعض خصائص هذا الرصيد على مستوى كل من المراجع والسياقات. وقد يتبادر إلى الذهن بأن حصيلة هذا المجموع من التكرارات أو ذاك، أو هذه النسبة المئوية أو تلك، التي اتيح من خلالها الوصول إلى تلك المؤشرات، كانت مستخلصة من جل الكتابات التي وردت فيها إحالات إلى المراجع المعنية بالدراسة. فهل هذا هو مايستنتج فعلاً؟ أم أن ثمة نزعة يلمس منها وجود علاقة بينها والكتابات التي تعود إلى صنف معين من الكتاب؟ وللبحث عما يمكن تقديمه هنا من إجابات، فإنه سيتم اتباع نفس الاتجاهات العامة للمنهجية التي اتبعت في القسم الأول من هذه الدراسة.

1- مستوى خصائص المراجع

كان متغيرا حقب التأليف والمنحدر الجغرافي للمؤلفين هما المتغيران اللذان تم توظيفهما في التحليل في سياق هذا المحور من القسم السابق. وسيتم في هذا المحور استعادة نفس المتغيرين، ولكن مع الأخذ بعين الاعتبار أن يجري توزيع بياناتهما بما يلتقي ومرامي منظوره، أي أن يجري توزيع هذه البيانات حسب الكتاب أيضاً، وعلى الوجه المبين في الجدول التالي:

جدول رقم (3)

توزيع المراجع التي تمت الإحالة إليها بحسب خصائصها وفي علاقة بالكتاب

الكاتب	حقب التأليف				المجموع		المنحدات الجغرافية			المجموع
	ح. القديمة	ح. الوسيطة	ح.ح. والمعاصرة	ب.ن		الإطار اليمني	الإطار العربي والإسلامي	الإطار الأجنبي	ب.ن	
أحمد المطاع	2	42	31	4	79	10	58	11	–	79
عبدالله الجرافي	–	10	15	1	26	15	11	–	–	26
أحمد الوريث	2	6	9	1	18	3	9	6	–	18
أحمد الواسعي	–	4	2	2	8	–	8	–	–	8
محي الدين العنسي	–	1	2	2	5	1	1	1	2	5
أحمد الحورش	1	2	1	–	4	–	3	1	–	4
عبدالله العزب	–	3	1	–	4	–	3	1	–	4
محمد زباره	–	–	4	–	4	2	2	–	–	4
محمد اليازلي	–	3	–	–	3	–	3	–	–	3
احمد نعمان	–	–	2	–	2	2	–	–	–	2
احمد البراق	–	–	1	–	1	–	–	1	–	1
زيد عنان	–	–	1	–	1	–	1	–	–	1
عبدالواسع الواسعي	–	1	–	–	1	–	1	–	–	1
علي الزرقة	–	1	–	–	1	–	1	–	–	1
عمر الحداد	–	–	1	–	1	1	–	–	–	1
محمد أحمد مطهر	–	1	–	–	1	–	1	–	–	1
يحي منصور	–	–	1	–	1	–	1	–	–	1
المجموع	5	74	71	10	160	34	103	21	2	160

تتبلور عند القراءة الأولية لمادة الجدول فكرة عامة يتضح منها بالخصوص أن عـــدد الكتاب الذين احتوت كتاباهم على إحالات إلى المراجع المدروسة يعتبر مرتفعاً نسبياً حيث بلغ 17 كاتباً، غير أنه يتضح من تعميق هذه الفكرة الهم لم يكونوا يشكلون، مع ذلـــك، كتلة واحدة متجانسة، حيث يلاحظ عند تصنيفهم فكرياً، أن الاتجاه العام لهذا التصنيـــف يظهر أن البعض منهم كان ينتمي إلى الانتلجنسيا اليمنية الاصلاحية والتحديثية، في حـــين كانت انتماءات البعض الآخر موزعة بين أكثر من تيار تغلب على ملامحها، وإن بصـــورة متفاوتة، ملامح فكر إعادة الإنتاج[3]. وقد عكست انتماءات هؤلاء الفكرية تعبيراتها علـــى مستوى مؤشرات المعاصرة، وبدا من تحليل توزيع الإحالات الواردة في كتاباهم ومقارنـــة تكراراتها أن ثمة عدة ترابطات بينها والمؤشرات المذكورة.

وإذا تفحصنا عن قرب البيانات الخاصة بمتغير حقب التأليف ، فبالإمكان أن نتبـــين على سبيل المثال أن الإحالات إلى مراجع تعود إلى الحقب التاريخية المختلفة وردت فحسب في كتابات أحمد المطاع، وأحمد الوريث، إلى جانب أحمد الحورش. وكما هو معلوم، فـــإن هؤلاء الثلاثة كانوا من الكتاب المنتمين إلى الانتلجنسيا اليمنية الاصلاحيـــة والتحديثيـــة. وبمقدورنا إذا طالعنا كتابات أحدهم كالمطاع أو الوريث أن ندرك مـــدى حرصـــهما في اهتماماتهما الفكرية والمعرفية على أن يتعاملا مـــع زادهما المرجعي بصـــورة تجمـــع بـــين الانفتاح على الأدبيات المتأتية من حقب تاريخية مختلفة، وإعطـــاء مســـاحة في طرحـــهما للتمحيص والنقد. ويقدم لنا تخصيص المطاع لكامل الجزء الثالث من دراسته " في التـــاريخ اليمني: اليمن في مدارج التاريخ"[4]، أو تخصيص الوريث للجزء الأول من دراسته"صور من التاريخ اليمني: نظرة إجمالية في الأحوال الدينية والعلمية باليمن"[5]، اثنين من أكثر النمـــاذج دلالة على ما ذكر. من ناحية ثانية، وإذا كانت البيانات العامة الواردة في الجدول الســـابق تشير إلى أن الإحالات إلى الحقبة الحديثة والمعاصرة جاءت في كتابات هذا الصنـــف مـــن الكتاب كما جاءت في كتابات غيرهم، فإن ما يتضح من الرجوع إلى البيانات التفصيليـــة، مع الأخذ في الحسبان الأمتدادات التاريخية لهذه الحقبة، هو أن مجموع الإحالات إلى مراجع

تقترب مباشرة أو تتداخل زمانا مع فترة عصرهم ناهز نصف المجموع الكلي للإحـــالات الخاصة بذات الحقبة، وإن كتاباتهم تضمنت النسبة الكبرى مما ورد منها.

ويلاحظ عند التطرق للمتغير الثاني أن أبعاد النتيجة التي يوصلنا إليها تلتقي وأبعـــاد النتيجة التي تم التواصل إليها آنفاً في إطار المتغير الأول. إذ تظهر الإحالات الواردة في نفس الجدول وتوزيعها بأن أغلبية الإحالات إلى مراجع متعددة منحدرات مؤلفيـــها الجغرافيـــة جاءت في كتابات كان من أعدها هم من الكتـــاب المنتمـــين إلى الانتلجنســـيا اليمنيـــة الاصلاحية والتحديثية. كذلك، ومع أن نزعة الاهتمامات برصيد الأنا مـــن الإســـهامات الفكرية والمعرفية لم تكن غائبة لدى هذا الصنف من الكتاب مثل غيره، فـــإن وســـطهم كـــان الوسط الذي الح بوضوح إلى هذه المسألة. وقد تكررت إشارات البعض منهم إليها في عدة سياقات، وطرحت من زاوية تهتم بالموروث الذي تركه لنـــا الأجـــداد، وتدعـــو للاستفادة منه على اعتبار أنه يعد "ثروة" توجب علينا، كما يقول عبـــدالله العـــزب، أن "نقدرها حق قدرها"، إلى جانب التعريف به لأنه،حسب نفس الكاتب، من "العار" علينـــا أن يكون لنا مثله "فنتعمد إهماله وإغفاله ولا نتعهده ونشيد بذكره"[6]، مثلما طرحت مـــن زاوية تعني بتجديد هذا الرصيد وتوسيع نطاق نشره. وكان القيام بهذا العمل يعد في نظـــر محيي الدين العنسي بمثابة أمنية. غير أن غياب وسائل الشروع في تحقيق هذه الأمنية ظـــل، قبل ظهور مجلة الحكمة، يشكل أمرا يبعث بالنسبة إليه الحسرة في النفس[7]. علاوة علـــى ذلك، فإن الجدول السابق يظهر بأن الإحالات إلى إسهامات الآخر، خصوصا الغربي، أتت فحسب في الكتابات التي كان وسط ذلك الصنف من الكتاب مصدرها. وقد فسر هـــذا التوجه داخل هذا الوسط من منظور لاتغيب الاعتبارات المعرفية عن محاوره. أما مشروعيته الدينية، فإنها لا تفتقر أيضا في نظر أحد أولئك الكتاب إلى ما يسندها من هذه الناحيـــة، وتجد في الحديث النبوي الشريف "الحكمة ضالة المؤمن.."، الذي رجع إليه عند تطرقـــه في إحدى كتاباته إلى هذه المسألة، أساسا تستمد منه مرجعيتها[8].

2– مستوى خصائص السياقات

يحتاج البحث عما يمكن أن يوجد من ترابط بين مؤشرات المعاصرة المستمدة من مضامين السياقات التي وردت فيها الإحالات وما أشير إليه من أصناف الكتاب، الرجوع إلى المتغيرين اللذين تمت الاستعانة بهما في المحور المماثل من القسم السابق، ووضع توزيع بياناتهما في علاقة مع هؤلاء الكتاب مثلما يوضح ذلك هذا الجدول:

جدول رقم (4)

توزيع سياقات الإحالات حسب خصائصها وفي علاقة بالكتاب

الكاتب	الإطار التاريخي			المجموع	الإطار الجغرافي			المجموع
	ح. القديمة	ح. الوسيطة	ح.ح. والمعاصرة		الإطار اليمني	الإطار العربي والإسلامي	الإطار الأجنبي	
أحمد المطاع	23	47	9	79	23	56	–	79
عبدالله الجرافي	–	11	15	26	22	4	–	26
أحمد الوريث	7	6	5	18	9	9	–	18
أحمد الواسعي	2	6	–	8	–	8	–	8
محي الدين العنسي	5	–	–	5	5	–	–	5
أحمد الحورش	1	3	–	4	–	3	1	4
عبدالله الغزب	3	1	–	4	2	2	–	4
محمد زباره	–	–	4	4	4	–	–	4
محمد اليازيلي	3	–	–	3	–	3	–	3
احمد نعمان	–	–	2	2	2	–	–	2
احمد البراق	–	1	–	1	–	1	–	1
زيد عنان	–	1	–	1	–	–	1	1
عبدالواسع الواسعي	–	–	1	1	1	–	–	1
علي الزرقة	–	–	1	1	1	–	–	1
عمر الحداد	–	1	–	1	–	1	–	1
محمد أحمد مطهر	–	1	–	1	–	1	–	1
يحي منصور	–	–	1	1	1	–	–	1
المجموع	44	78	38	160	70	88	2	160

يبين ما جاء في الجدول أعلاه من توزيع للبيانات الخاصة بمتغير الإطـــار التــاريخي للإحالات أن الكتاب المنتمين إلى الانتلجنسيا اليمنية الاصلاحية والتحديثية لم يكونوا هــم فحسب من حملت كتاباتهم إحالات تتعلق مضامين السياقات التي وردت فيها بأكثر مـــن حقبة تاريخية. بيد أنهم كانوا يشكلون الأغلبية من هذه الناحية، كما أن وســـطهم هــو الوسط الذي ظهرت في كتابات اثنين من كتابه إحالات ترتبط مضامين الســياقات الــتي وردت فيها بالحقبة القديمة، والوسيطة، والحديثة والمعاصرة، وهما بالتحديد أحمد المطـــاع، وأحمد الوريث. كذلك، وبقدر ما يستنتج من وجود تقارب في توزيع الإحــالات الــتي وردت في سياقات تتعلق مضامينها بالحقبة الحديثة والمعاصرة، فإن التمايز بخصوص هــذه النقطة بين ذلك الصنف من الكتابات وغيره يبرز بوضوح عند توسيع التحليــل ليشــمل الإحالات إلى الحقبتين القديمة والوسيطة، والنظر فيما انطوت عليه مضامين سياقاتها مـــن أبعاد. إذ أن ما سيلاحظ هو أن عدداً لا بأس به من هذا النوع مـــن الإحــالات قــد تم توظيفه، وكما ألمحنا إلى ذلك في القسم السابق، في سياقات لم تكن تنفصل مرامي مضامينها لا عن الحاضر ولا المستقبل.ويكتشف من تحليل هذا الجزء أن جل ما اشتمل عليـــه مـــن إحالات وردت في الكتابات التي كان وسط صنف أولئك الكتّاب هو مصدرها. ولكـــن، لماذا هذه العودة إلى التاريخ؟

يجيب أحد الكتاب على هذا التساؤل بأن هذه المسألة اضحت إحـــدى ظواهـــر العصر التي لها، في نفس الوقت، ما يبررها. فتاريخ البشرية مثلما يرى "ما عرف في جميـــع ادواره عصرا هبت فيـــه الشعوب عن بكـــرة أبيها لدراسة الماضي والارتواء من منـــاهل ثقافته (...) كهذا العصر"[9]. ويبرر وجود هذه الظاهرة في طرحه بكون الشعوب والأمـــم ما قامت بهذا العمل إلا "لتضع على كاهل أبنائها من قدسية ماضيهم وأمانة تاريخهم مـــا تنوء بحمله الجبال، وتجعل من آثار ذلك الماضي أدوات تستخدم جذوة الوطنية في الصـــدور مستلهمة وحي النبوغ والتقدم من أرواح الآباء والأجداد"[10]. ويستنتج من كل ذلك بـــأن دراسة التاريخ "من ضرورات البقاء" وبأن "معرفة الأمـــة نفســـها مـــن أكـــبر عوامـــل الارتقاء"[11].

ولا يختلف جوهو ما يستخلص من متغير الإطار الجغرافي عن جوهر ما استخلص من سابقه. فتوزيع الإحالات حسب نطاق المجالات الجغرافية التي اهتمت بها مضامين سياقاتها يظهر أن مؤشر التعدد يبرز بصورة أكبر في إحالات الكتاب المنتمين إلى الانتلجنسيا اليمنية الإصلاحية والتحديثية، حيث وجد إنه من بين خمسة إحالات من هذا القبيل تضمنها الجدول السابق، كانت هناك اربع منها تهم كتاباً ينحدرون من الوسط المذكور. ومع ما يلاحظ في إطار هذا التعدد من إرتفاع نسبة الإحالات التي تعلقت مضامين سياقاتها باليمن، ووجود هذا النوع من الإحالات في كتابات الكثير من الكتاب، فإن تواتر تكرارها كان في هذه الكثير الحالة أكبر كذلك في كتابات الكتاب المنتمين إلى الانتجلنسيا اليمنية الاصلاحية والتحديثية. ولنزعة الاهتمام هذه الكثير من الأسباب التي يتلخص أبرزها في موقع هؤلاء من فكرة إصدار المجلة، والاتجاهات الرئيسية للأهداف التي تحملها. فقد تبلورت الفكرة وخرجت إلى النور بإسهام كبير كان في مقدمة من قام به أحمد الوريث، الذي كان كما ذكر زميله أحمد المطاع في رثائه له "غارس نبعتها"[12]، و"ربان سفينتها، وناشر زينتها، وهاديها إلى وجهتها التي أعدت لها، والغاية التي تطمح إليها"[13]. وكان المطاع هو من تولى بعد ذلك الإشراف على إصدارها إلى أن تم إيقافها. أما الاتجاهات الرئيسية لأهدافها فكانت، كما صاغها الوريث، تتمثل في البحث في "الشؤون الإسلامية والإصلاحية، والمسائل العلمية، والمباحث الأدبية، والفصول التاريخية والأخبارية"[14]. وكانت هناك نزعة في أن لا يتعد ما قدموه عن هذه الأهداف، وربطه بواقعهم المعاصر، وبامتداداته التاريخية والحضارية.

الخاتمة

كان الهاجس الأساسي لمرامي هذه الدراسة يتمثل في تلمس ما يمكن استنباطه من مؤشرات المعاصرة في كتابات مجلة الحكمة، والكشف عن العلاقة بينها وانتماءات الكتاب الفكرية، وذلك من خلال مقاربتها من ناحية قلما تم التطرق إليها والنفاذ إلى أغوارها المختلفة، وهي الناحية التي عبرنا عنها مجازاً بالرصيد المرجعي، ويمكن القول أن هذه المقاربة، وفق الضبط المنهجي لحدودها، قد سمحت بالوصول إلى العديد من الاستنتاجات.

ففي المستوى الأول، ظهر من تحليل هذا الرصيد، سواء من زاوية خصائص المراجع التي تكون من مجموعها، وما حملته من معطيات تهم على وجه التحديد الحقب التاريخية لتأليفها والانتماءات الجغرافية لمؤلفيها، أو من زاوية خصائص مضامين السياقات التي وردت فيها هذه المراجع، ولاسيما الخصائص الزمانية والمكانية منها، أنه ينطوي على مجموعة من مؤشرات المعاصرة. والملاحظ من منظور عام ومكثف، أن ما يستخلص من التحليل هو أن أول أبرز هذه المؤشرات وأكثرها تواتراً كان مؤشر التعدد بمظاهره المتنوعة، حيث تبين لنا أنه مثلما كان هناك، بالنسبة إلى خصائص المراجع، تعدد في الحقب التاريخية التي استمدت منها وفي الانتماءات الجغرافية لمؤلفيها، كان هناك أيضاً، بالنسبة إلى خصائص السياقات، تعدد في الزمان والمكان في مضامينها. وإلى جانب هذا المؤشر المستنبط من التوزيع العام للبيانات الخاصة بهذا المتغير أو ذاك، كشف لنا تحليل تفصيلات هذه البيانات وفق رؤية تأخذ في عين الاعتبار المقارنة بين مختلف ما تضمنته من نسب وتكرارات عن وجود مجموعة أخرى من المؤشرات منها، من ناحية إرتفاع نسبة المراجع التي تعود إلى الحقبة الحديثة والمعاصرة، وظهور قدر أكبر من الاهتمام بالمراجع المستمدة من الأنا، وبدء الالتفات لإسهامات الآخر الغربي بوجه خاص. ومنها من ناحية ثانية، نزعة الاهتمام المستنتجة بصورة مباشرة أو غير مباشرة من مضامين السياقات التي وردت فيها الإحالات بالمسائل التي ترتبط ابعادها بالحاضر والمستقبل، والتركيز فيها على الأنا، دون تجاهل لمحيطه الجغرافي والحضاري، والبدء في اعطاء حيز من الاهتمام بما له علاقة لما يتجاوز ذلك.

وتكشف العناصر المستخلصة من استقراء هذه المؤشرات عن وجود نمط من التفكير اخذ في تجاوز مجرد التمثل لما كان سائداً من ممارسات معرفية ثم إعادة إنتاجها. ويشير ما يستدل من أبعادها إلى إننا أمام نمط من التفكير تميز بترعته المنفتحة على الإسهامات المعرفية المتأتيه من أطر تاريخية وجغرافية مختلفة، واتجاهه في إطار هذه الترعة للاقتراب في الزمان، وبصورة أكبر، مما انتج منها في عصره، وجعله في المكان لمخزون الأنا المتراكم منها زاداً أساسياً. وكان ذلك عموماً هو ماميز كذلك اهتماماته، حيث يعكس ما طرحه من مسائل اتساع افقها في الزمان والمكان، وإن اظهر هنا أيضاً ميلاً لماله علاقة بالحاضر وإمتداداته المستقبلية، وإعطائه للأنا فيها موقعاً محورياً. ولا يتناقض هذا الاستنتاج مع ما لوحظ من اهتمامه بالماضي، خصوصاً الحقبة القديمة من ماضي الأنا، لأنه كان يرى فيها منطلقاً لمحاورة واقعه وما أصبح عليه، ولاستشراف طرق النهوض به. وقد تبين من تحليل العلاقة بين المؤشرات المستنبطة وأصناف الكتاب المتعددة، أن تعبيرات هذا النمط من التفكير استمدت التفاصيل العامة لمضامينها من كتابات الكتاب المنتمين إلى الانتلجنسيا اليمنية الإصلاحية والتحديثية، وفي مقدمتها كتابات بعض عناصرها البارزة مثل أحمد الوريث، وأحمد المطاع.

وعند التوقف لتقييم هذه المقاربة وما خلصت إليه، فإن ما يلاحظ هو أنها اسهمت في بلورة عدد من المؤشرات التي تساعد على تعميق رؤيتنا حول هذا الجانب من جوانب مسألة المعاصرة في كتابات المجلة، وتقدم من خلال ما توصلت إليه من ترابط بين تلك المؤشرات والكتابات التي كانت تلك الانتلجنسيا مصدرها، إضافة أخرى إلى معرفتنا حول أحد مظاهر الريادة في خطابها، واثارت مجدداً ما لمثل هذا الجانب من أهمية في دراستنا لمراحل تطور الفكر اليمني الحديث، ولاسيما في مراحله المبكرة. ومع ذلك فإن إغناء هذا الاسهام، وتوسيع إطار ما هو في متناولنا من زاد معرفي حول الجوانب المتعددة لتلك المسألة، يتطلب الاستعانة بما تتيحه هذه المقاربة من اختيارات منهجية وإمكانات أخرى للتحليل، كما يتطلب كذلك تنويع مقارباتنا بمداخلها المختلفة.

ملحق الدراسة

رأينا عند الانتهاء من إعداد متن الدراسة أن نرفق معها هذا الملحق، الذي بقدر ما يتيح للقارئ استعراض الرصيد المرجعي للمجلة، فإنه يسمح له أيضاً أن يطلع في الآن نفسه على عينه من قراءات المثقف اليمني عموماً في تلك الفترة.

ويمكن أن نشير، بإيجاز، إلى أننا كنا قد لاحظنا عند التدقيق في البيانات الخاصة بمتغيرات التحليل أن مادة هذا الرصيد اشتملت على عدة أنواع من الإحالات، يمكن أن نصنفها إلى صنفين: الصنف الأول، ويشكل ما نسبته 93.7%، ويضم ما احتوى منها على إشارة إلى اسم المؤلف وعنوان المؤلف، أو على أي من هذه البيانات. والصنف الثاني، ويمثل ما نسبته 6.3%، وانطوى على إشارة تفي بالحد الأدنى الذي المحنا إليه في المتن، ولكنها لا تساعد إلا في الحصول على جزء من البيانات التي تحتاجها جوانب التحليل المختلفة، وذلك على غرار: طبيب روسي "التطبيب بالصوم"، إلخ.

وفي حين إننا سنكتفي في هذا الملحق بالإيضاحات السابقة حول هذا الصنف، فإننا سنتوسع أكثر في تناول الصنف الأول، الذي سنميز داخله بين فئتين من الإحالات: الفئة الأولى، أو الفئة (أ) كما اطلقناه عليها، وقد ادرجنا في إطارها أساساً كل الإحالات التي وردت متضمنة أسم المؤلف وعنوان مؤلفه. والفئة الثانية، وهي ما اطلقناه عليها بالفئة (ب)، وقد ادرجنا في إطارها الإحالات التي تضمنت الإشارة إلى اسم المؤلف وبعض المعلومات التي تساعد على تحديد عنوان مؤلفه المعني بالإحالة، أو اقتصرت أحياناً أما على الاسم أو العنون.

وفي الأخير، فإننا استعنا في ضبط البيانات في كلتا الحالتين بمجموعة من المصادر سنأتي على ذكر أهمها في الهوامش العامة. كما استعنا بالإشارة (+)، لنوضح بصورة عامة للقارئ المراجع التي كرر الإحالة إليها أكثر من كاتب، والتي بلغت نسبتها 25.6%.

1- إحالات الفئة (أ):

	اسم المؤلف	الفترة التي عاش فيها	عنوان المؤلف أو المؤلفات التي تم الإحالة إليها
1-	إبن ابي الحديد، عبدالحميد	1190-1257م	شرح نهج البلاغة
2-	إبن أبي الرجال، أحمد	1612-1681م	مطالع البدور
3-	إبن الأثير، مجد الدين	1149-1210م	النهاية (+)
4-	إبن جني ، عثمان	912-1002م	الخصائص
5-	إبن حجر العسقلاني، أحمد	1373-1449م	- انباء الغُمر بانباء العُمر - بلوغ المرام
6-	إبن خالوية، الحسين	ت 980م	- اسماء الحية اسماء الاسد
7-	إبن خلدون، عبدالرحمن	1332-1406م	(المقدمة + التاريخ) (+)
8-	ابن دقيق العيد، محمد	ت 1320م	شرح العمدة
9-	ابن عقيل، ابو الوفاء البغدادي	ت 1119م	كتاب الفنون
10-	ابن عقيل، بهاء الدين	1298-1367م	شرح ألفية إبن مالك
11-	ابن قتيبة، عبدالله	828-889م	المعارف
12-	إبن الوزير، محمد بن إبراهيم	1373-1436م	- العواصم والقواصم - الروض الباسم - إيثار الحق على الخلق - التنقيح في علوم الحديث - ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان
13-	الادريسي، محمد	1100-1165م	نزهة المشتاق في اختراق الآفاق
14-	ارسلان ، شكيب	1869-1946م	غزوات العرب
15-	الارناؤود، معروف	1893-1948م	سيد قريش
16-	الأصمعي، عبدالملك الباهلي	740-831م	- كتاب الانواء - المسير والقداح - خلق الفرس - الإبل - الشاة
17-	الألوسي ، محمود	1857-1924م	بلوغ الأرب
18-	الانباري، ابو البركات	1119-1181م	تاريخ الأدباء

	اسم المؤلف	الفترة التي عاش فيها	عنوان المؤلف أو المؤلفات التي تم الإحالة إليها
19-	البلخي، ابو زيد محمد	849-934م	مفاتيح العلوم
20-	التنوخي، المحسن	940-994م	نشوار المحاضرة
21-	الثعالبي، عبدالملك	961-1038م	فقه اللغة
22-	الجاحظ، عمرو بن بحر	775-868م	- البيان والتبيين (+)
23-	جعفر، قدامه بن	حوالي 888-958م	الخراج
24-	الجلال، الحسن بن احمد	1604-1673م	- ضوء النهار - شرح الكافية - شرح التهذيب - نظام الفصول
25-	الجوهري، إسماعيل بن حماد	ت 1008م	تاج اللغة وصحاح العربية
26-	جويدي، اغناطيوس	1844-1935م	(المختصر في علم اللغة العربية) (+)
27-	الحداد، عمر محمد	ح.ح. والمعاصرة	الجهاد
28-	الحموي، ياقوت	1178-1228م	- معجم البلدان (+) - إرشاد الأريب
29-	الحميري، نشوان	ت 1178م	- شمس العلوم - درر نحور العين
30-	الحميري، محمد بن نشوان	ت 1213م	ضياء العلوم
31-	الخالدي، روحي	1864-1913م	- تاريخ علم الأدب عند الافرنج - العرب وفيكتور هوغو
32-	رضا، محمد رشيد	1865-1935م	تفسير المنار (+)
33-	زباره، محمد	1884-1961م	نشر العرف
34-	سيتودارت، لوثروب	ح.ح.والمعاصرة	حاضر العالم الإسلامي
35-	السخاوي، أبو الخير محمد	1427-1497م	الضوء اللامع لأهل القرن السابع
36-	سليم ، محمد شريف	ح.ح.والمعاصرة	مجموعة من النثر والنظم حياة محمد
37-	سميث، بتورث	ح.ح.والمعاصرة	حياة محمد
38-	السيوطي، جلال الدين	1445-1505م	- الاتقان في علوم القرآن - المزهر - الجامع الصغير
39-	الشرجي، إسماعيل	ت 1434م	عنوان الشرف

	اسم المؤلف	الفترة التي عاش فيها	عنوان المؤلف أو المؤلفات التي تم الإحالة إليها
40-	الشوكاني، محمد بن علي	1760-1834م	البدر الطالع (+)
41-	الشريف الرضي،محمد	970-1016م	نهج البلاغة
42-	عبده، محمد	1845-1905م	شروح نهج البلاغة (+)
43-	علي، محمد مكرد	1876-1953م	خطط الشام
44-	الفيروزبادي، محمد بن يعقوب	1329-1415م	- القاموس المحيط (+) - الروض المسلوف
45-	القاسم، الحسين بن	1591-1640م	- هداية العقول إلى غاية السؤل في علم الأصول (الغاية) (+) - شرح الغاية
46-	القالي، إسماعيل البغدادي	901-967م	- الإبل - حلى الإنسان - فعلت وافعلت - مقاتل الفرسان - ذيل الامالي (+)
47-	القلقشندي، شهاب الدين	1352-1418م	صبح الأعشى في صناعة الانشاء
48-	كوك، ريتشارد	ح.ح.والمعاصرة	(مكان العرب تحت الشمس)
49-	مبارك، زكي	1895-1952م	النثر الأدبي
50-	المحبي، فضل الله	1621-م1671	رسائل البلغاء
51-	المسعودي، ابو الحسن	ت 957م	مروج الذهب ومعادن الجوهر
52-	المقريزي، تاج الدين	1364-1442م	المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأثار
53-	نيكلسون، رينولد	1868-1945م	التاريخ الأدبي للعرب
54-	ويلفنسون ، اسرائيل	ح.ح.والمعاصرة	قاموس اللغات السامية (+)
55-	الهاشمي، أحمد	1878-1943م	جواهر الأدب
56-	الهاشمي، طه	ت 1961م	جغرافية بلاد العرب
57-	الهمداني، ابو الحسن	893 حتى ما بعد 947م	- صفة جزيرة العرب (+) - الإكليل (+)

2- إحالات الفئة "ب".

	اسم المؤلف	الفترة التي عاش فيها	عنوان المؤلف أو المؤلفات التي تم الإحالة إليها
-1	إبن خراداذبة، القاسم	820-913م	المسالك والممالك
-2	إبن دريد، محمد	837-933م	الجمهرة في اللغة
-3	إبن رسته، محمد	ح. الوسيطة	الاعلاق النفيسة
-4	إبن فارس، أحمد	ت 1005م	-
-5	إبن فضلان، أحمد	ح. الوسيطة	-
-6	ابن مفتاح، عبدالله	ت 1442م	شرح الازهار
-7	ابن المقفع، عبدالله	724-759م	-
-8	إبن نباته، محمد	1287-1366م	سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون
-9	ابو دلف الخزرجي، مسعر	ت 1000م	-
-10	أحمد، الخليل بن	718-791م	كتاب العين
-11	أحمد، عظيم الدين	ح.ح. والمعاصرة	منتخبات في أخبار اليمن
-12	استرابون	نحو 63ق.م-24م	جغرافية سترابون
-13	اغاثرخيدس	القرن الثاني ق.م	-
-14	افلاطون	نحو 427-347 ق.م	-
-15	أمين، أحمد	1887-1954م	ضحى الإسلام (+)
-16	بلينوس	23-79م	التاريخ الطبيعي
-17	البيروني، محمد	ت 1048م	- تاريخ الهند - تحقيق ما للهند من مقولة
-18	ثعلب، أحمد بن يحي	816-904م	-
-19	الجوهري، طنطاوي	1870-1939م	الجواهر في تفسير القرآن الكريم
-20	الحيمي، الحسن بن أحمد	1660م	سيرة الحبشة
-21	الذهبي، محمد بن أحمد	1274-1348م	
-22	الرازي، محمد بن أبي بكر	1268م	مختار الصحاح
-23	الرضي، محمد	ت نحو 1287	-
-24	رينان، ارنست	1823-1892م	-
-25	زيدان، جورجي	1861-1914م	-
-26	السياغي، حسين بن أحمد	1766-1806م	الروض النضير

	اسم المؤلف	الفترة التي عاش فيها	عنوان المؤلف أو المؤلفات التي تم الإحالة إليها
27-	سيبوية، ابو بشر عمرو	ت نحو 796م	الكتاب
28-	الصنعاني، عبدالرزاق	744-827م	-
29-	الغزالي، أبو حامد	1059-1111م	احياء علوم الدين
30-	غلاوزر، ادوارد	1855-1907م	-
31-	الغياث، لطف الله	ت 1626م	المناهل الصافية
32-	الكندي، ابو اسحق يعقوب	801-865م	-
33-	لو بون، غوستاف	1841-1931م	-
34-	المبرد، محمد بن يزيد	826-898م	-
35-	المرزوقي، أبو علي أحمد	ت 1030م	-
36-	المقدسي، أبو عبدالله	القرن العاشر الميلادي	احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم
37-	منبه، وهب بن	ت 732م	التيجان
38-	-	ح.ح. والمعاصرة	الدليل العراقي (دليل حكومي)
39-	-	ح.ح. والمعاصرة	دائرة المعارف الإسلامية (بمجموعة مؤلفين)

الهوامش والمراجع

أولاً: هوامش المتن

(1) اخذ اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين بنفس الإسم ليكون عنوانا لدوريته التي ظهر العدد الأول منها سنة 1971م.

(2) لمزيد التفصيل حول الانتلجنسيا اليمنية، انظر: د. عبداللطيف الأدهم، الانتلجنسيا اليمنية: النشو والتطو-مقاربة سوسيولوجية، (تونس: جامعة تونس الأولى، أطروحة دكتوراه غير منشورة، 1997)، 276ص.

(3) يمكن الرجوع أيضاً، حول ما قدم من تصنيفات للاتجاهات الفكرية، إلى: د.عبدالعزيز المقالح، أحمد الحورش الشهيد المربي، (صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، بيروت: دار الآداب، سلسلة إعلام الحرية (1)، 1984)، ص153.

(4) أحمد المطاع، في التاريخ اليمني: اليمن في مدارج التاريخ(3)، الحكمة، المجلد الثاني، العدد (9)، رجب 1359/اغسطس 1940، ص ص 264-269.

(5) أحمد الوريث، من صور التاريخ اليمني: نظرة إجمالية في الأحوال الدينية والعلمية باليمن، الحكمة، المجلد الثاني، العدد (1)، ذي القعدة 1358/ديسمبر 1939، ص ص -13.

(6) عبدالله العزب، في الأدب اليمني، الحكمة، المجلد الثاني، العدد (4)، صفر 1358/ مارس 1940، ص 107.

(7) محيي الدين العنسي، ديوان السالمي: في الأدب المعاصر (1)، الحكمة، المجلد الثالث، العدد (3)، محرم 1360/ يناير 1941، ص 74.

(8) أحمد المطاع، في التاريخ اليمني: اليمن في مدارج التاريخ (6)، الحكمة، المجلد الثالث، العدد (2)، ذي الحجة 1359/ ديسمبر 1940، ص 176.

(9) ــــــــ، في التاريخ اليمني: اليمن في مدارج التاريخ (1)، الحكمة، المجلد الثاني، العدد (6)، ربيع الثاني 1359/ مايو 1940، ص 176.

(10) نفس المرجع، نفس الصفحة.

(11) نفس المرجع، ص 177.

(12)ــــــــ، دمعة محزون، الحكمة، المجلد الثاني، العدد (3)، محرم 1359/ فبراير 1940، ص78.

(13)ــــــــ، الوداع الأخير، نفس المرجع، ص 70.

(14) أحمد الوريث، الافتتاحية، الحكمة، المجلد الثاني، العدد (1)، ذي القعدة 1357/ ديسمبر 1938، ص 4.

ثانياً: مراجع الملحق

(1) الموسوعة اليمنية، صنعاء: مؤسسة العفيف الثقافية، ط1، 1992.

(2) الموسوعة العربية الميسرة، بيروت: دار نهضة لبنان للطبع والنشر، 1981.

(3) المنجد في اللغة والإعلام، بيروت: دار المشرق، 1986.

(4) خير الدين الزركلي، الاعلام، بيروت: دار العلم للملايين، ط 7، 1986.

(5) عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، بيروت: دار أحياء التراث العربي، د.ت.

من محاور الأعداد القامة

- قضايا الترجمة والمصطلح
- الديمقراطية وحقوق الإنسان
- علوم الأرض الواقع والآفاق
- مدينة زبيد.. استعادة المجد
- فن العمارة في الجزيرة العربية
- الفلاحة ومخاوف التكنولوجيا

الأطر المؤسسية والقانونية لرعاية المغتربين اليمنيين(*)

د. ياسين الشيباني(**)

مدخل

منذ أن انهار سد مأرب وتفرّقت أيدي سبأ ، عُرِّفت اليمن بأنها بلد طارد للسكان، والشاهد على ذلك توالي خروج موجات الهجرة منذ أقدم العصور وحتى اليوم.

ومع أن ظاهرة الهجرة والاغتراب قديمة في حياة اليمنيين إلا أن هذه الظاهرة لم تحظ بالدراسة العلمية إلا مؤخراً ، كما أن شؤون المغتربين لم ينظر إليها بجدية واهتمام إلا منذ

(*) دراسة قدمت في مؤتمر ندوة الهجرة اليمنية في شرق أفريقيا وشبه الجزيرة العربية، جامعة حضرموت للعلوم والتكنولوجيا ووزارة شئون المغتربين، المكلا، 17-18 يناير 2001م.

(**) أستاذ القانون الدولي المساعد، جامعة صنعاء، اليمن.

وقت قريب ، وتحديدا منذ تحقق وحدة اليمن في 22 مايو 1990 وما تبعها من إنشاء وزارة مستقلة لشؤون المغتربين كدليل على اهتمام الدولة بأبنائها الذين اضطرتهم الظروف إلى هجر وطنهم وأهلهم والبحث عن سُبل العيش الكريم في مختلف أصقاع الأرض.

وتحاول هذه الدراسة تناول بعض الجوانب المرتبطة بقضايا الهجرة والاغتراب وتحديداً الجوانب المتعلقة بالأطر المؤسسية والقانونية وذلك سعياً إلى إرساء المبادئ الأساسية التي يجب أن يتضمنها أي إطار قانوني يمكن أن يصدر في المستقبل بهدف رعاية وحماية المغتربين اليمنيين.

كما تحاول الدراسة بيان الوضع القانوني للمغتربين في ضؤ المتغيرات الدولية الجديدة التي أدت إلى تآكل مبدأ سيادة الدولة في ظل مفهوم العولمة وما ترتب عليه من القبول بمبدأ " الحدود المفتوحة " الأمر الذي يعني انقلاباً حقيقياً في المفاهيم والمسلمات التي كانت تحكم ظاهرة الهجرة والاغتراب.

وعلى ذلك ، فسيتم تناول هذا الموضوع وفقاً للتقسيم الآتي:

أولاً: الأطر المؤسسية والقانونية لرعاية المغتربين منذ قيام الثورة (1962) وحتى تحقيق الوحدة (1990).

ثانيا: الأطر المؤسسية والقانونية لرعاية المغتربين منذ قيام الوحدة (1990م) وحتى عام (2000م)

ثالثاً: الأطر المؤسسية والقانونية لرعاية المغتربين في بعض البلاد العربية (المبادئ الرئيسية).

رابعاً: نحو إطار قانوني لرعاية المغتربين اليمنيين في ظل المتغيرات الدولية الراهنة.

أولاً: الأطر المؤسسية والقانونية لرعاية المغتربين.

منذ قيام الثورة (1962م) وحتى تحقيق الوحدة (1990م)

1- قبل قيام الثورة اليمنية عام 1962 كانت اليمن - كما هو معروف - تعيش في عزلة عن العالم فرضها عليها الحكم الإمامي، حيث كان الشعب اليمني يعيش في سجن كبير يمتد بمساحة البلاد، وكان المغتربون هم تلك الفئة التي أسعدها الحظ بمغادرة ذلك السجن .وفي وضع كهذا لم يكن الحديث ممكناً عن حقوق المواطنين المقيمين ناهيك عن حقوق المغتربين والمهاجرين الذين كان ينظر إليهم - في الغالب - بوصفهم خارجين عن طاعة الإمام .

وقد كان منطقيا أن يكون المغتربون اليمنيون - الذين لامسوا الفرق بين بلادهم وبقية بلاد العام- أول الساخطين على الحكم الإمامي وأول الحالمين بإسقاطه والساعين إلى الإطاحة به. ففي عام 1948 شارك قطاع عريض من المغتربين في دعم الثورة التي وئدت في مهدها ، ودفع المغتربون ثمنا باهظا لمشاركتهم تلك، غير أن ذلك لم يفت في عضدهم. فعندما جاءت ساعة الحسم في السادس والعشرين من سبتمبر عام 1962،كان المغتربون في طليعة القوى الوطنية التي وقفت في صف الثورة حيث هب المغتربون من كل حدب وصوب يدافعون عن الثورة ، في أيام الصراع الحاسمة من أجل الحرية والكرامة وعزة الوطن، وهو الدور الذي تكرر بعد ذلك عند قيام ثورة الرابع عشر من أكتوبر (1963) في الشطر الجنوبي من الوطن[1].

2- بعد نجاح ثورة سبتمبر بدأت جسور التواصل في الامتداد بين المغتربين والوطن، وكاعتراف من قيادة الثورة بدور المغتربين في دعم الحركة الوطنية ، وإدراكاً منها لأهمية رعاية وحماية المغتربين وربطهم بقضايا الوطن - تم تعيين وزير للدولة لشئون المهاجرين في أول حكومة للثورة في سبتمبر 1962 ، وبعد

ذلك بشهر (أكتوبر 1962) صدر قرار بتعيين وزير لشئون المغتربين وآخر بتعيين نائباً له[2]. وهكذا أنشأت الثورة أول إطار مؤسسي لرعاية شئون المغتربين وإن كان مما يؤسف له أن هذا الاتجاه لم يستمر طويلاً - ربما بحكم الظروف والتحديات التي واجهت الثورة في سنواتها الأولى إذ سرعان ما اختفى هذا الإطار المؤسسي وألغي منصب وزير المغتربين في الحكومة التي تشكلت في أبريل 1963 و لم تعد هذه الوزارة إلى التشكيل الحكومي إلا بعد سبع وعشرين عاماً أي بعد إعادة توحيد البلاد في مايو 1990[3].

3- ومن المعروف أن جهود حكومة الثورة قد انصرفت كلية إلى تثبيت النظام الجمهوري باعتبار أن هذا الأمر كان مسألة مصيرية بالنسبة للشعب اليمني الذي أثبت جدارته في الدفاع عن الثورة والجمهورية بعد انتصاره الحاسم في معركة السبعين يوماً وفشل القوى المعادية للثورة واندحارها نهائياً.

ورغم عدم وجود أي إطار مؤسسي رسمي في إطار الحكومة لرعاية شئون المغتربين خلال الفترة من عام 63 - 1975م (عدا ما كانت تقوم به وزارة الخارجية وبعثاتها في هذا الشأن) إلا أن المغتربين استمروا في أداء دورهم الوطني في دعم ومناصرة الثورة والجمهورية وفي التواصل والتفاعل مع قضايا وهموم الوطن من خلال القنوات غير الرسمية والجهود والمبادرات الشخصية مما كان له أبلغ الأثر في ازدهار الحركة التجارية وحركة البناء والإعمار التي كان للبيوت التجارية الوطنية دور بارز فيها .

4- وفي الشطر الجنوبي من الوطن كان الاستعمار البريطاني لا يزال جاثماً على الأرض اليمنية رغم الضربات التي نزلت به كنتيجة لانطلاق ثورة الرابع عشر من أكتوبر (1963) ، وقد كان طبيعياً أن لا يهتم الحكم الاستعماري بشئون المغتربين اليمنيين ، رغم أن حضرموت هي المنبع الأول للمغتربين والمهاجرين اليمنيين إلى الخارج[4].

وبعد جلاء المستعمر البريطاني ، ونيل الشطر الجنوبي من الوطن استقلاله في 30/نوفمبر/1967 ، لم يتم إنشاء أي جهاز مؤسسي لرعاية شئون المغتربين والمهاجرين اليمنيين الذين تزايدت وتيرة خروجهم من البلاد بعد سيطرة الاتجاه الشمولي على مقاليد الحكم والبدء في موجة التأميمات التي وصلت إلى حد مصادرة وتأميم المنشآت والمساكن الشخصية وموارد الرزق البسيطة مما أوجد عاملاً إضافياً قوياً للاغتراب والهجرة .

ومع ذلك ، فقد أنشئت إدارة عامة لشئون المغتربين في عام 1970 وألحقت هذه الإدارة بوزارة الخارجية ، ثم ألحقت مباشرة برئاسة الوزراء بدءاً من عام 1986 وحتى قيام الوحدة عام 1990[5].

5- وعودة إلى أوضاع المغتربين من الشطر الشمالي خلال عقدي السبعينات والثمانينات وبعد استقرار الأوضاع في الشمال ، أنشئ الاتحاد العام للمغتربين في صنعاء عام 1976، وكان تابعاً لرئاسة الجمهورية ، ثم أنشئت له أمانة عامة بدءاً من عام 1984 وظل الاتحاد يرعى شئون المغتربين حتى قيام الوحدة عام1990.

6- والملاحظة الأساسية التي تستوقف نظر الباحث في الأطر المؤسسية والقانونية الخاصة بشئون المغتربين خلال الفترة من قيام الثورة (1962) وحتى قيام الوحدة (1990) هي عدم وجود رؤية أو سياسة واضحة نحو المغتربين. وباستثناء التعاطف والحماس اللفظي الذي يبديه المسئولون في المناسبات واللقاءات ظل المغتربون والمهاجرون يواجهون مشاكلهم وقضاياهم بأنفسهم دون تدخل من الأجهزة الرسمية إلا في الحدود الضيقة التي تقتضيها الإجراءات الروتينية في استخراج الجوازات والتأشيرات .

ورغم وجود الأطر المؤسسية لشئون المغتربين منذ بداية عقد السبعينات على الأقل ، إلا أن تلك الأجهزة لم يجر تنظيمها وتفعيلها بالشكل الذي يجعلها

قادرة على أداء دورها في رعاية شئون المغتربين والمهاجرين الذين تزايدت وتيرة مغادرتهم إلى البلدان المجاورة في فترة الطفرة النفطية ، وخصوصاً إلى المملكة العربية السعودية التي استقبلت وحدها قرابة مليون مغترب يمني في الفترة المشار إليها .

ثانياً : الأطر المؤسسيَّة والقانونية لرعاية المغتربين

منذ قيام الوحدة (1990) إلى عام (2000م)

1- في الثاني والعشرين من مايو 1990 ، تحققت أغلى أمانيّ الشعب اليمني بإعادة توحيد البلاد تحت القيادة التاريخية للرئيس علي عبد الله صالح ، ومثلما فتحت الوحّدة باب الأمل واسعاً أمام اليمنيين ، كان المغتربون -بصفة خاصة- أكثر فئات الشعب استبشاراً وتفاؤلاً بالوحدة لا سيما ذلك القطاع العريض من المغتربين من الشطر الجنوبي من الوطن الذين كانوا يحلمون بيوم العودة والاستقرار في بلادهم ، فكانت فرحتهم مضاعفة بوحدة البلاد وبزوال كابوس الحكم الشمولي الذي كان حائلاً بينهم وبين حلم العودة والاستقرار في ربوع الوطن .

و لم يخب أمل المغتربين في يمن الوحدة ، فقد تضمن أول تشكيل لدولة الوحدة إنشاء وزارة خاصة بالمغتربين كترجمة عملية لقناعة القيادة السياسية بأهمية قطاع المغتربين ودورهم في البناء الوطني ، ولكن نظراً للملابسات والظروف التي سادت خلال الفترة الانتقالية (22مايو 1990-27أبريل 1993) وانعكاساتها السلبية على أداء الهيئات والأجهزة الحكومية، لم يُستكمل التنظيم القانوني للوزارة التي كان لها -رغم ذلك- دور إيجابي في معالجة أوضاع المغتربين العائدين نتيجة أزمة الخليج الثانية[7]. وقد كانت تلك الأزمة هي المحك الحقيقي

الذي أظهر مدى الحاجة إلى جهاز فعال يهتم بقضايا المغتربين في بلد قليل الموارد يصنف في تقارير المنظمات الدولية على أنه من بين أفقر الدول في العالم[8] .

2- وبعد الانتخابات النيابية التي جرت في البلاد في 27أبريل 1993م ، وجه مجلس الرئاسة الحكومة بأن يتم إلحاق شئون المغتربين بوزارة الخارجية (بعد أن كانت هناك وزارة مستقلة تعنى بشئون المغتربين) وبدوره قام رئيس مجلس الوزراء آنذاك بتكليف لجنة ترأسها وزير الخدمة المدنية والإصلاح الإداري وعضوية كل من وزير الخارجية ووزير المالية ، وذلك لترتيب وضع وزارة المغتربين السابقة كقطاع تابع لوزارة الخارجية .. وبدلا عن ذلك ، استقر رأي اللجنة على إنشاء مجلس يسمى "مجلس شئون المغتربين".

3- وفي 20 أكتوبر 1993م ، وافق مجلس الوزراء بقراره رقم (105) على إنشاء مجلس شئون المغتربين الذي تشكل على النحو التالي[9] :

- وزير الخارجية	رئيساً
- وزير المالية	عضواً
- وزير الداخلية	عضواً
- وزير التربية والتعليم	عضواً
- وزير التأمينات والشئون الاجتماعية والعمل	عضواً
- الأمين العام لشئون المغتربين	عضواً

ومرة أخرى ، ونظراً للأزمة التي مرّت بها البلاد من جراء محاولة الانفصال الفاشلة ، لم يستكمل هذا الإطار المؤسسي الجوانب التنظيمية اللازمة لتفعيله وتحقيق الأهداف التي أنشئت من أجلها .

4- بعد نجاح الشعب في القضاء على محاولة الانفصال (7 يوليو 1994) واستتباب الشرعية الدستورية ، واستقرار الأوضاع في البلاد ، صدر القرار الجمهوري رقم (3) في 5يناير 1997م بإنشاء مجلس شئون المغتربين ، ومنح هذا المجلس شخصية اعتبارية وذمة مالية مستقلة بحيث يكون له رئيس وأمانة تنفيذية ، وأدخل في عضوية المجلس –بحكم القانون– ممثلين لا تقل درجة كل منهم عن وكيل وزارة مختص ، ويمثلون الجهات الآتية : وزارة الخارجية– وزارة الداخلية– وزارة التربية والتعليم– وزارة التأمينات والشئون الاجتماعية والعمل– الهيئة العامة للاستثمار .

وفي 7مايو 1996 صدر قرار رئيس مجلس الوزراء رقم (152) بشأن اللائحة التنظيمية لمجلس شئون المغتربين التي احتوت على (19) مادة ، تضمنت المادة الثالثة منها الهدف من إنشاء المجلس والمتمثل في : "رعاية المغتربين وتوثيق صلاقم وروابطهم بالوطن وتحقيق مشاركتهم في التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، وذلك طبقاً للدستور والقوانين النافذة والسياسة العامة للدولة"[10].

5- وبعد الانتخابات النيابية الثانية في عهد الوحدة التي جرت في 27 إبريل 1997، تشكلت حكومة جديدة تضمنت حقيبة خاصة بشئون المغتربين ، مما أكد من جديد استمرار حرص الدولة واهتمامها بشئون المغتربين وبتعزيز ارتباطهم بالوطن .

وفي نوفمبر 1997 ، صدرت اللائحة التنظيمية للوزارة بموجب القرار الجمهوري رقم (252) ، وبموجبه تحددت بشكل دقيق مهام وأهداف الوزارة وهيكلها ونظام عملها.

ولم يختلف الهدف العام من إنشاء الوزارة عما كانت تهدف إليه الأجهزة السابقة ، وهو : رعاية المغتربين اليمنيين في الخارج والداخل ، وتوثيق صلاتهم

وروابطهم بالوطن وتحقيق مشاركتهم في التنمية الاقتصادية والاجتماعية طبقاً للدستور والسياسة العامة للدولة والقوانين النافذة .

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف العام أوكلت إلى الوزارة المهام والاختصاصات الآتية[11]:

1-رسم الاستراتيجيات والسياسات الكفيلة بتحقيق أهداف الوزارة في مجال رعاية المغتربين واقتراح القوانين والخطط والوسائل اللازمة لتحقيقها .

2-تنسيق الجهود مع الجهات ذات العلاقة لاستيعاب المغتربين في سياسات وخطط التنمية الاجتماعية والاقتصادية ، وكذا لأغراض تحسين نوعية الخدمات والتسهيلات اللازمة لهم .

3-تأمين استفادة المغتربين من الخدمات والتسهيلات والحقوق الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المكفولة لهم بمقتضى الدستور والقوانين النافذة.

4-الحفاظ على الهوية الثقافية للمغتربين وتوثيق صلاقم وروابطهم بالوطن .

5-اتخاذ التدابير الكفيلة بتوحيد وتنظيم جهود المغتربين لتفعيل مركزهم ودورهم في بلدان اغترابهم من جهة ولضمان مشاركتهم الفعالة في عملية التنمية الاجتماعية والاقتصادية في وطنهم من جهة أخرى .

6-تنظيم وتوسيع الاتصال وقنواته مع المغتربين وهيئاقم في الخارج وتسمية مندوبين للوزارة في مناطق الاغتراب ذات الكثافة طبقا للإجراءات النظامية.

7-إرساء وتشغيل نظام للمعلومات يكفل توفير البيانات والمعلومات الأساسية النوعية والكمية عن المغتربين اليمنيين والجاليات العاملة في اليمن .

8-الإسهام في وضع وتحسين التشريعات الوطنية في مجال الهجرة وشئون المغتربين ، والمشاركة في المفاوضات المنظمة للهجرة وانتقال العمالة مع البلدان الأخرى .

9-دراسة النظم والأوضاع القانونية في بلدان الاغتراب والاتفاقيات الدولية ذات العلاقة لتحسين تمثيل ومتابعة مصالح المغتربين وإسداء المشورة لهم .

10- تبني مصالح وقضايا المغتربين في الخارج والداخل ومتابعتها والدفاع عنها بالوسائل المناسبة .

11- الإسهام في تنمية علاقة التعاون مع بلدان الاغتراب لتعزيز مركز المغتربين وحماية مصالحهم .

12- القيام بأية مهام أخرى تقتضيها طبيعة وظائفها ."

6- وجاء الهيكل الإداري للوزارة ليكون متوائماً مع المهام الموكلة إليها ، فإلى جانب الوزير ووكيل الوزارة ضم الهيكل الإدارات العامة الآتية : التخطيط والمعلومات- الاتصال والعلاقات- الترويج والاستثمار- الشئون الثقافية والإعلامية- الشئون القانونية- الشئون المالية والإدارية- مجلة الوطن-مكاتب الوزارة في محافظات : عدن ، تعز ، حضرموت.

أما مجلس الوزارة فقد تألف من : وزير المغتربين رئيساً ، وعضوية الوكيل ومديري الإدارات العامة في الوزارة بالإضافة إلى مستشاري الوزارة ورئيس لجنة التعويضات ورئيس تحرير مجلة الوطن .

7- وباستكمال هيكلة الوزارة وتنظيمها أصبح للمغتربين إطار مؤسسي متكامل يمكن التعويل عليه لرعاية شئون المغتربين ، وتدل المؤشرات على أن الوزارة قد اتخذت بالفعل عدداً من الخطوات والإجراءات الجادة في سبيل إحداث نقلة

نوعية لرعاية المغتربين والاهتمام بشئونهم والتخطيط المدروس للمشاكل والقضايا المرتبطة بظاهرة الهجرة والاغتراب ، ومن العلامات البارزة في هذا الاتجاه :

- الاهتمام الواضح الذي تبديه القيادة السياسية ممثلة بالأخ علي عبدالله صالح رئيس الجمهورية بقضايا المغتربين ، وقد تم التعبير عن ذلك في أكثر من مناسبة ، كما تم ترجمة ذلك الاهتمام إلى إجراءات إدارية وقانونية وزيارات ميدانية قام بها الأخ الرئيس إلى أماكن تواجد المغتربين اليمنيين في كافة أرجاء العالم .

- عقد ندوة "المغتربون .. الرافد الأساسي للتنمية المستدامة". التي نظمها المجلس الاستشاري ووزارة شئون المغتربين ، والتي قدمت فيها عدد من الدراسات والأبحاث المتعلقة بظاهرة الهجرة والاغتراب ، وذلك في إبريل 1999.

- انعقاد المؤتمر العام الأول للمغتربين اليمنيين برعاية الأخ رئيس الجمهورية وحضوره ، في الفترة من 15-17 مايو 1999 بالعاصمة صنعاء .

- الزيارات الميدانية التي قام بها وزير المغتربين إلى عدد من الدول التي تتواجد بها جاليات يمنية في أمريكا وأوربا وشرق أفريقيا وآسيا .. وكذا الزيارات التي قام بها وكيل الوزارة ومديرو العموم والمستشارون لتلك الدول .

- إنشاء قاعدة بيانات ومعلومات متكاملة عن المغتربين وفئاتهم ، وأماكن تواجدهم والتخطيط المدروس لحل مشاكلهم .

- التعاون مع الجامعات ومراكز الأبحاث في دراسة قضايا الاغتراب وتطوير سبل رعاية المغتربين ، والمثال النموذجي على هذا التعاون هو إنشاء مركز دراسات الهجرة والاغتراب بجامعة حضرموت الذي وجد كثمرة للتعاون والتنسيق بين وزارة شئون المغتربين وجامعة حضرموت للعلوم والتكنولوجيا.

- إنجاز مسودة مشروع قانون رعاية المغتربين اليمنيين وتوزيعه على الباحثين والمهتمين ومراكز الأبحاث والجاليات لإبداء ملاحظاتهم وتعليقاتهم وآرائهم تمهيداً لصياغة هذا القانون في صورته النهائية .

8- ومن خلال الخطوات والمؤشرات السابقة يمكن القول أن وزارة شئون المغتربين أنجزت الكثير في وقت قصير فيما يتعلق بالبناء المؤسسي والتنظيمي ، غير أن هذا البناء لن يكون مكتملاً إلا بصدور قانون رعاية المغتربين الذي نأمل أن يأتي ملبياً لآمال وطموحات المغتربين اليمنيين في كل مكان ، وأن يستفيد من خبرة وتجربة الدول العربية الشقيقة التي سبقتنا في هذا الميدان وخصوصاً تجربة كل من مصر ولبنان ، وكل منهما لها تجربة متميزة في هذا المجال ، وسوف نستعرض في البند التالي أهم المبادئ القانونية وكذا أهم الدروس المستخلصة من تجربة هاتين الدولتين ، وذلك تمهيداً لعرض تصورنا الخاص عن أهم المبادئ التي يجب أن يتضمنها قانون رعاية المغتربين اليمنيين .

ثالثاً: نظرة على الأُطر المؤسسية والقانونية
لرعاية المغتربين في بعض الدول العربية

لا يتسع المجال هنا لدراسة متعمقة وشاملة للأطر المؤسسية والقانونية لرعاية المغتربين في الدول العربية، وسنكتفي في هذا السياق بإلقاء نظرة سريعة على تلك الأطر في أهم الدول العربية التي قطعت شوطاً لا بأس به في مجال رعاية المغتربين والمهاجرين من أبنائها في الخارج سواء كانت تلك الهجرة دائمة أو مؤقتة، ومن تلك الدول: مصر ولبنان، وينبغي التنبيه هنا أن هذا العرض السريع لأطر رعاية المغتربين من أبناء هاتين الدولتين محكوم بالوثائق المتوفرة لدى الباحث.

1- الأطر المؤسسية والقانونية لرعاية المغتربين المصريين:

تعد جمهورية مصر العربية من الدول ذات الكثافة السكانية العالية بالقياس الى مواردها المتاحة (أكثر 65 مليون نسمة) ولذلك فهي من الدول الرئيسية - على المستوى العربي - التي لها أعداد كبيرة من المهاجرين خارج أراضيها.

ومع أن مصر حديثة عهد بالهجرة، إلا أن عدد المهاجرين والعاملين بالخارج يعد بالملايين، وليس هناك إحصائية دقيقة ولكن العدد يقدر بأكثر من ثلاثة ملايين مهاجر وعامل مصري بالخارج[12].

وكتأكيد لاهتمام مصر بأبنائها المهاجرين والعاملين في الخارج، أفرد الدستور المصري نصاً مستقلاً يقضي بأن: للمواطنين حق الهجرة الدائمة أو الموقوتة إلى الخارج، على أن ينظم القانون هذا الحق وإجراءاته وشروط الهجرة ومغادرة البلاد (المادة 52 من الدستور المصري).

ومنذ مطلع الثمانينات اتجهت مصر نحو تعميق العناية بأمر الهجرة والمهاجرين، وحفَّزها هذا الاهتمام إلى استحداث منصب وزير دولة متفرغ لشئون الهجرة ورعاية المصريين بالخارج، وهو منصب وزاري لم يسبق أن ضمه تشكيل وزاري في مصر.

وفي 14 أكتوبر سنة 1981م صدر القرار الجمهورية رقم (574) لسنة 1981م، بتحديد اختصاصات وزير الدولة لشئون الهجرة والمصريين في الخارج ليتولى التعاون مع الوزارات والأجهزة المعنية لرعاية شئون المصريين في الخارج.

ونظراً لأن قضايا الهجرة وعمل المصريين بالخارج كانت قد عولجت بشكل جزئي في قوانين وقرارات ولوائح متفرقة فقد كان من المتعين جمعها في إطار قانوني واحد متكامل تعالج فيه قضية الهجرة وما يرتبط بها من قضايا تهم المهاجرين والعاملين في الخارج.

ولهذا، صدر القانون رقم (111) لسنة 1983م بشأن الهجرة ورعاية المصريين بالخارج، وبذلك أنجزت مصر أول إطار قانوني شامل لرعاية المهاجرين والمغتربين.

وقد اتجه القانون المصري الى هدف رئيسي وهو ربط المصريين في الخارج بوطنهم من أجل تحقيق أهداف التنمية الاجتماعية والاقتصادية والمصالح القومية للبلاد.

ويرتكز قانون الهجرة المصري على محورين رئيسيين:

الأول: يتصل تنظيم الهجرة إلى الخارج سواء هجرة دائمة أو مؤقتة، ويعتمد هذا التنظيم أساسا على كفالة حق الهجرة وفقا للأوضاع المقررة في الدستور بغير قيود، أما المحور الثاني فيتضمن النصوص المتعلقة برعاية المصريين في الخارج من حيث بيان اوجه هذه الرعاية ووسائلها والتسهيلات التي تقدمها الدولة للمهاجرين والعاملين بالخارج بهدف دعم صلاتهم بوطنهم الأم وتقوية الجسور بين الوطن وابنائه، مع التركيز بصفة أساسية على تقنين المزايا التي تمنح للمصريين في الخارج لجذب مدخراتهم وزيادة تحويلاتهم النقدية، وتشجيعاً لهم على استثمارها في مشروعات إنتاجية حلاً لبعض المشاكل التي تعانيها البلاد في الجوانب الاجتماعية والاقتصادية وطبقاً لخطة التنمية الوطنية[13].

وإجمالاً، يمكن القول إن الأطر المؤسسية والقانونية لرعاية المغتربين في مصر قد انتهى بها التطور الى الوضع الآتي:

- أصبحت الشئون المتعلقة بالهجرة والعاملين المصريين بالخارج قطاع رئيسي في وزارة أطلق عليها: وزارة القوى العاملة والهجرة، ولعل الارتباط الذي لا يقبل الفصل بين قضايا العمالة وقضايا الهجرة هو الذي دفع صانع القرار في مصر الى تخصيص حقيبة وزارية واحدة لكل من العمالة والهجرة فضرب بذلك عصفورين بحجر واحد إذ خفض عدد الوزارات وما يتبع ذلك من خفض الإنفاق وجمع بين قضايا العمالة المقيم منها والمهاجر مع ما يسهم به ذلك من حسن تخطيط وتوجيه وإدارة.

- قام المشرع المصري بالربط بين هذا الإطار المؤسسي (وزارة القوى العاملة والهجرة) والأجهزة الأخرى ذات العلاقة من خلال اللجنة العليا للهجرة، التي

تشكلت بموجب المادة (4) من القانون رقم (111) لسنة 1983م الذي سبقت الإشارة إليه، وهذه اللجنة يرأسها الوزير المختص بشئون الهجرة ويشترك في عضويتها ممثلون عن الوزارات الآتية من بين شاغلي الدرجات العليا: وزارة القوى العاملة والتدريب - وزارة التعليم والبحث العلمي - وزارة الخارجية - وزارة الداخلية - وزارة الاقتصاد - وزارة التخطيط - وزارة الدفاع - وزارة الإعلام- وزارة السياحة والطيران المدني- وزارة التأمينات- وزارة المالية .. وهكذا أصبحت اللجنة العليا للهجرة جهازا يجمع بين كل الجهات ذات العلاقة بقضايا العمالة والهجرة مما يساعد في استكمال كافة الجوانب عند رسم وتنفيذ السياسات المتعلقة بشئون المهاجرين والعاملين المصريين بالخارج.

- اصبح "قانون الهجرة ورعاية المصريين بالخارج" هو الإطار القانوني الجامع لقضايا الهجرة والاغتراب وفيه تم ضمان أهم الحقوق التي يعول عليها في هذا الشأن وهي: حق جميع المواطنين في الهجرة سواء بشكل دائم أو مؤقت وحق جميع المواطنين في أن تقدم لهم الدولة الرعاية اللازمة وفقاً للقانون ومن ذلك التسهيلات المتعلقة بإصدار الجوازات والبطاقات الشخصية والعائلية وشهادات الميلاد والوفاة وذلك من خلال جميع القنصليات المصرية في الخارج.

- ومن الحقوق الأساسية التي كفلها القانون المصري حق المهاجرين المصريين في الاحتفاظ بجنسيتهم المصرية إلى جانب أية جنسية يكتسبونها وكل ذلك طبقاً للشروط التي يحددها القانون رقم (26) لسنة 1975م بشأن الجنسية المصرية .. وبجانب ازدواج الجنسية يعطي القانون المصري تيسرات لتسهيل حصول الزوجة الأجنبية للمهاجر أو العامل المصري على الجنسية المصرية.

- ومن الضمانات الرئيسية التي يتمتع بها المهاجرون والعاملون المصريون بالخارج نظام التأمين الاجتماعي الاختياري للعاملين المصريين في الخارج وهو نظام

ممتاز يؤمن أعضاءه من مخاطر الشيخوخة، والوفاة والعجز مقابل اشتراك معقول يحدد بنسبة مئوية من بين ست فئات للدخل يختارها المستفيد.

- كما يكفل القانون للمهاجر والعامل المصري بالخارج الحق في نقل جثمانه إلى مصر على نفقة الدول في حالة الوفاة بشروط معينة.

- ومن الميزات المهمة التي يكفلها القانون المصري للمغتربين في الجانب الاقتصادي الإعفاء من الضرائب والرسوم على ودائع المغتربين في البنوك العاملة في مصر وضمان إعادة التوظيف بنفس الوظيفة والدرجة إذا أخفق المغترب في تحقيق الهدف من الهجرة وعاد إلى مصر خلال مدة لا تتجاوز سنتين بالنسبة للموظفين في القطاع العام والهيئات التابعة له كما يحصل المهاجرون والعاملون المصريون العائدون على إعفاء من الرسوم الجمركية والضرائب بالنسب للأثاث والمستلزمات الشخصية وكذا إعفائهم من نسبة معينة من جمارك السيارات وإعفاء العائدين من البعثات الدراسية في الخارج من الرسوم على الأثاث والسيارة والكمبيوتر الشخصي ومستلزمات المهنة.

- كما أعطى القانون المصري تسهيلات معينة للمهاجرين والعاملين في الخارج في مجال الإسكان (الجمعيات التعاونية للإسكان) وتخصيص الأراضي ومزايا أخرى للاشتراك في التجمعات العمرانية الجديدة.

- وأخيراً، يحصل المهاجرون والعاملون المصريون بالخارج على امتيازات عديدة متعلقة بمجال التعليم ومن ذلك: توفير المواد التعليمية والمناهج وانشاء المدارس الخاصة بأبناء المصريين في الجاليات الكبيرة ، عقد لجان ومراكز امتحانات بالخارج ، تسهيل الالتحاق بالمدارس والجامعات المصرية ومعادلة الشهادات للعائدين بشروط معينة.

وهكذا أوجدت مصر إطاراً مؤسسيا وقانونياً على قدر كبير من الفاعلية يقوم على الربط والتنسيق بين وزارة القوى العاملة والهجرة والوزارات والجهات إلا خرى ذات الصلة بشئون المغتربين، فبعد أن كفل قانون الهجرة والمصريين بالخارج الحقوق الرئيسية لهذه الفئة نسقت الوزارة مع كل من: وزارة التأمينات وكانت الحصيلة هي إيجاد نظام خاص بالتأمين على المغتربين كما نسقت مع وزارة الخارجية من اجل رعاية افضل للمهاجرين والعاملين في الأحوال العادلة والطارئة ونسقت مع وزارات التموين والتجارة والاقتصاد، والتخطيط من اجل ضمان افضل معاملة ممكنة للمغتربين المهتمين بمجالات الاستثمار سواء في المجال الصناعي أو الزراعي أو العقاري ومن اهم الضمانات الممنوحة في هذا المجال عدم جواز التأميم أو المصادرة أو فرض الحراسة أو التدخل في فرض تسعيرة معينة وعدم إلغاء التراخيص إلا بالشروط التي يحددها القانون .. وأخيراً نسقت وزارة القوى العاملة والهجرة مع وزارة التربية والتعليم من اجل توفير المدارس والمدرسين والمواد الدراسية لأبناء المصريين العاملين بالخارج في أماكن تواجد الجاليات الكبيرة كما حصل أبناء المهاجرين والعاملين العائدين على تسهيلات تعلق بمعادلة الشهادات وإلحاقهم في المدارس والجامعات المصرية.

2- الأطر المؤسسية والقانونية لرعاية المغتربين اللبنانيين (14)

يعتبر لبنان من الدول ذات التجربة الطويلة في مجال رعاية المهاجرين والمغتربين، إذ ترجع بدايات الهجرة من لبنان وبلاد الشام عموماً إلى أواخر القرن التاسع عشر والاتجاه الرئيسي لمهاجري الشام هو الأمريكيتين ثم مؤخراً أوروبا واستراليا وغرب أفريقيا.

وقد بلغ من اهتمام الدولة اللبنانية بالمغتربين أن سمت وزارة الخارجية باسم وزارة الخارجية والمغتربين بالنظر إلى العدد الكبير من المهاجرين اللبنانيين إلى الخارج ذلك العدد الذي بلغ من الكثرة حداً يرى البعض معه أن شعب لبنان مقسوم إلى نصفين نصف مهاجر ونصف مقيم.

والى وقت قريب كانت وزارة الخارجية والمغتربين هي الإطار المؤسسي الذي يرعى شئون المغتربين اللبنانيين إلى أن صدر القانون رقم (213) لسنة 1993م بإنشاء وزارة المغتربين، وبذلك أصبحت هذه الوزارة هي المعنية برعاية المغتربين، وفي ذلك دلالة على تعاظم اهتمام الدولة اللبنانية بالمغتربين من أبنائها والى جانب القانون رقم (213) لسنة 1993م، جاء المرسوم رقم (4859) لسنة 1994م الخاص بتنظيم وزارة المغتربين ليستكمل بذلك الإطار لا قانوني لرعاية المغتربين . بموجب هذا المرسوم تم هيكلة الوزارة اداريا وتم تحديد اختصاصات الدوائر المختلفة بشكل دقيق . وقد اشتمل هيكل وزارة المغتربين اللبنانية على مديرية عامة تضم:

- الديوان.
- مصلحة المغتربين والهجرة وتتألف بدورها من دائرتين: دائرة المغتربين ودائرة الهجرة.
- مصلحة الأملاك والقيد، وتتكون من دائرة الأملاك ودائرة قيد الأحوال الشخصية المتعلقة بالمغتربين.
- مصلحة العلاقات العامة للشئون الاغترابية وتتكون من: دائرة المؤسسات والجمعيات والنوادي ودائرة الهيئات الاغترابية ودائرة المؤتمرات.
- مصلحة الإعلام والثقافة، وتتألف من: دائرة الشئون الإعلامية ودائرة الشئون الثقافية.
- وأخيراً دائرة المعلوماتية والإحصاء.

والجدير بالملاحظة هنا أن القانون اللبناني قد استحدث نظام (الملحقون الاغترابيون) تسميهم وزارة المغتربين لدى البعثات الديبلوماسية في دول الاغتراب، ويعين هؤلاء وفقاً للإحكام التي يتعين على أساسها الملحقون الفنيون في الخارج كما ينص عليها نظام وزارة الخارجية .. واهم المهام الموكلة إلى الملحقين الاغترابيين هي: جمع المعلومات والبيانات المتعلقة بحجم الجاليات اللبنانية – إقامة علاقات وطيدة مع هذه الجاليات وممثليها للاطلاع على أحوالهم والصعوبات التي يواجهونها والمساعدة على معالجتها ورفع التوصيات

والمقترحات المناسبة في هذا الشأن – تقديم المعلومات والمشورة للمغتربين وحث الرأسماليين منهم للاستثمار في لبنان – متابعة نشاط المؤسسات والجمعيات والنوادي والهيئات الممثلة للمغتربين والتنسيق والتعاون معها.

كما استحدث القانون اللبناني مجلساً استشاريا لشئون المغتربين، وأوكل إليه مهمة تقديم التوصيات إلى وزير المغتربين في كل ما يتعلق بشئون المغتربين – ويختار وزير المغتربين أعضاء المجلس الاستشاري من بين ذوي الخبرة في مجال الاغتراب بناء على اقتراح المدير العام، كما يحدد الوزير عدد أعضاء المجلس بحسب ما تقتضيه الحاجة في ضوء حجم التجمعات الاغترابية وانتشارها . ولا تتقاضى أعضاء المجلس الاستشاري أي مقابل لقاء عملها .. ويرأس المجلس وزير المغتربين أو المدير العام عند غيابه.

والتجربة اللبنانية في مجال الاغتراب يمكن أن تكون مفيدة جداً وهي تستحق أن يحتذى بها وخاصة فيما يتعلق بتعيين ملحقين اغترابيين في الدول التي تتواجد بها جاليات كبيرة من المغتربين وأيضاً فيما يتعلق بإنشاء مجلس استشاري للمغتربين . وسنعود إلى هذا الموضوع لاحقاً، عند الحديث عن الإطار القانوني المقترح لرعاية المغتربين اليمنيين.

رابعاً: نحو إطار قانوني متكامل لرعاية المغتربين اليمنيين في ظل المتغيرات الدولية الراهنة

1- سبقت الإشارة إلى أنه بإنشاء وزارة شئون المغتربين وما تبعه من استكمال هيكلتها وتنظيمها أصبح للمغتربين اليمنيين إطاراً مؤسسياً متكاملاً يمكن التعويل عليه في رعاية شئون المغتربين ، كما سبقت الإشارة إلى أن المؤشرات التي بين يدي الباحث تدل على أن الوزارة قد اتخذت بالفعل عدداً من الخطوات والإجراءات الجادة في سبيل إحداث نقلة نوعية في مجال رعاية المغتربين اليمنيين والاهتمام بشئوهم والتخطيط المدروس للمشاكل والقضايا المرتبطة بظاهرة الهجرة والاغتراب[15].

ومع استكمال الإطار المؤسسي لرعاية المغتربين اليمنيين كان لا بد من البدء في اتخاذ الخطوات والإجراءات اللازمة لإيجاد إطار قانوني يمكن من خلاله تفعيل دور الجهاز المؤسسي وتأدية المهام والاختصاصات المنوطة به .

وقد سارعت وزارة المغتربين إلى إنجاز مشروع قانون رعاية المغتربين ، وتمثل هذه الخطوة من قبل الوزارة استجابة سريعة منها لنتائج وتوصيات المؤتمر العام الأول للمغتربين اليمنيين (صنعاء 1999) الذي طالب فيه المؤتمرون وزارة المغتربين ".. بدراسة القوانين والأنظمة والدراسات المتعلقة بالمغتربين والعمل على إعداد مشروع قانون لتنظيم الهجرة ورعاية المغتربين اليمنيين ، ومتابعة إصداره" [التوصية رقم 11 فقرة 4 من توصيات المؤتمر].

2- وكانت الوزارة - حتى قبل انعقاد مؤتمر المغتربين - قد بذلت جهوداً كبيرة أثمرت لصالح المغتربين ، ومن ذلك ، صدور قرار مجلس الوزراء رقم (155) لعام 1998 بشأن الأمتعة الشخصية المصحوبة والمشحونه للمسافرين ، وبموجب هذا القرار منح المغتربون العائدون تسهيلات تتعلق بإعفائهم - في حدود معينة - من الجمارك والضرائب والرسوم بالنسبة لأثاثاتهم المستعملة في حدود 500.000 (خمسمائة ألف ريال) .

ومن ذلك أيضاً قرار مجلس الوزراء رقم (62) لعام 1999م بشأن تشجيع المغتربين على الاستثمار في مجال الإسكان . وكذلك قرار مجلس الوزراء رقم (63) لعام 1999م ، بشأن تشجيع التوظيف المحلي لليمنيين في السفارات والبعثات الدبلوماسية اليمنية بالخارج. وأيضاً القرار الهام لمجلس الوزراء الصادر برقم (95) لعام 1999 بشأن تعديل وتخفيض رسوم استخراج وتجديد جوازات السفر للمغتربين اليمنيين في الخارج وأمر مجلس الوزراء رقم (22) لعام 1999 بشأن تشجيع وتفعيل الأنشطة الاستثمارية للمغتربين اليمنيين داخل الوطن.

3- وبعد اختتام المؤتمر العام الأول للمغتربين اليمنيين أعماله في صنعاء في 17 مايو 1999، صدر قرار مجلس الوزراء رقم (136) لعام 1999 بشأن إقرار نتائج وتوصيات المؤتمر العام الأول للمغتربين اليمنيين وتكليف اللجنة التحضيرية للمؤتمر بمتابعة تنفيذ نتائج وتوصيات المؤتمر وفق آلية عمل تقرها اللجنة. كما صدر قرار مجلس الوزراء رقم (139) لعام 1999م بشأن دعم المغتربين اليمنيين ورعاية شئوهم ، وبموجب هذا القرار تم تكليف وزارة المغتربين بالتنسيق مع كافة الجهات ذات العلاقة بما يمكنها من القيام بالدور المناط بها في رعاية شئون المغتربين ومتابعة قضاياهم وحماية حقوقهم وضمان تحقيق التكليف والاندماج الاجتماعي لهم وتوفير فرص العمل والاستقرار للمغتربين وأبنائهم العائدين إلى الوطن .. كما كلف المجلس الوزارات ذات العلاقة باستكمال المسح الخاص بالمغتربين اليمنيين .. وبإنشاء مجلس متخصص لدراسات الهجرة والاغتراب في إطار إحدى الكليات المتخصصة بجامعة حضرموت (وهو المركز الذي نجتمع اليوم في رحابه) .. الخ (انظر نص قرار مجلس الوزراء رقم (139) لعام 1999م والملحق بهذه الورقة)

واستكمالاً للجوانب المختلفة التي تقتضيها رعاية المغتربين في الجوانب الاقتصادية ، صدر قرار مجلس الوزراء رقم (14) لعام 1999م بشأن تشجيع المغتربين على الاستثمار في أسهم البنوك المتخصصة ..

كما صدر قرار مجلس الوزراء رقم (141) لعام 1999م بشأن التأمين الاجتماعي للمغتربين اليمنيين ، وبموجبه تم تكليف المؤسسة العامة للتأمينات الاجتماعية باتخاذ الإجراءات اللازمة بما يكفل توسيع نطاق نشاطها ليشمل التأمين الاجتماعي على المغتربين وفقاً للنظم واللوائح والقوانين النافذة .

4- وإلى جانب هذه الحزمة من القرارات الصادرة عن مجلس الوزراء ، قامت وزارة شئون المغتربين بعقد سلسلة من محاضر التعاون والتنسيق بينها وبين الوزارات والجهات ذات العلاقة[16] ومن ذلك :

- محضر تعاون وتنسيق بين وزارتي شئون المغتربين والداخلية بتاريخ 1999/2/18م.
- محضر تعاون وتنسيق بين وزارتي الخارجية وشئون المغتربين بتاريخ 1999/2/25م.
- محضر تعاون وتنسيق بين وزارة شئون المغتربين والهيئة العامة للاستثمار بتاريخ 1999/3/4م .
- محضر تعاون وتنسيق بين وزارتي شئون المغتربين والإنشاءات والإسكان والتخطيط الحضري بتاريخ 1999/3/11م .
- محضر تعاون وتنسيق بين وزارتي شئون المغتربين والأوقاف والإرشاد بتاريخ 1999/4/29م .
- محضر تعاون وتنسيق بين وزارة شئون المغتربين والهيئة العامة للبريد والتوفير البريدي بتاريخ 1999/11/2م .
- محضر تعاون وتنسيق بين وزارة شئون المغتربين والمؤسسة العامة للتأمينات الاجتماعية بتاريخ 1999/11/14م.

وبهذا النشاط الملموس والجهد الدؤوب يمكن القول أن وزارة المغتربين قد جعلت من عام (1999م) عاما للمغتربين اليمنيين ، حيث استكملت تقريبا معالجة قضايا وشئون المغتربين وذلك طريق وسيلتين رئيسيتين: قرارات مجلس الوزراء، ومحاضر التنسيق مع الوزارات والجهات ذات العلاقة بقضايا المغتربين .

5- وكنتيجة لهذا الجهد الكبير من قبل وزارة المغتربين أصبحت قضايا المغتربين اليمنيين واضحة غاية الوضوح أمام جميع الجهات ، و لم يتبق إلا تبويب تلك

القضايا وترتيبها تمهيداً لمعالجتها ضمن إطار قانوني متكامل وهو الأمر الذي أخذته وزارة شئون المغتربين على عاتقها عندما أنجزت مسودة مشروع قانون رعاية المغتربين اليمنيين الذي جاء في سبعة فصول على النحو التالي :

- الفصل الأول : التعريفات والمفاهيم .
- الفصل الثاني : حقوق وواجبات المغترب اليمني .
- الفصل الثالث : الجاليات اليمنية في الخارج .
- الفصل الرابع : رعاية شئون المغتربين اليمنيين .
- الفصل الخامس : الخدمات والتسهيلات للمغتربين .
- الفصل السادس : فقدان صفة الاغتراب .
- الفصل السابع : أحكام عامة .

6- ولسنا هنا بصدد تقويم هذا المشروع من حيث التزامه بأصول الصياغة القانونية ، ولكننا معنيين أساساً بالقضايا الأساسية التي اشتمل عليها مشروع القانون وتلك التي غفل عنها ، وبعد الإحاطة بهذه القضايا وتلك يمكننا الخروج بتصوّر أكثر اكتمالاً لقانون رعاية المغتربين اليمنيين.

ومع ذلك، لا بد من إبداء بعض الملاحظات العامة حول التبويب الذي اتبعه مشروع القانون، فالفصل الأول : الخاص بالمفاهيم والتعريفات بحاجة إلى مزيد من الضبط من الناحيتين الفنية واللغوية ، وعلى سبيل المثال : لا يستقيم أن يكون معنى الدولة هو حكومة الجمهورية اليمنية ، فالدولة والحكومة مفهومان قانونيان مختلفان .

أما الفصل الثاني : الذي يتضمن حقوق وواجبات المغترب اليمني ، فلم يُقرر أية حقوق جديدة تستدعي إيرادها في نصوص خاصة ، بل ذكر -بعبارات مجملة- مجموعة من الحقوق التي يتمتع بها المواطنون اليمنيون بحكم الدستور والقانون سواء كانوا مقيمين أو مغتربين .. كما أن الحق في الاحتفاظ بالجنسية (أو ازدواجية الجنسية) ليس مكانه قانون رعاية المغتربين بل قانون الجنسية .

أما الواجبات ، فعلاوة على صياغتها بشكل عام بحيث لا يمكن ضبطها ولا يمكن النظر إليها على أنها التزامات قانونية محددة ، فالقاعدة القانونية يجب أن تكون منضبطة وإذا ألقت واجباً معيناً فيجب أن تحدد جزاءاً محدداً لمخالفة ذلك الواجب ، وعليه فإن جميع الواجبات الواردة في مشروع القانون لا تخرج عن كونها التزامات أخلاقية وسلوكية يلتزم بها جميع الناس الأسوياء ، ولا يمكن النظر إليها باعتبارها واجبات قانونية على المغترب اليمني ، وفي رأينا أن يُحذف الفصل الأول بأكمله وأن يكتفى في مجال ذكر الحقوق بالنص على :

حق الهجرة والاغتراب بشكل دائم أو مؤقت ، بشكل فردي أو جماعي ، بالشروط التي يحددها القانون ، وهذا يتفق مع مبادئ الدستور اليمني ومع التزامات اليمن الدولية في مجال حقوق الإنسان. أما الحق في الاحتفاظ بالجنسية (ازدواج الجنسية) فقد سبقت الإشارة أن مكان مثل هذا النص هو قانون الجنسية وليس قانون رعاية المغتربين .

وفيما يتعلق بالفصل الثالث بشأن إنشاء الهيئات والجمعيات والجاليات اليمنية بالخارج ، فالوضع المستقر في جميع الدول هو أن قانون دولة المقر هو الذي يحدد الشروط القانونية لإنشاء وتسجيل مثل تلك الهيئات . وبالتالي نرى أن تترك هذه المسألة كلية لقوانين دول المقر تطبيقاً لمبدأ مسلم به في القانون الدولي وهو مبدأ الاختصاص الإقليمي المتفرع من مبدأ سيادة الدول الذي يقضي بثبوت السلطة المطلقة لكل دولة على كل ما يدخل في نطاق إقليمها . على أن هذا القول لا يمنع من أن تقوم وزارة المغتربين بإصدار دليل إرشادي للمبادئ التي ترى أنها ضرورية لإنشاء نوادي وجمعيات وهيئات الجالية اليمنية في الخارج ، بحيث تسترشد بها تلك الجاليات .. ونعتقد أن مثل هذا الدليل محققاً للغرض ومكملاً لما هو منصوص عليه في قرار إنشاء وزارة المغتربين ولائحتها التنظيمية ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك تفصيلاً [17].

وفيما يتعلق بالفصل الرابع المتعلق بـ" رعاية شئون المغتربين" فنرى أنه يمثل جوهر القانون والنصوص الواردة فيه تكفل للمغتربين الرعاية الواجبة من قبل الدولة ، وسينتقل

العبء إلى عاتق وزارة شئون المغتربين والوزارات والجهات الأخرى ذات العلاقة في ترجمة تلك النصوص إلى واقع ملموس في حياة المغتربين ، فالمسألة إذن مسألة تطبيق وتنفيذ وليست مسألة نصوص وقوانين ، ولحسن الحظ فإن وزارة شئون المغتربين من الوزارات القليلة التي ترجمت عمليا كل توجيهات القيادة السياسية وقرارات مجلس الوزراء ، ونتائج وتوصيات المؤتمر العام الأول للمغتربين إلى واقع ملموس وإلى إجراءات وخطوات عملية أسهمت في تعزيز دور الدولة وتأكيد مصداقيتها في رعاية شئون المغتربين كما أن الفصل الخامس المتعلق بالخدمات والتسهيلات التي تكفلها الدولة للمغتربين اليمنيين لا غبار عليه إجمالا وهو مكمل للفصل الرابع .. وقد نفذت الوزارة بعض ما ورد فيه فعلا ، وهذا يعني أن وزارة المغتربين تسابق الزمن في الإنجاز .

أما الفصل السادس المتعلق بفقدان صفة الاغتراب فيحتاج إلى ضبط أكثر ، فمن تحصيل الحاصل القول "إن المغترب اليمني يفقد صفته وحقوقه الواردة في هذا القانون إذا فقد جنسيته اليمنية" فهذا الأمر لا يحتاج إلى نص لأن القانون هو قانون رعاية المغتربين اليمنيين .

كما إن النص على فقدان صفة الاغتراب والحقوق المترتبة عليها نتيجة الإخلال بالواجب الواردة في هذا القانون أمر يحتاج إلى المراجعة ، لأن الواجبات الواردة في القانون -كما سبقت الإشارة- غير قابلة للضبط والتحديد ، ونقترح حذف النص بهذا الخصوص... كما نقترح عدم معالجة أوضاع فقد الجنسية اليمنية أو اكتساب جنسية أخرى وكل ما يترتب على ذلك من آثار ، وترك موضوع الجنسية برمته لقانون الجنسية والتنسيق مع الجهات الأخرى عن إدخال أي تعديلات عليه بما يحقق مصالح المغتربين.

أما النص الذي يقضي بفقدان صفة (الاغتراب) بعد ستة أشهر من عودة المغترب إلى الوطن بغرض الاستقرار النهائي وانقطاع صلته وروابطه الناجمة عن اغترابه ، فيمكن قبوله من حيث المبدأ مع مناقشة الفترة الزمنية من حيث زيادتها أو نقصانها .

وأخيراً ، فالأحكام الواردة في الفصل السابع (الأحكام العامة) ليست من العموم في شيء ، فالمادة (19) تتناقض مع مبدأ الإقليمية وسيادة الدول ، والمادة (20) لا تضيف جديداً ، فالقانون يفترض أن يسري على كل من يحمل صفة المغترب اليمني أينما كان .. والمادة (22) فيها تكرار لبعض الفقرات الواردة في المادة (18) فيما يتعلق بجزاء مخالفة المغترب للواجبات التي أوردها القانون في نفس الوقت فيها تناقض مع ما سبق تقريره بشأن فقدان صفة المغترب .

والمادة الوحيدة الواردة في هذا الفصل التي يمكن الإبقاء عليها هي المادة (21) بشأن إعداد اللائحة التنفيذية للقانون وإصدارها خلال ستة أشهر من تاريخ صدور القانون.

وعلى كل حال ، فمسودة مشروع القانون بذل فيها جهد كبير ، وهو جهد محمود وإنجازها في حد ذاته بادرة إيجابية تنطوي على تقدير للمسئولية وتعكس مدى استشعار وزارة شئون المغتربين اليمنيين للحاجة الملحة في إصدار قانون رعاية المغتربين اليمنيين ليكون للمغترب اليمني إطاراً قانونياً يضمن من خلاله الحماية والرعاية الواجبة وتتعمق به روابط الانتماء والولاء للوطن الأم .

ونأتي الآن ، وبعد استعراض المبادئ الرئيسية لرعاية المغتربين سواء في بعض الدول العربية أو في مسودة مشروع قانون رعاية المغتربين اليمنيين لنضع قائمة بأهم الحقوق والمبادئ والقضايا التي لاينبغي إغفالها عند إقرار قانون رعاية المغتربين اليمنيين ، ومن ذلك:

- كفالة الحق في الهجرة والاغتراب سواء بشكل دائم أو مؤقت ووفقاً للشروط والإجراءات التي يحددها القانون .
- الحق في الرعاية والحماية والمتابعة لكافة شئون المغتربين وقضاياهم .. وتيسير سُبل مغادرتهم وعودتهم إلى الوطن .
- الحق في أن يحصل المغتربون على ميزات محددة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية على أن يترك تنظيم الحصول على تلك الميزات للقوانين المتخصصة الصادرة عن الوزارات والجهات ذات العلاقة .

- كفالة حق المغتربين اليمنيين في نظام تأمين اجتماعي اختياري وفقاً للنموذج المعمول به في مصر ، وذلك لتأمين المغتربين اليمنيين ضد مخاطر الشيخوخة والعجز والوفاء وغيرها ، على أن يترك تنظيم وإدارة هذا الموضوع للمؤسسة العامة للتأمينات الاجتماعية .
- إنشاء مجلس استشاري لوزارة المغتربين من بين ذوي الخبرة في مجال الاغتراب ، أخذاً بالنموذج المعمول به في لبنان .
- الأخذ بنظام الملحقين الاغترابيين ، بحيث يكون لوزارة المغتربين حق تعيينهم في الدول التي تتواجد بها جاليات يمنية كبيرة تستدعي وجود مثل هذا الملحق .. على غرار ما هو معمول به في لبنان .

وأخيرا ، يمكن إثراء هذا الإطار بما ورد في نتائج وتوصيات المؤتمر العام الأول للمغتربين اليمنيين ، وفي قرار مجلس الوزراء رقم (139) لعام 1999م بشأن دعم المغتربين اليمنيين ورعاية شئوهم والملحق بهذه الورقة .

الهوامش

(1) راجع في الدور الوطني للمغتربين اليمنيين قبل ثورة سبتمبر وبعدها : سعيد أحمد الجناحي ، المغتربون في أدبيات الحركة الوطنية ، بحث منشور في كتاب (الثوابت) (15) : دراسات يمنية في الهجرة والاغتراب ، صنعاء ، مايو 1999، الصفحات 403–421 .

(3،2) في سبتمبر 1962 صدر قرار في صنعاء بتعيين الأخ/ محمد سعد القباطي وزيراً للدولة لشئون المهاجرين، وفي أكتوبر من نفس العام صدر قرار بتعيين الأخ / علي مهيوب ثابت وزيراً لشئون المغتربين، والأخ/عبدالرحمن عبد الله الحكيمي نائباً لوزير شئون المغتربين .. راجع : المغتربون والقائد ، واحد وعشرون عاماً من العطاء والتواصل ، وزارة شئون المغتربين ، صنعاء ، مايو 1999م ، ص 90.

(4) انظر في الهجرة الحضرمية : د. صالح باصرة ، الهجرة الحضرمية إلى جنوب شرق آسيا ، دراسات في الهجرة والاغتراب ، كتاب الثوابت (15) ، مرجع سابق ، ص 13 ومابعدها .

(5) راجع القرار الجمهوري رقم (23) في 6 مايو 1984م بشأن تنظيم الأمانة العامة للاتحاد العام للمغتربين .

(6) راجع : المغتربون والقائد ، مرجع سابق ، ص90.

(7) انظر في جهود الوزارة أثناء وبعد أزمة الخليج ، المرجع نفسه ، ص 115–136.

(8) راجع : تقرير التنمية البشرية لعام 2000م ، الأمم المتحدة ، ص 159–160.

(9) راجع : المغتربون والقائد ، مرجع سابق ، ص 85.

(10) المرجع نفسه ، ص 88.

(11) المرجع نفسه ، ص94–97.

(12) انظر: دليل المصريين في الخارج، الجزء الأول، وزارة القوى العاملة والهجرة، يونيو 199م، القاهرة، ص24.

13) المرجع نفسه ، ص26–28.

14) راجع القانون رقم (213) لسنة 1993م ، والمرسوم رقم (4859) لسنة 1994م ، كتاب صادر عن وزارة المغتربين اللبنانية ، بيروت ، 1994.

(15) راجع ما سبق ذكره في هذا الخصوص ، البند (ثانياً) فقرة (7) من هذه الدراسة .

(16) راجع نصوص تلك المحاضر في كتاب : الوحدة اليمنية والمغتربون في مؤتمرهم الأول ، وزارة شئون المغتربين ، مايو 2000م ، ص195–218.

17) راجع ما سبق ، البند (ثانياً) من هذه الدراسة فقرة (5) .

منهجية صياغة المصطلح وتوحيده

مقاربة نظرية وتطبيقية على بعض مفاهيم الدراسات النسوية

د. حميد مطيع العواضي

0. المقدمة

منذ مطلع القرن العشرين الذي شهدنا سنوات احتضاره منذ فترة وجيزة، والنقاش على أشده في قضية المرأة. لكن هذا النقاش ظل غالباً حبيس المطارحات الفكرية التي تنبني في معظمها على المنازعات الإيديولوجية والمناظرات الجِدَالية.

ولم تطرح قضية المرأة على بساط البحث العلمي والدرس الأكاديمي إلاّ في السنوات القرن العشرين الأخيرة. ومع هذا الطرح ظهرت قضية اللغة المستعملة عامة، والمصطلح

الدقيق خاصة، وهذا أمر مرده التحول المضموني والمنهجي في النظر إلى هذه القضية. فمن حيث المضمون نجد أن اختصاصاً علمياً جديداً قد أخذ يستتب رويداً رويداً ، وإنْ مازال مسماه مثار جدل وحوار. ومن حيث المنهج أخذت الدراسات النسوية توجهاً آخر، يقوم على التناول العلمي المؤسس على جملة من المحددات المعرفية الصارمة أخرجت موضوع المرأة من حلقات الجدل المفرغ، وجعلته موضوعاً علمياً ينظر إليه كإشكالية معرفية تقتضي الدراسة والبحث لا الجدل والمناظرة.

1. الإشكالية

إن الاختصاص العلمي الجديد، مثل أي ميدان معرفي آخر، يحتاج في المقام الأول إلى أن يؤكد على خصوصية موضوعة، ويبرر مسألة انسلاخه عن ميادين الدراسات الاجتماعية الأخرى التي نمى في كنفها، وهذا لن يتأتى إلاّ عن طريق ما يرتضيه لنفسه من المصطلحات الدالة عليه. فالمصطلح يدل على الحقيقة المعرفية للعلم، بل أنه مفتاح هذه الحقيقة. فبالمصطلح يتميز كل علم عن سواه ويتفرد بذاته عما عداه.

واعتباراً أن الميدان المعرفي الذي نتناول إشكالية مصطلحه اليوم هو ميدان قائم على التواصل في نطاق أوسع يتجاوز طائفة المختصين فيه، لأنه ليس "علماً بحتاً" ينعزل في معامله ومختبراته، وإنما هو "علم إنساني" ينبغي أن تكون مصطلحاته مفهومةً على نطاق واسع. ومن هنا جاء مبرر النظر إلى قضية صياغة المصطلح وتوحيده لهذا الميدان المعرفي الناشئ.

2. مضمون المقاربة

هذه الدراسة تهدف إلى تقريب منهجية صياغة المصطلح وتوحيده من ميدان الدراسات النسوية. واعتبارا لاتساع نطاق القضية فقد حصرنا عملنا في تناول مصطلح "جندر" Gender لأنه يثير إشكالية مركبة في المعنى والمبنى على حد سواء.

وسوف نتناول القضية من زاويتين هما الصياغة والتوحيد. والهدف هو التوصل إلى صيغة علمية تتوافق عليها جميع الآراء لكي تعمم منهجية الصياغة والتوحيد لتشمل سائر المصطلحات التي تدخل في تشكيل البنية المعرفية لهذا العلم.

وسنخلص في هذه الدراسة إلى جملة من المقترحات العملية التي نرى أن من شأنها أن تعالج قضية المصطلحات على المدى البعيد وتوحد جهود القائمين على هذا الميدان المعرفي على المستوى العربي.

3. مفاهيم أساسية

و نتناول في نطاقها أهم المفاهيم التي تعتبر الأساس في مقاربة القضية الاصطلاحية. وأهم هذه المفاهيم هي: المصطلح، و التسمية، و المفهوم، و علم المصطلح.

1.3. المصطلح

المصطلح هو علامة لغوية خاصة تشكل وحدة مركبة من دال ومدلول. وتأتي خصوصية المصطلح قياساً إلى العلامة اللغوية العامة في أن اتساعه الدلالي مرهون بالمدلول وليس بالدال. فالمهم في المصطلح هو معرفة الشكل اللغوي الذي ينبغي أن يتلاءم مع دلالة محددة سلفاً.

أي أن عَالِم الاصطلاح يختلف في منهجه عن عَالِم اللغة أو المعجمي بالذات. فالمعجمي ينطلق من الدال (اللفظ أو الشكل) إلى المدلول (المعنى). فهو يبحث للشكل عن معنى على النحو التالي:

علامة لغوية

عامة

الدال (الشكل)

↓ المدلول (المعنى)

أما المصطلح فيتحدد على عكس هذا الاتجاه أي إننا نبحث للمدلول أو المفهوم عن دال أو تسمية لغوية، أي نبحث عن شكل خارجي لغوي، على النحو التالي:

علامة لغوية

اصطلاحية

الدال (الشكل الخارجي) ↑	التسمية
المدلول (المضمون المفهومي)	المفهوم

إذاً المصطلح علامة لغوية خاصة تتكون من تسمية ومفهوم.

2.3. التسمية

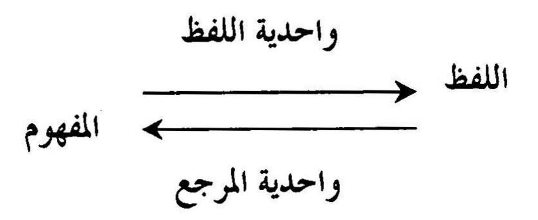
هي شكل لغوي خارجي للمصطلح، وهي تمثيل للمفهوم وترتبط به استعمالاً أو اصطناعاً. وتدرس التسمية عادة من حيث الشكل في حد ذاته. فالشكل الإنكليزي Jen'dar أو العربي (ن + و + ع) لهما ارتباط بمفهوم حديث يعرف :

> **"بالبناء الثقافي والاجتماعي للأدوار التي تسند إلى الذكور والإناث في مجتمع معين وزمن معين، وتختلف من مكان إلى آخر. ومن شريحة اجتماعية وطبقية إلى أخرى".**
>
> **(الشرقي 7 : 1998)**

3.3. المفهوم

صورة مجردة مركبة من جملة من الصفات الأساسية المشتركة تمثل تكوين الهوايات المتعلقة بالأشياء أو الأفكار، ونحصل عليها من اطراح الخصائص اللغوية لكل هوية.

والعلاقة بين التسمية والمفهوم ينبغي أن تكون قائمة على واحدية اللفظ الدال على المفهوم، وواحدية المرجع المشار إليه بالتسمية. ويمكن بيان ذلك بالشكل التالي:



ومن هنا يمكن أن تظهر إشكالية تطابق التسمية Jen'dar إزاء المفهوم المبين سابقا. فالتسمية لا تثير لدى المتلقي لها المرجع المفهومي. والمفهوم ليس له بالعربية تسمية واحدة. لأن كلمة /نوع/ تفيد معان عديدة سنراها لاحقا.

4.3. علم المصطلح

تعددت تعاريفه لكن أقربها إلى موضوعنا هو أن هذا العلم يعنى بتحديد مصطلحات ميدان معرفي أو مادة علمية بذاتها. ويمكن من جمع تلك المصطلحات وترتيبها وتوليدها وتوحيدها ونشرها. فهو علم موضوعه لغوي لكنه يرتبط بأي فرع معرفي كونه مساعدا له ومصدرا لفهم ألفاظه. ويمكن فهم علاقة هذا العلم بالدراسات النسوية من زوايا عديدة منها:

- دراسات المصطلحات التي ينتجها المختصون بهذه الدراسات وتفسير صيغها ودلالاتها .
- إنشاء وحدة تجميع وتوزيع للمصطلحات الخاصة بهذه الدراسات أي قاعدة مصطلحات.
- إيجاد سبل التوحيد والتنميط لكافة المصطلحات المستعملة في الدراسات النسوية في كافة البلدان العربية.
- إعداد دراسات تفصيلية خاصة بمشكلة دخول الألفاظ والمفاهيم الأجنبية وكيفية معالجتها لغويا حتى تندمج في بنية اللغة العربية.

وغير ذلك من الخدمات الاصطلاحية التي يعرف بأهميتها المختصون.

سوف نتناول زاوية واحدة فقط في هذه الدراسة هي زاوية صياغة المصطلح وتوحيده من منظور هذا العلم مطبقا على بعض مصطلحات الدراسات النسوية.

4. صياغة المصطلح

تأتي الحاجة إلى المصطلح عندما يريد المختصون في ميدان معرفي أن يقدموا مفهوما جديدا، يتجاوز المفاهيم السابقة لما يحمله من بعد في الدلالة واتساع في المجال أو تخصص فيه، أو بسبب ما اعترى المفاهيم السابقة عليه من المشاكل فمثلا نجد أن ولادة مصطلح / Jen'dar/ جاءت بسبب أن الدراسات النسوية تحاول أن :

> **"تفادى ما تثيره مصطلحات النسويات من حساسية بسبب وضوحها ومباشرها وحدهّا أحيانا إلى استخدام كلمات ذات صيفة حيادية ظاهرا".**
>
> **(أبو ريشه 1996 : 22)**

فهذا المفهوم ولد بعد شيوع مفاهيم أخرى سابقة عليه كمفهوم المساواة بين الجنسين في الحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية وهو ما عبر عنه المصطلح الأعجمي Feminism وترجم حينا "بحركة نسوية" ونادرا ببقاء لفظه الأعجمي "فمينيزم". ومفهوم آخر هو التميز على أساس الجنس وخصوصا اضطهاد الرجال للنساء، وهو ما عبر عنه المصطلح الأعجمي Sexism وترجم إلى العربية بلفظ "الجنسوية".

ومن هنا نفهم أن مصطلح /Jen'dar/ جاء، من ناحية، ليتجاوز مفاهيم الصراع بين الجنسين ليتحدث عن مفهوم العلاقات والأدوار المناطة اجتماعيا بكل جنس، وكيف أن هذه الأدوار قابلة للتغيير ومختلفة باختلاف الزمان والمكان والفئات الاجتماعية المعنية بها وإنها تتقاطع مع عوامل أخرى كالعرف والدين والطبقة الاجتماعية وغيرها. وهذه الخصائص تمثل هوية المفهوم وتبتعد به عن استخدام التسميات السابقة. ومن هنا نفسر لجوء المختصين إلى استعارة لفظ /Jen'dar/ من سياقه النحوي المحض الذي يشير إلى التذكير

والتأنيث لغويا وهو ما يختلف عن التذكير والتأنيث بيولوجيا. ثم أن المختصين أخذوا يطوعون هذا اللفظ ويشتقون منه فعلا وصفة، وهو ما ليس في أصل الاستعمال. واكتسب اللفظ بمفهومه دلالته المتميزة عن دلالته الأصلية وصار راتبا في ميدان الدراسات النسوية لما ذكرنا آنفا من الخصائص الدلالية عليه. وهذا يفسر لغويا بأن ظاهرة التحول في صلب بناء اللغة من الاعتباط إلى ما يشبه التعلق بالضرورة يرتكز على :

> **"مبدأين أساسين هما تعامل الإنسان مع اللغة وتعامل اللغة مع الزمن. فمن حق اللفظ إذا أفاد في اللغة دلالة ما أن يطرد اقترانه بها حتى لا ينتقض تعاقد الجماعة، ولا يفسد أمر الاصطلاح العرفي بينهم. ولما كانت علاقة الألفاظ بمدلولاتها في أصل انبعاثها علاقة تواطئية محضا تعذر على العقل أن يشرعها إلا بعد أن تتواتر في الاستعمال بحكم قانون الاطراد".**
>
> **(المسدي 1989 : 18)**

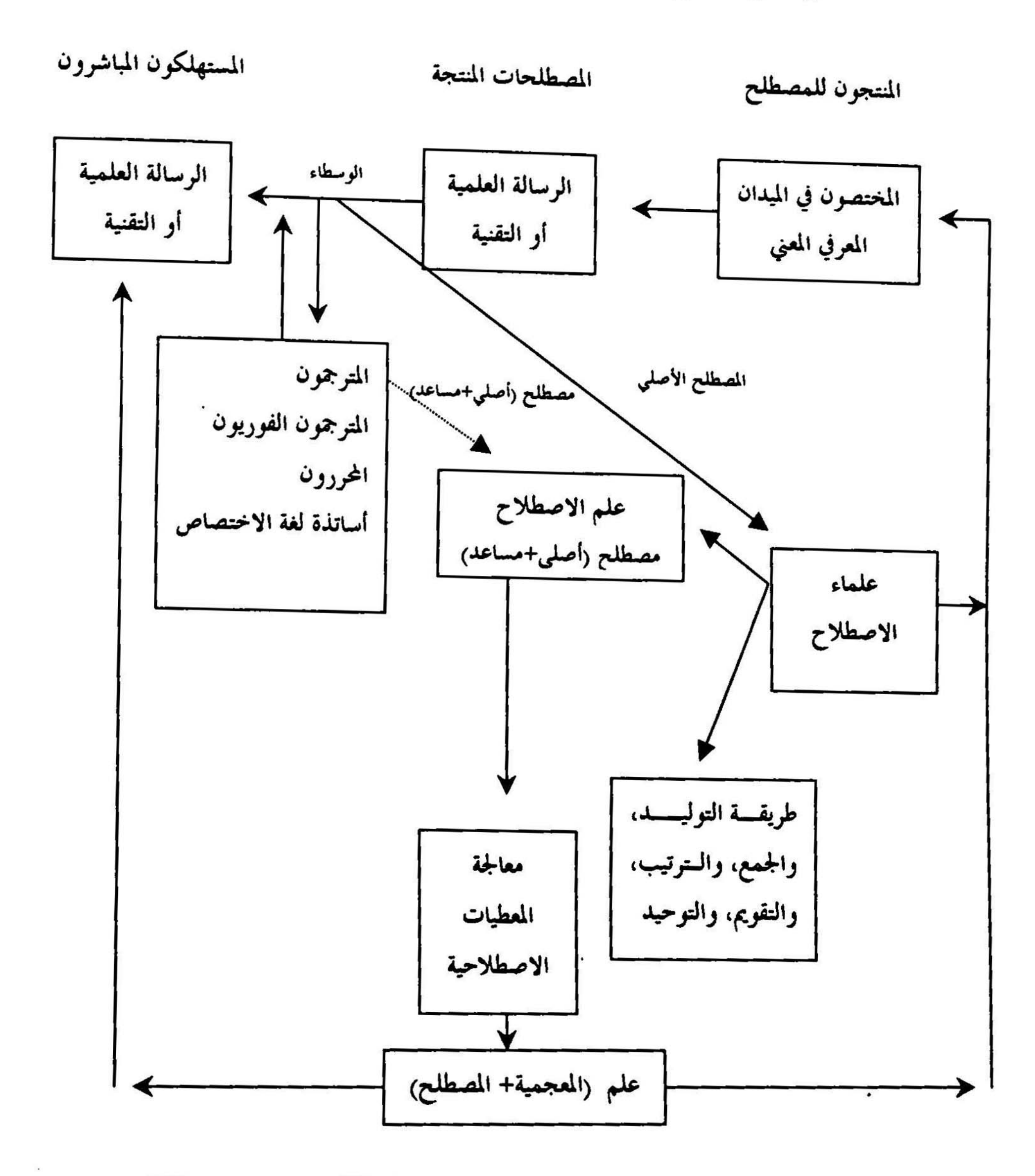
نستفيد من كل هذا أن المصطلح ينشأ على أيدي المختصين أولا ثم يصاغ في نتاجهم الفكري ثم يتجه إلى المتلقي العام الذي يحاول فهم الدلالة الجديدة وهنا تطرح قضية تفاعل أطراف عملية التواصل العلمي. أي كيف يستطيع المختص في ميدان معرفي معين أن يوصل رسالته العلمية واضحة إلى المتلقي؟

وقد نوقشت كثيرا هذه القضية، وخاصة في ميدان العلوم البحتة لتعقد مفاهيمها وانحصار جمهور متلقيها. لكن هذه القضية تتخذ شكلا أخطر حين يكون الجمهور أوسع وأكبر كما هو الحال في موضوع الدراسات النسوية ذات البعد الاجتماعي الهادف إلى التواصل مع المجتمع برمته.

لقد تنبه علم المصطلح إلى خطورة هذا الوضع لذلك نجد علماء المصطلح يتحدثون عما يسمى بـ "السلسلة الاصطلاحية" Chaîne Términoloque وهي التي يتحدد فيها دور أطراف العملية التواصلية للمصطلح ومكانه كل طرف (Rondeau 1991:15 sqq) .

5. السلسلة الاصطلاحية

الشكل التالي يوضح هذه السلسلة كما يلي:



مخطط (Rondeau 1991: 15

يعد المختص، في الدراسات النسوية مثلا، رسالته العلمية وهي عبارة عن وثيقة أو مجموعة وثائق بإشكال مختلفة (مسموعة أو مرئية أو مكتوبة) ويتم نشرها بغاية إيصالها إلى المستهلك أو المتلقي. وتنطوي الرسالة العلمية على مصطلحات يستعملها المختص وهي من صلب خصائص ميدانه المعرفي. ويتولد عن وجود هذه المصطلحات قضايا تخص التواصل بين الطرفين ويمكن إحصاؤها كما يلي:

1- الرسالة العلمية أنتجت بلغة معروفة لدى المتلقي واستعملت اصطلاحات عامة. يتم التواصل مباشرة بين الطرفين دون وسطاء عبر الخط الأفقي الأعلى في الشكل.

2- الرسالة العلمية أنتجت بلغة معروفة لدى المتلقي لكن المصطلحات مختلفة كليا أو جزئيا عن الاستعمال العام. وفي هذه الحالة يلجأ المتلقي إلى المعاجم الخاصة بالمصطلحات أو المعاجم الأخرى وهنا يلتقي بأول الوسطاء وهو عالم المصطلح.

3- الرسالة العلمية أنتجت بلغة لا يعرفها المتلقي. وفي هذه الحالة يلجأ المتلقي إلى وسيط آخر هو المترجم أو المترجم الفوري. وهذا مطبق على المصطلح الذي نعالجه (Gender).

4- الرسالة العلمية أنتجت بلغة معروفة، لكن المتلقي غير مختص ولا يعرف المصطلحات المستعملة. وهنا ينبغي له العودة إلى المعاجم وهي عودة للاتصال بعالم المصطلحات. مثال ذلك لفظه "جنسوية"، "جنوسة" و "جنسانية" و"نوع اجتماعي" و"نوعانية".

5- المنتج للرسالة العلمية يتواصل بلغة لا يعرفها جيدا ولا يعرف مصطلحات ميدان علمه ، ويكون الوسيط هنا هو المحرر التقني المختص أو أستاذ لغة الاختصاص.

وهكذا نفهم أن المختص في ميدان علم ما يحتاج إلى أحد الوسطاء المذكورين آنفا. وهؤلاء الوسطاء يعالجون الرسالة العلمية إما داخل نفس اللغة أو بين لغات متعددة. وبالتالي فإنهم أيضايقترحون مصطلحات.

والوسطاء -كما يبدو في الشكل- نوعان عالم المصطلحات من ناحية والمترجمون والمحررون وأساتذة اللغة المختصة من ناحية أخرى. و عمل هذه الفئة الأخيرة الأساسي هو التوسط، أما عملها الثانوي فهو إنشاء المصطلحات. وعكسها عالم المصطلحات فدورة كوسيط هو دور ثانوي وإنما هو يقوم بتزويد خانه علم المصطلحات بالاصطلاحات الأصلية والمساعدة أي المصنوعة، وذلك لملأ الفراغ الاصطلاحي فحين تكون لدى اللغة الإنكليزية مصطلحات أكثر مما لدى العربية فإن عالم المصطلحات العربي يقترح مصطلحات نظيره كما يقوم بمعالجة المصطلحات من حيث جمعها ترتيبها وتوحيدها.

6. المقاربة التطبيقية

تفاوت النظر إلى مصطلح Gender بين المختصين والمترجمين و لم يدخل عالم المصطلحات في دراسة هذا اللفظ. والانقسام بين الطرفين.

- المختصين والمترجمين- هو انقسام رأسي داخل كل شريحة. فطائفة من المختصين تسمى هذا المصطلح "جندر" وأخرى تسمية "نوع"، و "نوع اجتماعي" و طائفة ثالثة"الجنسانية" و رابعة " الجنوسة"، و هكذا دوليك.

1.6.المترجمون

يفهم موقف المترجمين بالنظر إلى المدونة المترجمة وقد عثرنا على من يقول:

"ومن الصعوبات التي واجهتنا أيضا ترجمة مفهوم "gender" ومصطلح "Gender role" فلم نجد لها تعريفا دقيقا في اللغة العربية. والمعنى القاموسي لكلمة gender هو [الجنس من حيث الذكورة والأنوثة] وقد احتفظنا بهذا المعنى لعدم اهتدائنا إلى مرادف آخر. ولكن مصطلح gender ينوه بأن صفات الأنوثة والذكورة، على الرغم من استنادها إلى صفات بيولوجية مشتركة، إلا أنها في مجموعة مكتسبة من المجتمع، وبالتالي فهي متفاوتة من مجتمع إلى آخر".

(الصلح والتركي 1993 : 11).

فهذا توجه للإبقاء على اللفظ الأعجمي بحجة وجود فراغ في الاصطلاح العـــربي. وهناك موقف آخر يترجم هذا المصطلح بلفظه "نوع" العربية فنجد :

النوع والمكانة ترجمة لـــ Gender and Status

والنوع والتنمية ترجمة لـــ Gender and Development

ونجد مركبات لفظية مثل: مفهوم النوع، وأدوار النوع.

(أنظر برنامج جامعة بيرزيت نسخة مصورة)

كما وجدنا ترجمة عربية تمت في تونس فإزاء مصطلح Analyse du genre نجد "تحليــل النوع". (الكريديف 1997 : 17).

أما الأمم المتحدة فقد تراوحت الترجمة في وثائقها بين القول بــ"نـــوع الجنـــس" و "الجنسانية" فنجد مثلا نجد مصطلح

" مقياس التمكين الجنساني: هو دليل مركب تستخدم فيه متغيرات تبنى صراحة من أجـــل قياس التمكين النسبي للمرأة و الرجل في مجالات النشاط السياســـي و الاقتصـــادي . و تضاف ثلاثة أدلة – للمشاركة و صنع القرار في المجال الاقتصادي، و للمشاركة و صنـــع القرار في المجال السياسي، و للسيطرة على الموارد الاقتصادية– من أجل اشتقاق القيمـــة النهائية لمقياس التمكين الجنساني"

(تقرير التنمية البشرية ، 2000 :279)

2.6.المختصون

وهذا الموقف المنشطر نجده أيضا لدى المختصين في ميدان الدراسات النسوية. فقـــد تتبعنا تواتر هذا المصطلح في الرسالة العلمية التي يريد المختصـــون إيصالهـــا إلى الجمـــهور ووجدنا السياقات التالية:

1- "وقد تمكن المركز خلال فترة قصيرة لم تتجاوز الثلاث سنوات من أن يتحـــول إلى مركز محلي وإقليمي للدراسات والأبحاث ذات الصلة بالقضايا الجندرية".

(الشرقي 1998 : 7)

2- ".. وبذلك فقد أصبح المركز الآن في موقع يؤهله للتأثير في التحولات والحوارات ذات الصلة بالموضوعا الجندرية.."

(نفس المرجع : 7)

3- تمكن "المركز من الإسهام وبشكل عام في الحوار العالمي حول القضايا الجندرية المختلفة".

(نفس المرجع : 8)

4- "يوفر المركز فرصا للراغبين من أعضاء هيئة التدريس في الجامعة لتحسين مهاراتهم التدريسية بما يمكنهم من الفهم الأفضل للموضوعات ذات الصلة بالقضايا الجندرية وبما يساعدهم على التعامل الإيجابي مع الدراسات الجندري المختلفة".

(نفس المرجع : 8)

5- " . . . معلومات ذات صلة بالموضوعات الجندرية . . إلخ.

(نفس المرجع : 9)

و نجد لدى المختصين ترجمة أخرى هي "الجنوسة" . نجد هذا اللفظ في السياق التالي:

و ذلك في إشارة خلدون النقيب إلى :

أن دراسة الثقافات قد ارتبطت بثلاثة تيارات جديدة في الدراسات الثقافية :

1- الأهمية المركزية لدراسات الجنوسة Gender Studies و الدراسات غير المتركزة حول أوروبا في العلوم الاجتماعية التاريخية ..."

النقيب ،2001: 298

وبالعودة إلى السلسلة الاصطلاحية الموضحة في الشكل السابق نجد أن مصطلح "نوع" هو ما يسمى **بالمصطلح الأصلي** العربي المقابل للفظه gender الإنكليزية. أما المصطلح "جندر" فقد ولد بالتعريب ، و مصطلحا "جنسانية" و "جنوسة" , لدا بالاشتقاق من "جنس". و و المصطلحات الثلاثة : جندر، و جنسانية و جنوسة، هي ما يسمى **بالمصطلح المساعد**. أي أن المختصين أو المترجمين استعملوها للمساعدة في تميز المفهوم الذي يتحدثون عنه من المعنى العام الذي يثيره مصطلح "النوع" في اللغة العربية. ولكل فريق حجته التي يمكن أن يطرحها أو يتصورها أساسا علميا في اللغة العربية ولنا أن نتصور التفسير التالي لفهم اختيار المصطلح.

3.6. التسمية "جندر"

- إن السبب الأول لاختيار لفظ "جندر" هو أن المفهوم جديد في الفكر العربي ولابد من تسمية تحافظ على هذا الطابع المتميز للمفهوم.

- ثاني الأسباب أن العربية تعمد إلى التعريب أي إدخال اللفظ الأعجمي إلى اللغة العربية وإخضاعه لقواعد الاشتقاق فيها. واللفظ "جندر" من الألفاظ القابلة لهذا الشرط. فله صيغة يمكن وزنها. على (فعلل) وتجري عليه التقليبات الصرفية الممكنة مثله مثل فعل (دحرج). وقد سبق أن العربية قبلت فعل مثل (بستر) نسبة إلى باستور وهو على وزنه.

- ثالث الأسباب أن اللفظ لا يقل أهمية عن الألفاظ الدخيلة إلى العربية والتي لم تلق نفس المقاومة أو بالأصح استطاعت مع مر الأيام أن تجد لنفسها مكاناً في معجم اللغة العربية كالجغرافيا والفلسفة، والديمقراطية وغيرها.

- رابع الأسباب إن الاستعمال، ولو في نطاق ضيق، قد خلق لدى الجمهور الذي ألف اللفظ إدراكاً لخصوصية واقتناعاً به -وإن على مضض- وبالتالي فإن على الآخرين التعرف على المفهوم أصلاً لقبول التسمية.

والأسباب تبدو في مجملها مقنعة، ولكن بالنظرة العلمية الدقيقة يمكن ردها واحداً واحداً.

1 - جدّة المفهوم ليست مبرراً كافياً لقبول التسمية الأعجمية. حيث أن المطلوب هو البحث عن تسمية تدل على المفهوم. وهذه التسمية يمكن أن تكون مما هو موجود في الاستعمال العام كلفظ (نوع) أو يمكن أن يشتق منه تسمية متميزة تثير لدى المتلقي رغبة في معرفة المعنى. فمثلاً كلمة "جنسوية" بهذه الصيغة تخلق لدى السامع أو القارئ فهماً يميزها عن لفظة "جنسية أو جنسي" وبالتالي تميز المفهوم ينعكس على تميز التسمية صرفياً.

2 - اعتماد العربية على التعريب هو استثناء أو المرحلة الأخيرة من العمل الاصطلاحي حيث يقترح الأمير مصطفى الشهابي في ترجمات المصطلحات العلمية ثلاثة إجراءات:

1- تحري لفظ عربي يؤدي معنى اللفظ الأعجمي.

2- إذا كان للفظ الأعجمي معنى علمي جديد لا مقابل له في اللغة العربية ترجم بمعناه كلما كان قابلا للترجمة أو اشتق له لفظ عربي مقارب.

3- إذا تعذر على الناقل الكفء وضع لفظ عربي بالوسائل المذكورة عمد إلى التعريب مراعيا قواعده على قدر المستطاع.

(ضمن عبدالعزيز : 1990 : 232).

3 - أن تعريب الألفاظ ليس مرتبطا بالأهمية وإنما بالإمكانية في إيجاد المقابل المناسب فقد تعرب الألفاظ ولكن على المدى تجد اللغة ألفاظا مناسبة تحل محل المعرب ومثال ذلك التليفون الذي اشتق منها تلفن، يتلفن..إلخ. ثم مع الأيام حل الهاتف محل هذا اللفظ و صارت دلالة الهاتف القديمة إلى الظل تستجلب في سياقها القديم فقط.وكذلك حل مصطلح الحاسوب محل الكمبيوتر، وغيرهما.

4 - إن الاستعمال في النطاق الضيق ومن أهل الاختصاص والاقتناع بذلك هو أمر مألوف في كثير من التخصصات العلمية ولا يذم لذاته، فلكل تخصص رطانته الخاصة به، كما لكل حرفه بعض ألفاظها التي لا يعرفها سوى أصحابها. لكن لفظ "جندر" مرتبط بعلم إنساني هدفه مخاطبة جمهور أوسع. ولقد خشي العرب في التوسع في التعريب في المجال العلمي البحت ذلك أنهم قدروا أنه بعد شمول التعريب العلوم البحتة يدخل العلوم الإنسانية وينتشر ويستغلق على الأجيال القادمة فهم لغة العرب وتراثهم.

والخلاصة أن مصطلح "الجندر" موضع خلاف لكون أعجمي ولا يثير لدى متلقيه أي دلالة قريبة أو بعيدة تدل على مفهومه الأساسي وبذلك غدت هذه الكلمة.

"خلقا ذاتيا في حالة حصار وليست نبتا طبيعيا نابعا من خضم الحياة العلمية الصخابة، واستجابة لوظيفة واقعية وحاجات عملية تلح على إيجاد المصطلح ليأخذ سبيله في حياة المجتمع وتكتمل به عناصر الخطاب العلمي والاجتماعي..".

(جلال 1998 : 121)

4.6. التسمية "نوع"

الواقع أن لفظة (نوع) في العربية هي المقابل المعجمي للفظة Gender أي أن لفظة نوع هي علامة لغوية عامة وليست علامة اصطلاحية وهي تقابل gender بالمعنى اللغوي العام وليس بالمعنى الاصطلاحي. ومن هنا لم يقبل بها البعض. في حين أن الراضين عنها يرون أن اللفظ gender في أصل وضعه لفظ عام يشير إلى الجنس اللغوي بالتذكير والتأنيث والجنس اللغوي ليس بالضرورة بيولوجيا. فأصل هذا المفهوم قريب من المعنى العام للفظ، وزيدت فيه الخصائص الدلالية المفهومية ليسم اتجاها دراسيا معينا. وهذا الخصائص يمكن إضفاؤها على لفظة (نوع) العربية. فلا ضير من استعمال هذا اللفظ بمفهومه الجديد.

لكننا أشرنا سباقا إلى أن أهم خاصيتين تربط التسمية بالمفهوم هي واحدية اللفظ وواحدية المرجع وهنا يمكن تصور الاعتراضات التي توضع أمام اعتماد لفظه نوع ومؤداها أن نوع تشير إلى مفاهيم أخرى منها:

1- في المنطق أن النوع هو: "كلي مقول على واحد أو على كثيرين متفقين بالحقائق في جواب ما هو" (الجرجاني: التعريفات: 316).

وهو يندرج تحت كلي أعم منه هو "الجنس" ويمكن التعبير عن العلاقة بين النوع والجنس بقولنا إذا كان الصنف (س) يدخل في نطاق صنف آخر هو (ص)، فإن (س) نوع و (ص) جنس. كالمثلث فهو نوع من المضلع.

2 - النوع في علم الأحياء: وحدة تصنيفية أقل من الجنس يتمثل في أفرادها نموذجا مشترك محدود ثابت وراثي (المعجم الوسيط). إنه يقابل اللفظ espéce.

3 - لا تحمل تسمية نوع أي دلالة تمييز تبين اختصاصها بمنهج معين.

6. 5. الجنسانية و نوع الجنس

إن الذي ترجم بنوع الجنس قد أخل بالعلاقة القائمة بين لفظي "نوع و جنس " في اللغة و الاصطلاح كما يفهم مما تم شرحه حتى الآن و خاصة في العلاقة المتعارف عليها اصطلاحا و التي فسرت في النقطة السالفة (6. 4.) . أما الترجمة جنسانية فقد لامست جانب من صواب الفهم لخاصية اللغة العربية . ذلك أن لفظ "جندر" في الإنكليزية يشير إلى "الأجناس" التي تعرفها اللغة الإنكليزية و هي ثلاثة أجناس : she (للمؤنث)، he (للمذكر) it للمحايد. أما اللغة العربية فلا تعرف إلا جنسين هما المذكر و المؤنث و مثلها اللغة الفرنسية و الإيطالية مثلا. فقد أدرك الواضع للفظ البنية الثنائية فاشتق من مثنى "جنس" لفظة "جنسان" و نسب إليها فصارت "جنسانية" . دون اعتبار لعلامة إعراب المثنى ، و هذا أمر وافق عليه مجمع اللغة العربية.

غير أن المأخذ على هذا المقترح هو أن لفظه من ناحية يذكر بالعلاقة القائمة على أساس جنسي، وهذا أمر يرفضه المختصون بقوة. و من ناحية ثانية هذا اللفظ في توافق شبه كلي مع تسمية لأحد المذاهب الأخلاقية المسيحية المتشددة التي ظهرت في فرنسا وإيطاليا في القرنين السابع عشر و الثامن عشر وهو Jansénisme: جنسينية.

6. 5. الجنوسة

وجدنا مصطلح دراسات الجنوسة عند خلدون النقيب (2001 : 298) مقترنا باللفظ الإنكليزي Gender Studies ووجدنا عند نفس الكاتب و في نفس المقال (ص 300) مصطلح الدراسات الجنوسية مقترنا باللفظ الإنكليزي Women's Studies. و هذا الأمر نلحظه في كثير من الوثائق الخاصة بالدراسات النسوية . حيث أصبحت كلمة جندر تعني نساء. ومأتى ذلك أن التركيز على أهمية الأدوار قائم على أساس المطالبة بدور أساسي للمرأة. و المأخذ على هذا الاقتراح هو ارتباطه بكلمة "جنس".

7. مقترح آخر : (نوعانية)

كما أشرنا فإن القاعدة العامة النظرية هي إيجاد اللفظ العربي إزاء اللفظ الأعجمي بكافة طرق الوضع كالاشتقاق، والمجاز، والتوليد ثم التعريب والنحت ولمزيد من التفاصيل انظر (الحمزاوي 1986 : 39 وما بعدها).

لكن الذي يحدث على المستوى العلمي هو أن نجد أن الوضع مقلوب. فالعربي يقوم بتعريب المصطلح أولا، أي يبقى عليه كما في لغته الأصلية، ويجري عليه تحويرا بسيطا. ثم يقترح له مرادفا عربيا قد ينتشر، وقد لا ينتشر. ثم يبتدع له لفظا مناسبا بتطابق مع دلالته الاصطلاحية بعد فهمها جيدا. وهو الأمر الذي حدث مع لفظه تليفون ثم كمبيوتر. ويمكن أن يحدث مع لفظه "جندر".

فاللفظ العربي المرادف هو نوع لكن اللفظ الاصطلاحي لا يزال غائبا.

لكي نقترح لفظا اصطلاحيا نعود إلى أصل كلمة نوع في العربية فهي من الفعل

ناع: ينوع نوعا ونوعانا: تمايل. ويقال ناع الغصن، وناعت العقاب: مالت للانقضاض (...) نوع الشيء: حركة، يقال نوعت الريح الغصن (...) تنوع الشيء: تحرك وتمايل.

(المعجم الوسيط : مادة ناع)

يمكن حمل دلالة الحركة في أصل مادة (نوع) على مفهوم تبادل الأدوار في معنى المصطلح Gender

ولما كان الإشكال يقوم حول استعمال المصدر نوع والنسبة إليه "نوعي" فإننا نقترح استعمال المثنى لكلمة نوع وهي :"نوعان". و بهذا تكون الإشارة إلى النوعين الذكر والأنثى في أدوارهما الاجتماعية وليست بالضرورة البيولوجية.

ولتبرير هذا الاقتراح نعود ونشير إلى اشتقاق لفظة "جنسوي/ية" من جنس وهو اشتقاق شاذ نادر الوجود في العربية مثل تنموي وتنموية وتربوي وتربوية إلخ. وثم الالتجاء إليه لتميز النسب إلى جنس بصيغة جنسي أو جنسية لشيوع هذه الصيغة للدلالة على مفهوم يختلف عما يرمي إليه المفهوم Sexism : جنسوي/ية.

كما أن الاشتقاق في مصطلح "جنساني" هو اشتقاق قائم على نفس المبدأ نـــرمي إليه هو الاشتقاق من المثنى و النسبة إليه هو أمر تقر به اللغة العربية و تقبله.

ويمكننا أن نجعل لفظة نوعانية عوض نوعيه اجتناباً لسوء فهم الدلالة الاصطلاحيـــة المميزة لكل منهما. وبالعودة إلى تواتر ورود مصطلح جندر مقترنـــاً بالالفـــاظ التاليـــة: "قضايـــا جندريه، دراسات جندرية، موضوعات جندرية، حساســـية جندريـــة، إطـــار جندري" يمكن القول "قضـــايا نوعانية، ودراسات نوعانيـــة، وموضوعـــات نوعانيـــة، وحساسية نوعانية، وإطار نوعاني".

وهذا هو اقتراح إذا شاع على أيدي المختصين فإنه يحتاج إلى وقت يتزامن استعماله فيه مع اللفظ الأعجمي حتى تستتب دلالته. وتأتي في مرحلة لاحقـــة مسـألة توحيـــد المصطلح على المستوى العربي. و يمتاز عن مصطلح " النوع الاجتماعي" أنه مكون من لفظ واحد ويمكن الاشتقاق منه و النسبة إليه لمواجهة ما يجري على لفظ Gender الإنكلـــيزي، كما يمتاز عنه بأنه لا يحصر العلاقة بين الرجل و المرأة في الأدوار اجتماعية و إنما في مطلـــق الأدوار السياسية و الاقتصادية و الثقافية و هو ما ينم عنه مفهوم لفظ Gender الإنكلـــيزي. ويمتاز لفظ " النوعانية" عن بقية الألفاظ بكونه يبتعد عن مفهوم الجنس و ما يرتبط بها مـــن الدلالات . و يمكن أن نعرف النوعانية بأنها : العلاقة بين الرجل و المـــرأة مـــن منظـــور اجتماعي و سياسي و ثقافي و اقتصادي. و الدراسات النوعانية هي التي تدرس هذه العلاقة من هذه الزوايا و ليس من الزوايا البيولوجية المستقرة بحكم التركيبة الجسمانية.

8 - توحيد المصطلح.

إن توحيد المصطلح العربي قضية واسعة الأرجاء متباعدة الأطراف وسوف نقصـــر حدينا عن بعض خصائص التوحيد التي يمكن استعمالها إزاء الألفاظ الواردة آنفـــا وهـــي جندر، نوع، نوعان.

8. 1. ومنهجية التوحيد

"ليست مخلوقه من عدم، فهي ليست بدعة بقدر ما هي مستمدة من تقاليدنا اللغوية القديمة، ومن المنهجيات العربية والأجنبية المعاصرة. أما من القديم، فلقد كان أسلافنا يتحرون في صحة اللفظ والمعنى على الإسناد أو على الإجماع باعتبار اطراد المصطلح، أو المفهوم [. . .] أما مجمع اللغة العربية بالقاهرة فقد أقر أن "القياس والمطرد، والغالب والأكثر، والباب، والأصل، واصل الباب والقاعدة كلها ألفاظ، مترادفة".

(الحمزاوي 1986 : 62)

8. 2. وأهم مبادئ هذه المنهجية

1-الاطراد أو الشيوع: أي انتشار المصطلح بين المستعملين من عامة الناس والمتخصصين ويترجم هذا الانتشار بالذكر في المصادر والمراجع.

2-يسر التداول: أي سهولة اللفظ والتواصل به ويحدد بحسب عدد حروف اللفظ.

3-الملاءمة أي اقتصار التسمية على مفهوم المصطلح وأن يكون المعنى الاصطلاحي أقوى من المعنى العام.

4-الحوافز كلما ما يحفز المستعمل على اختيار المصطلح مثل صيغته البسيطة وقابلية الاشتقاق انظر (الحمزاوي 1986: 63 وما بعدها).

وهذه المنهجية على أهميتها إلا أنه يصعب تنفيذها بإسناد درجات رقمية للتسميات السابقة لأسباب تعود إلى جدة ظهورها وإنها مازالت في طور الصياغة ولابد من التريث حتى يتخذ أحد الألفاظ الثلاثة السابقة مكانه أبرز وانتشارا أعم.

وعليه فإن الاستعمال سيظل رهن القرار الذي يمكن أن يتخذه المختصون باختيار إحدى التسميات وتكريسها في الاستعمال الأكاديمي والعام ثم تأتي مرحلة التوحيد المصطلحي المنمط لاحقا.

9 – خاتمة

إن الدراسات النوعانية بما تنطوي عليه من جدة في الموضوع والمنهج بحاجة إلى أن تؤسس لنفسها شبكة اصطلاحية تعين على صياغة المعطيات العلمية وتدققها. وهذا لا يتأتى إلا بتعاون من أطراف السلسلة الاصطلاحية وهم: المختصون، والوسطاء –من المترجمين ومحررين وأساتذة–، وعلماء المصطلحات بحيث يكلل هذا التعاون بخروج المصطلح إلى الجمهور وقد خضع العمليات صقل وتهذيب وتأصيل:

> "فقضية المصطلح تكاد تكون من أدق القضايا في عصرنا. فالمصطلح كما هو معروف، هو مفتاح العلم و الثقافة.و بدون القدرة على استيعاب المصطلحات و توليدها و فهمها لا يمكن استقرار علم و لا فهم.و الحاجة ماسة اليوم لأن يساير إبداع المصطلح عملية النمو و الازدهار لكل أمة، و إلا كان الاستدعاء لمصطلحات"الآخر" و الاستلحاق به، و غياب الخصوصية اللغوية و الثقافية."
>
> (شيار ،2000 : 29)

ونقترح عمليا إنشاء ما يمكن أن يسمى "وحدة المصطلحات النسوية العربية" من كافة المختصين و المختصات في الوطن العربي على أن يكون يحدد مقر في إحدى الدول العربية لهذه الوحدة ، وتضاع آليات عملها جماعيا ثم يتم إنشاء قاعدة مصطلحات تجرى عليها ضوابط الصياغة والتوحيد.

كما نقترح تعميم تعريف مصطلح الدراسات النوعانية وإشكاليته معرفيا ولغويا على نطاق واسع من مجرد قاعات المحاضرات المختصة.

المراجع

1- أبو ريشه، زليخه (1996): اللغة الغائبة نحو لغة غير جنسوية، ط1، مركز دراسات المرأة، عمان، 145ص.

2- تقرير التنمية البشرية لعام 2000، برنامج الامم المتحدة الإنمائي، 290ص.

3- جلال، شوقي (1998): أزمة المصطلح: كيف يكتسب بعده الاجتماعي؟ العربي، العدد 475، ص ص 119-121.

4- الجرجاني، عبدالقاهر (1985): كتاب التعريفات، بيروت، مكتبة لبنان، 335 ص.

5- الحمزاوي، محمد رشاد (1986): المنهجية العامة لترجمة المصطلحات وتوحيدها وتنميطها، بيروت، دار المغرب الإسلامي، ص 13.

6- شبار، سعيد (2000): المصطلح خيار لغوي .. وسمة حضارية ، كتابة الأمة، قطر، العدد 78 السنة 2000. 143ص.

7- الشرقي، رؤوفة حسن (1998): خلفية حول مركز الابحاث التطبيقية والدراسات النسوية بجامعة صنعاء، مجلة الدراسات النسوية، العدد صفر، ص ص 7-21.

8- الصلح، كاميليا فوزي، والتركي، ثريا (1993) (محررتان): في وطني أبحث: المرأة العربية في ميدان البحوث الاجتماعية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص 233.

9- عبدالعزيز، محمد حسن (1990): التعريب في القديم والحديث، القاهرة، دار الفكر العربي، ص 428.

10- (الكريديف) مجلة مركز البحوث والدراسات والتوثيق والإعلام حول المرأة، نوفمبر 1997، عدد 13، تونس.

11- المسدي، عبدالسلام (1986): صياغة المصطلح وأسسها النظرية في: تأسيس القضية الإصطلاحية، تونس، بيت الحكمة، ص ص 9-64.

12- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية في القاهرة، الطبعة الثالثة.

13- نسخة مصورة من برنامج جامعة بيرزيت، مكتبة مركز الأبحاث والدراسات التطبيقية، جامعة صنعاء.

14- النقيب، د.خلدون حسن، 2001 :دعوة إلى إعادة هيكلة العلوم الاجتماعية، عالم المعرفة، مج29، ع3، يناير-مارس 2001م ص ص293-302.

15- Dubuc, Robert (1992): Manuel pratique de lateriminologie, Lionguatech, Canada, 144p.

16- Rondeau, Guy, (1991), Introductiona la terminologe, 2éd. Ed; Gaetan morin, Canada, 228p.

علم الإجتماع والنقد الذاتي

من السوسيولوجيا النقدية

إلى سوسيولوجيا الحركات الاجتماعية

د. عادل مجاهد الشرجبي

يمكن وصف عقدي الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين بأنهما يمثلان بداية لنهاية العقائد الجامدة سياسياً واقتصادياً وثقافياً، فقد أخضعت المنظومات الفكرية والممارسات السياسية والسياسات لقوى اجتماعية ناقدة للواقع، تزامن ذلك مع ظهور حركة لنقد الفكر المعبر عن هذا الواقع وبشكل خاص في مجال علم الاجتماع، حيث بدأت تتشكل "ملامح بناء فكري جديد، يخرج عن إطار الفكر المحافظ، الذي يرغب في الابقاء على النظام القائم، واتجه هذا البناء نحو الكشف عن عيوب النظام القائم في مقابل التنظير له وحمايته عند الاتجاه المحافظ، ونحو فهمه على أنه نظام مفكك غير مترابط البناء في مقابل فهمه على أنه متكامل العناصر والأجزاء عند الاتجاه المحافظ، ونحو فهمه على أنه نظام يخبر أزمة داخلية من خلال تناقضات وصراعات كامنة في صلب بنائه في مقابل فهمه على أنه يخبر استمراراً واستقراراً مستمرين وأنه قد تغلب على كل تناقضاته الداخلية عند الاتجاه المحافظ" [1]. إذن فقد شهدت الستينيات والسبعينيات حركة نقد واسعة للمجتمع

الرأسمالي[2]، هذا النقد كما حدده ماركيوز على مستويين: "مستوى النقد المستمر والرفض للواقع من خلال السلوك الثوري، الذي يحطم كل مظاهر القهر المفروضة على الأفراد، وعلى المستوى الفكري وغايته رفض أساليب التفكير القائمة من خلال النقد المستمر للواقع الذي تدعمه هذه الأساليب الفكرية"[3].

يتفق علماء الاجتماع النقديون على أن علم الاجتماع علم واقع في أزمة، ولكن ما هي طبيعة هذه الأزمة؟ هل هي أزمة منهج أم أزمة نظرية التزام أو أزمة ممارسة؟ أم أن الأزمة تشمل كل هذه الجوانب؟ ومن أجل تحديد أكثر لهذه القضايا يمكن طرح التساؤلات الآتية: هل ما توصل إليه علم الاجتماع من تعميمات هي تعميمات زائفة؟ "أزمة نظرية، هل الأسلوب الذي أتخذه علماء الاجتماع في دراساتهم هو أسلوب غير ملائم؟ "أزمة منهج"، هل الموضوعات التي يدرسها علماء الاجتماع هي موضوعات غير ذات أهمية؟ "أزمة موضوع"، هل تتمثل الأزمة في أن علماء الاجتماع قبلوا أن يكونوا منظرين للسلطة وابتعدوا عن قضايا الطبقات الدنيا في المجتمع؟ "أزمة التزام" أم أن المشكلة تتمثل في التوظيف المشوه لنتائج العلم؟ "أزمة ممارسة".

ربما كانت الأزمة قد طالبت تلك الجوانب جميعاً فهي مترابطة وكل منها تؤدي إلى الأخرى، فأزمة النظرية التي يمكن تسميتها أيضاً بالأزمة الأيديولوجية والتي تمثلت بابتعاد علماء الاجتماع عن الاهتمام بمناطق الصراع في المجتمع وعن تحليل كل ما يرتبط بالتغيير، أدت إلى الاهتمام بموضوعات تجزيئية مفصولة بشكل تعسفي عن سياقها الاجتماعي والتاريخي وبالتالي استخدام أدوات منهجية تركز فقط على الأدوات الامبيريقية والاغراق في استخدامها.

لقد كرس "رايت ميلز" C. Wright Mills فصلاً من كتابة "الخيال السوسيولوجي" تحت عنوان "الوعد" لنقد المناهج الكمية التي استخدمها علماء الاجتماع، وقدم رؤية تنظر إلى المنهج العلمي لا باعتباره أسلوباً لجمع البيانات فقط بل باعتباره أداة تساعد في استخدام هذه البيانات في التفسير والتحليل[4]. أما بوتومور T. B. Bottomore فقد انتقد مناهج علم

الاجتماع الغربي بشكل عام وعلم الاجتماع السياسي بوجه خاص، الذي يدرس الحركات الاجتماعية من خلال مفاهيم "الثقافة السياسية" والتنشئة السياسية "واعتبرها أضيق من أن تحتوي كافة الظواهر ذات الصلة"[5] واقترح الانطلاق من مفهوم "إعادة الإنتاج الثقافي" وذلك يعني أن النظام الثقافي حتى في مظاهره الغير سياسية يعتبر عنصراً هاماً في السيطرة الثقافية وبالتالي السياسية، ومن ثم فهو جدير بالحب والدراسة[6].

ويتطابق ذلك مع رؤى هربرت ماركيور H. Marcuse الذي "رفض أساليب البحث المتبعة في علم الاجتماع الأمريكي على التخصيص لأنها مبنية على نظرة "ذرية" أو تفتيتية للمجتمع وتغوص في تحليل التفاصيل وفي الجداول والإحصائيات والأرقام دون أن تبذل أي جهد لإدراك الصورة العامة، ولمناقشة الأُسس الأولى للمجتمع. هذه العملية الزائفة التي يتعلل بها الباحث كما يتجنب إصدار أي حكم عام تقف حائلاً بين العقل وفهم المجتمع"[7] إن الأهمية المتعاضمة التي تكتسبها الأساليب البحثية الإمبيريقية في علم الاجتماع الغربي وأدواتها الكمية المعتمدة على الجداول والإحصائيات والأرقام قد جاءت استجابة لدعاوى الموضوعية والحياد القيمي والأيديولوجي والسعي باتجاه خلق علم اجتماع متحرر من القيم، وهو ما وجه إليه الفن جولدنر Alvin W. Guldner انتقادات هامة. حيث اعتبر "أن مقولة علم الاجتماع المتحرر من القيم تعتبر درعاً لعلماء الاجتماع المغتربين Alienated Sociologht فبالرغم من أن "س رايت ميلز" ربما يكون محقاً في قوله أن هذا العصر هو عصر علم الاجتماع فإن كثيراً من علماء الاجتماع و"ميلز" واحد منهم يشعرون بالغربة والعزلة في مجتمعاتهم ويشعرون بالضعف والعجز عن الإسهام الإيجابي في حل المشكلات الاجتماعية. وحتى إذا ما استطاعوا فإنهم يشعرون بالخوف من أن حدود إسهامهم تتطلب خضوعهم لمتطلبات مجتمعاتهم. ومساهمتهم مساهمة جزئية عوضاً عن إسهامهم إسهاماً حقيقياً من أجل مصالح الجماهير" [8]. ويضيف قائلاً: "إن واحدة من المعاني المستقرة لفكرة علم الاجتماع المتحرر من القيم هي أن علم الاجتماع لن يتخذ أحكام قيمة نقدية أو سلبية تجاه المجتمع الذي ينتمي إليه عالم الاجتماع بشكل خاص"[9].

ويطرح هبرماس لحل هذه المشكلة ما أسماه "العلم الاجتماعي الجدلي" الذي يسمح بفهم موضوعي للمعنى الذاتي. ويتخذ هذا العلم الجدلي موقفاً وسطاً بين موضوعية العمليات التاريخية والدوافع الذاتية الكامنة خلفها. ومن ثم فإنه يقوم على الجمع بين أدوات البحث الإمبيريقي الذي يحاول أن يكشف عن القواعد الخارجية المنظمة للسلوك وبين الفهم أو التأويل الذي يسعى إلى الكشف عن الأبنية الداخلية التي تعمل هذه القواعد الخارجية على ضبطها، وذلك بهدف اكتساب معارف تسعى إلى تحرير الإنسان وتخليصه من مكبلات عالمه المادي"[10].

أما توم بوتومور الذي ركز اهتمامه لكشف أزمة النظرية السوسيولوجية فهو يصف علم الاجتماع المحافظ الذي ساد في منتصف هذا القرن وبشكل خاص النسق النظري لتالكوت بارسونز بإنه "نوع من التجميع بشكل مدرسي شديد الجفاف لأكثر العناصر المحافظة لدى علماء الاجتماع الكلاسيكيين. مركزاً مثلاً على "أنماط الفعل الاجتماعي" عند "ماكس فيبر" وتشخيصه للرأسمالية على حساب نظريته في التغير الاجتماعي والتاريخي، كما أعطى الأولوية لمفهوم "باريتو" عن التوازن الاجتماعي، في الوقت الذي تجاهل فيه "ماركس" تماماً"[11]. ويقول بوتومور أيضاً أن الدراسات السياسية لـ"تالكوت بارسونز" تنظر إلى البناء الاجتماعي للمجتمع الأمريكي بوصفه غير قابل للتغير أو على أنه على الأكثر قادر على التطور التدريجي على امتداد مسار مشروط بظروف معينة وبالغ الضيق"[12] ويصف رايت ميلز النظرية الوظيفية وبشكل خاص نظرية بارسونز في "الفعل الاجتماعي" بإنها نظرية "متضخمة"، ويأتي تضخمها من كونها بناء فكري مبالغ في تجريده وعموميته بحيث لا يستطيع ممارسوه النزول إلى مستوى الملاحظة[13]. وهي نظرية مبينة للتركيب اللغوي ومغلفه للمدلولات اللغوية ويقول: "إن أصحاب النظرية المتضخمة قد شغلوا أنفسهم بمعاني التركيبات اللغوية ونضب خيالهم بدرجة شديدة بالنسبة للدلالات والبراهين، كما أنهم حصروا أنفسهم بتزمت شديد بمستويات بالغة التجريد لدرجة أن شرح "الرموز الكلامية" التي يقدمونها تبدو في أغلب الأحيان مجرد لعبة غير مجدية من التنميط أكثر مما تمثل جهداً لتعريف المشاكل بطريقة نسقية"[14] ويضرب لذلك مثلاً بكتاب

بارسونز "النسق الاجتماعي المكون من (555) صفحة ويقول: أنه يمكن اختصاره إلى 150 صفحة من اللغة الإنكليزية الواضحة المباشرة، ورغم أن النتيجة لن تكون بالغة التأثير إلا أنها مع ذلك سوف تتضمن العبارات التي تحوي عرضاً للمشكلة الرئيسية للكتاب وللحل المطروح لهذه المشكلة"[15].

وتبدو أزمة الموضوع في عدم قدرة علماء الاجتماع على تجاوز الموضوعات التي درسها الرواد المؤسسون، فمصطلح الثقافة مثلا رغم أنه استخدم في الأنثربولوجيا الإنكليزية على يد تايلور E. B. Tylor في كتابة "الثقافة البدائية" عام 1871، ومع ذلك فإن هذا المصطلح ظل يستخدم بنفس الدلالة التي استخدمه بها تايلور والتي تساوي بينه وبين مصطلح الحضارة حتى نهاية الستينيات من هذا القرن حينما بدأ "أدورنو" جهوده لتخليص المصطلح من تأثير المصطلحات الأخرى القريبة منه[*] ويرجع ذلك إلى أن الرواد من علماء الاجتماع أمثال "أوجست كونت"، ودوركيم"، "ماكس ڤيبر"، "ماركس". استخدموا المصطلح بنفس تلك الدلالة. إن ذلك يوضح جيدا أن هناك نوعا من السيطرة لتلك الموضوعات التي عالجها المؤسسون.

أما جولدنر الراديكالي الذي لا يفصل بين الفكر والعمل.. بين محاولات تغيير النظرية ومحاولات تغيير الواقع، فإنه يعتقد أن المشكلة التي تواجه علماء الاجتماع هي العلاقة المتبادلة بين النظرية والممارسة.. بين الفكر والعمل، ويعتقد أن بالإمكان كسر هذه الفجوة المصطنعة من خلال بذل الجهود في إقامة تجمعات نظرية، فالتنظيم والتنظيم وحده هو القادر على أن يكون همزة الوصل بين الفكر والعمل. فعلم الاجتماع على حد تعبيره لا يحتاج إلى لينين جديد"[16] ويبدو هذا الترابط بين نقد الواقع ونقد العلم من خلال تقسيم ماركيوز لكتابة "الإنسان ذو البعد الواحد" فهو يقسمه إلى ثلاثة أقسام متكاملة: الأول، المجتمع أحادي البعد مكرس لنقد المجتمع، والثاني الفكر أحادي البعد مكرس لنقد العلم،

---

[*] من أجل الإطلاع على جهد ممتاز للتفريق بين مصطلحي الحضارة والثقافة أنظر:

- Francis Heam, “The Implications of Critical Theory for Critical Sociology”, in Larry Rey, “Critical Sociology”, pp 131-136.

والثالث، الفلسفة أحادي البعد مُكرس لنقد نظرية القيمة. إن هذا التوحيد بين الفكر والممارسة الذي دعا إليه ماركيوز جعل كتاباته في الستينيات تمثل "برنامجاً ثورياً للحركات الطلابية والراديكالية المستقلة عن الأحزاب الاشتراكية الملحقة بمؤسسات الدولة الرأسمالية. ونظريته النقدية كانت تطرح في الوقت نفسه حلماً بالتغيير ورمانسية ثورية كانت مفتقدة في ظل الواقع السياسي والاجتماعي للعالم الرأسمالي"[17] ويوضح ألين تورين A. Tourain أزمة الالتزام في علم الاجتماع من خلال تفريقه بين علم الاجتماع المرتبط بالمؤسسات الرسمية وغير الرسمية القائمة وهو ما أطلق عليه علم اجتماع القرار Sociology of Decision الذي حول علماء الاجتماع إلى باحثي سوق وخبراء يساعدون في إصدار القرار الرسمي والاقتصادي وبين العلم والبديل الذي أطلق عليه علم اجتماع المعارضة Sociology of oposition الذي يربط نفسه بالحركات الاجتماعية التي تصارع البناء القديم لتهدمه وتقيم بناءها على انقاضه[18].

أولاً: موقف الاتجاه النقدي من التراث السوسيولوجي

يكشف تأمل المقولات الأيديولوجية للفكر الاجتماعي النقدي عن وجود عناصر جد متناقضة تتداخل مع بعضها البعض لتصنع بناءً فكرياً فيه من الوجودية والمثالية والنزعة الإنسانية للماركسية وحتى تبني بعض تكنيكات البحث في علم الاجتماع الأمريكي. كل ذلك يتداخل مع بعضه البعض لكي يشكل فكر احتجاج على ممارسات النظام الاجتماعي وليس فكر ثورة تستهدف الإطاحة الشاملة بهذا النظام"[19] ومن المؤثرات التي أثرت في تشكيل الفكر النقدي: التراث الفلسفي الألماني فقد كان ماركيوز أساساً أستاذاً للفلسفة وكان تلميذاً للفيلسوف الألماني "هيدجر" وكتب رسالته للدكتوره عن أنطولوجيا هيجل وعلاقاتها بفلسفته في التاريخ. ويبدو هذا التأثر واضحاً في رفض مفكرو مدرسة فرانكفورت للأساليب الإمبيريقية في البحث السوسيولوجي وتبنيهم للمناهج الفلسفية واقتفى أثرهم في ذلك مفكرون سيوسيولوجيون من خارج مدرسة فرانكفورت، وفي هذا

السياق يجدر الإشارة إلى رؤية "جولدنر" لعلم الاجتماع التأملي باعتبارها متوائمة مع هذا التوجه. واختصارا يمكن القول أن علماء الاجتماع النقديين ومعظمهم من الألمان لم يستطيعوا إحداث قطيعة مع الفكر الفلسفي المثالي الألماني. فكتاب "هابرماز" "الميدان العام" يتضح فيه جليا ربطه بين النقد السوسيولوجي والنقد الفلسفي مستندا إلى أفكار "إيمانويل كانت Kant في نظرية المعرفة كما نجد فيه تأثرا واضحا بفينومينولوجيا الروح ليجهل(*). أما المصدر الأساسي الثاني الذي أثر على تفكير علماء الاجتماع النقديين فهو علم النفس الفرويدي، فقد كانت "أفكار فرويد" فيما يتعلق بعلاقة الكبت بالحضارة تشكل مقولات أساسية في البناء النظري للنظرية النقدية"[20]. وقد تعزز هذا الاتجاه في معهد فرانكفورت بانتماء "إريك فروم" إلى المعهد منذ بداية الثلاثينيات "الذي أنضج نظريا محاولات التداخل المنهجي والتحليل بين علم النفس ومقومات التحليل النفسي من جهة وبين المنهج الماركسي في التحليل النقدي الاجتماعي"[21] (**).

إذا كانت تلك هي أهم المصادر العامة التي شكلت تفكير التيار النقدي في علم الاجتماع. فما هو موقف هذا التيار الجديد من تراث النظرية السوسيولوجية وبشكل خاص المدرستين الرئيسيتين في التفكير الاجتماعي: الماركسية والوظيفية.

(*) يأتي ذلك بفعل تخصص "هابرماز" أثناء دراسته الجامعية في الفلسفة والذي حصل على درجة الدكتوراه عام 1954 حول فلسفة "شلنج" ومن أهم أبحاثه في مرحلة ما بعد الدكتوراه مباشرة "التفكير مع هيدجر ضد هيدجر" كما أنه في أواخر الخمسينيات أثناء عمله في جامعة هايدلبرج، تعرف بالفيلسوف الألماني هانز جورج جادمار Hans Gorges Gadmar الذي أثر كثيرا في تفكير هابرماز، كما حصل رايت ميلز على درجة الدكتوراه من جامعة وسكنسن Wisconsin عام 1942م وكانت بعنوان "التفسير السوسيولوجي للبرجماتية". حول هذا الأخير أنظر المرجع السابق، ص 243 هامش .. .

(**) وترسخ هذا الاتجاه بتأثير ماركيوز "الذي زاوج بين الانجازات التحليلية المعاصرة لعم الاجتماع بكل تيارات وبين التحليل النفسي كمنظور تكميلي في بناء الرؤية النقدية وجانبها التحليلي الاجتماعي، المرجع السابق، نفس الصفحة.

هذا بالإضافة إلى التكوين الفكري "هوركهايمر" الذي بدأ دراساته الجامعية متخصصا في علم النفس تحت إشراف عالم النفس الجشتالتي "غليب A. Gelb" وليس ماركيوز ببعيد عن تأثير علم النفس ويتجلى ذلك في كتابه Eros and Civilization: A philosophical Inquiry into Freud المنشور عام 1941 وكذلك في كتابه Five Lectures, Psychoanalysis Politics and Utopia, أما "س. رايت ميلز" فإن تأثيرات علم النفس تبدو واضحة في مؤلفه المشترك مع "هانز جيرت Gerth" الشخصية والبناء الاجتماعي الصادر عام 1953.

إن الاتجاه النقدي في علم الاجتماع رغم أن كثيراً من مفكريه متأثرون إلى هذا الحد أو ذاك بالنظرية الماركسية إلا أنه لا يمكن مع ذلك القول بإن الاتجاه النقدي يعتبر امتـــداداً للماركسية كما يتصور البعض. فعلى الرغم من أن هابرمـــاز مثـــلاً حـــاول في كتابيـــة الأساسيين "النظرية والتطبيق" و"الميدان العام" توضيح أن الماركسية فكر يحتوى على قدرة نقدية هائلة لكل ما هو عام وشامل وطرح في الوقت نفسه مشـــروع "إعـــادة توجيـــه الماركسية" هو : الماركسية نقد"[22] وعلى الرغم أيضاً من أنه كان يصـــف نفســـه بأنـــه ماركسي يحاول إعادة قراءة الماركسية متأثراً بتوجهاته الماركسية واليسارية أثناء دراســـته الجامعية في جامعة فرانكفورت. إلا أن أوساط الحركة الطلابية فيما بعد وتحديداً عام 1969، وعندما نشر مع آخرين دراسته بعنوان: "الطلبة والسياسة" اعتبرته إصلاحياً راديكالياً بل أن بعض الطلبة الرافضين وصفوه بإنه ليبرالي نقدي"[23].

إن العامل الأكثر أهمية في تشكيل رؤى النقديين يرجع إلى التحـــولات السياســـية والاجتماعية والثقافية الهامة التي حدثت في المجتمعات الغربية وبشكل خاص في بريطانيـــا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية، والتي أوضحت أن النظرية الوظيفية لم تعـــد إطـــاراً صالحاً لتفسير المجتمع. الأمر الذي أدى إلى تحويل عدد من علماء الاجتماع الوظيفيين بهـــذا الاتجاه. منهم مثلاً "ليبست" الذي يعد إلى جانب "شـــيلز" و"بـــل" أهـــم دعـــاة نهايـــة الأيديولوجيا. وهو الذي كتب كتابة "الرجل السياسي" عام 1963م للترويج لفكرة نهايـــة الأيديولوجيا وما يرتبط بها من أفكار الاستقرار والتكامل.. إلى آخر مثل هـــذه الأفكـــار الوظيفية. نجده عامي 67 ، 1968م يتحول باتجاه الاهتمام بموضوعات الصراع والتغير وعلـــى رأسها تلك الموضوعات التي كانت تفرض نفسها في تلك الفترة والمرتبطـــة بالحركـــات الطلابية.وإن كان قد ظل حتى عام 1968م يستخدم أساليبه البحثية القديمة لتحليل الظواهـــر الجديدة. ففي المقال الذي كتبه بالاشتراك مع فيليب أتباش عام 1968م بعنوان "السياســـة لدى الطلاب والتعليم العالي في الولايات المتجدة" ناقش الموضوع على أساس أنـــه أزمـــة داخل الجامعة. فإنه في العام التالي وفي مقالة "الطلاب المتمردون"، وجد نفســـه مضطـــرا للتخلي عن محاولته تحليل هذه الحركة على أساس التأثيرات الداخلية في إطـــار الجامعـــة.

ومحاولة تحليلها على أساس ظروف المجتمع ككل[24]. بل أن "جولدنر" نفسه والذي يعتبر من أهم علماء الاجتماع النقديين، هو الآخر بدأ وظيفيا على طريقة "ميرتون Merton" ولم يبدأ في نقد الوظيفة إلا عام 1959م بعد أربع سنوات من ظهور اليسار الجديد. ولم تتشكل نظريته النقدية المتكاملة إلا عام 1970م عندما نشر كتابة "الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي" الذي ينتقد فيه علم الاجتماع الكلاسيكي باتجاهيه الوظيفي والماركسي[25].

إن علماء الاجتماع النقديين قد استعاروا من الماركسية مفاهيمها وأساليبها التحليلة ولكن وفق قراءات خاصة بهم، فقد "قدم بوتومور قراءة جديدة لمفاهيم الصراع الاجتماعي والطبقات الاجتماعية عند ماركس، فهو يرى أن ماركس لم ينظر إلى الصراع باعتباره العملية الوحيدة التي تحدث داخل البناء الاجتماعي، بل أن التوازن عملية ضرورية وهامة أيضا ولكن في الوقت الذي يحدث الصراع على صعيد العلاقات بين الطبقتين الرئيسيتين في المجتمع فإن هناك عمليات توازن تتم على صعيد كل طبقة على حده بين الجماعات المكونة للطبقة الواحدة"[26] وحينما يقدم بوتومور وغيره من علماء الاجتماع النقديين مثل هذه الآراء فإنهم "يقصدون توجيه انتقادهم التقليدي للنظرية الماركسية من أنها قد تجاهلت العناصر التكاملية في عملية التطور الاجتماعي، وأنها بتركيزها على الصراع قد اختزلت واقع المجتمع الرأسمالي إلى مجرد عملية اجتماعية وهي الصراع الطبقي"[27].

واستكمالا لهذا الموقف من الفهم الماركسي لطبيعة الصراع الاجتماعي فإن ماركيوز يرفض "فكرة الدور التاريخي للطبقة العاملة بسبب وضع الطبقة العاملة في المجتمعات الصناعية حيث استطاعت هذه المجتمعات أن تشكل هذه الطبقة داخل نظمها الرأسمالية، وأن تقدم كل المغريات لجعلها تتخلى عن دورها التاريخي"[28] وفي الوقت الذي يردد فيه ماركيوز في كل كتاباته أن الطبقة العاملة لم تعد العامل الحاسم للتغير الاجتماعي فإن آراءه حول الطبقة التي يمكن أن تقوم بهذا الدول تختلف كثيرا في كتاباته، ففي كتابه "الإنسان ذو البعد الواحد" يرى أن البديل هم من أطلق عليهم مصطلح "المبعدون" وهو مفهوم يشير إلى فئات ومجموعات اجتماعية تنتمي إلى البروليتاريا الرثة، أما آراؤه التي أدلى بها أثناء

المناقشات في مؤتمر "كوركيولا" فتشير إلى أن القوة المؤهلة لقيادة التغيير الاجتماعي هي قوة المثقفين بالإضافة إلى الطلاب، وفي كتابه "مسألة الثورة" يبرز الشباب كقوة ثورية وحيدة[29] ومهما كانت التحولات في آراء ماركيوز حول الطبقة القائدة للتحول الثوري فإن القضية الثابتة في تفكير ماركيوز هي أن "البرجوازية والبروليتاريا ما تزالان الطبقتين الرئيسيتين في العالم الرأسمالي، ولكن تطور هذا العالم قد شوه بنيتيهما ووظيفتيهما إلى حد أنهما ما عادتا تبدوان من وجهة نظر التاريخ عامل التحول التاريخي. ففي القطاعات المتطورة من المجتمع المعاصر توجد اليوم مصلحة قوية توحد خصوم الأمس بهدف الحفاظ على المؤسسات وتدعيمها"[30].

أما موقف جولدنر فقد كان متأثرا بأعمال "وليم رايش Wilhelm Reich" و "ليسيو كولتيه Lucio colletti" وموريس مورلوبونتي Maurice Merleou-Ponty وغيرهم والذين اقتفوا بدورهم خطى لابريولا Labriola في إيطاليا و "بليخانون Plekanov" في روسيا والذين فرقوا بين الماركسية العلمية والماركسية كإعادة تشكيل للفلسفة النقدية الهيجلية بهدف توضيح الجانب الفلسفي في الماركسية ورفض الإدعاء الدوجماطيقي بأن الماركسية علم لا يمكن أن تتغير قوانينه. لذلك فقد فرق "جولدنر" بين الماركسية العلمية من جهة والماركسية النقدية من جهة أخرى، متبعا خطى "لوسيوكولتيه" في تفريقه بين الماركسية كعلم والماركسية كنقد و "مورلوبونتي" في تفريقه بين الماركسية الغربية والماركسية اللينينية و"هبوسبوم" في تفريقه بين الماركسية المبتذلة والماركسية النقدية. وهو-أي جولدنر- يتفق مع كل هؤلاء على أن الماركسية المبتذلة والماركسية الأنساق النظرية الأخرى وغير دوجماطيقي وينظر إلى الإنسان باعتباره منتجا Producer للبناء الاجتماعي وليس منتجا Product من منتجاته.

أن هذا التفريق كما يرى جولدنر متفقا مع كولتيه يبرز من خلال التفريق بين عنواني كتاب ماركس "رأس المال" العنوان الأساسي والعنوان الفرعي والذي يمكن القول أن الأول-رأس المال- يشير إلى ماركس العالم الاقتصادي فيما يشر الثاني-نقد الاقتصاد

السياسي- إلى ماركس الناقد. ومع ذلك فإن لينين هو المسئول عن رفض فكرة أن يكون ماركس ناقدا للاقتصاد السياسي عموما فماركس بالنسبة له ناقد للاقتصاد السياسي البرجوازي فقط، والحقيقة أن البعد النقدي في تفكير ماركس يبلغ ذروته في الاغتراب وفتشية السلع"[31].

ويرتبط بذلك مراجعة النقديين لمفهوم الاغتراب فيقول هابرماس "انه إذ أكدت الماركسية على الاغتراب الاقتصادي فإننا نرى اليوم أن الاغتراب الاقتصادي لم يعد هدفا للنضال السياسي الذي يجب أن تمارسه البروليتاريا، ذلك لأن الاغتراب الاقتصادي يظل قائما في ظل اغتراب ثقافي أوسع نطاقا ولتوسيع نطاق الاغتراب يلجأ النظام الرأسمالي المتقدم إلى آليات عديدة منها:

أ) أن يتولى النظام خلق ما يسمى بالحاجات الكاذبة أو الزائفة لدى البشر. حاجات صنعتها وسائل الإعلان والاتصال الجماهيري.

ب) أن يلجأ النظام إلى فرض القهر والتسلط من ناحية وفرض التكييف على الفرد من ناحية أخرى.

جـ) جذب البروليتاريا في المجتمع الرأسمالي للمشاركة والتفاعل حسب قواعد اللعبة الرأسمالية فممارسة المواطنين لحق الاقتراع في الديمقراطيات الحديثة والاشتراك في التظاهرات والاحتجاجات يظهر وجود حريات لا وجود لها"[32].

لذلك فقد كرس "هابرماز" كتابه "الميدان العام" لدراسة الدعاية والإعلان كوسيلة فعالة ومباشرة من وسائل هيمنة الدولة ومؤسساتها البيروقراطية بحيث تسهم في تكوين رأي عام يتماشى مع أهدافها على الدوام ولا تسمح لهذا الرأي أن يتعارض مع برنامجها ومشروعها العام في السيطرة[33]. ويمكن اعتبار ذلك استكمالا لجهود "لويس التوسير" في "الأيديولوجيا وأجهزة الدولة الأيديولوجية" وأفكار "ماركيوز" في كتابه الإنسان ذو البعد الواحد و "وهوركمايمر" و "أدورنو" حول صناعة الثقافة. حيث يركزان من منظور نقدي على الدعاية كإحدى أدوات الاستلاب.

ويرى "هابرماز" "إن الثقافة منذ القرن التاسع عشر دخلت مرحلة التصنيع وغدت سلعة ليس في شكلها الظاهري فحسب بل في محتواها أيضا فظهرت عملية الإنتاج الجماهيري للكتب مثل كتب الجيب رخيصة الثمن التي تهم المثقفين الذي يهدفون من اقتنائها إلى الحصول على المعرفة مثل الطلبة والكتاب. في حين بقيت الطبعات الأنيقة غالية الثمن مقتصرة على جمهورها من الطبقات الغنية التي لا تقرأ النص بل تقتني الكتاب لأجل الديكور أو لمواكبة الموضة العامة"[34] وبذلك تتحول الثقافة من عنصر تمرد على العلاقات القائمة إلى آلية من آليات تحسين سمعة النظام القائم.

ويتشابه موقف هابرماز من النظرية الماركسية مع موقف مفكر آخر يعتبر من أهم المفكرين النقديين والأب الروحي لحركات اليسار الجديد هو "س. رايت ميلز" الذي رفض الاغتراب باعتباره نتيجة لأسباب اقتصادية كما كان يقول ماركس ولكنه يرى أن السبب الرئيسي في الاغتراب يرجع إلى العوامل الروحية والسيكولوجية والذي ينتج عن التحكم الآلي في أساليب الترفيه وسلب القدرة على التفكير (..) وهو ميكانزمات توجد في المجتمع الرأسمالي وما بعد الرأسمالي[35]، وإذا ما أخذنا موقف "رايت ميلز" من الماركسية ككل فأنه قد صاغه في خمس عشرة قضية رئيسية. وردوده على هذه القضايا بالشكل التالي: رفض العلاقة الجدلية بين البناء الفوقي والبناء التحتي كما رفض اعتبار ملكية وسائل الإنتاج كأساس لتحديد الانتماء الطبقي واعتبر أن هناك عوامل أخرى أهمها الدخل كمحدد للانتماء الطبقي ورفض مقولة أن الصراع الطبقي ظاهرة ملازمة للمجتمع الرأسمالي وبالتالي لم يوافق على اعتبار الطبقة العاملة طليعة لقوى الثورة، وشدد على أهمية النضال المطلبي للنقابات والأحزاب أما علاقات الاستغلال القائمة بين الطبقات في المجتمع الرأسمالي فقد أهمل جانبها الاجتماعي والاقتصادي ليركز بدلا من ذلك على الاستغلال كمفهوم أخلاقي، وقد عارض فكرة تقسيم المجتمع الرأسمالي إلى طبقتين رئيسيتين وأشار إلى أنه مجتمع متعدد الطبقات، وفيما يتعلق بمفهوم الاغتراب فهو يرى أنه أسباب ليست مادية ذلك أن الطبقات في المجتمعات الرأسمالية بما في ذلك الطبقة العاملة لم تعان من البؤس المادي نتيجة جهود دولة الرفاه من جانب والنضال المطلبي للنقابات من جانب آخر. لذلك فإنه

يرى أن أسباب الاغتراب هي أسباب ذات طابع نفسي، ورفض المفهوم الماركسي للوعي الاجتماعي الذي يرى ماركس بانه يتشكل نتيجة تنامي وعي الطبقة العاملة بأوضاعها الاقتصادية والسياسية وتحولها من طبقة في ذاتها إلى طبقة لذاتها، واعتبر ميلز أن المجتمع الرأسمالي وبشكل خاص في الولايات المتحدة الأمريكية لا يمكن أن تتطور فيه الطبقة العاملة من طبقة في ذاتها إلى طبقة لذاتها نتيجة لأنه لا يوجد بؤس اقتصادي ولا قهر سياسي كما أن ميلز أنكر إمكانية تزامن الشروط الموضوعية مع الشروط الذاتية وهو التزامن الذي اعتبره ماركس شرط لقيام الثورة. ورفض ميلز اعتبار الدولة انعكاسا للعلاقة بين الطبقتين الرئيسيتين في المجتمع وأدخل عوامل أخرى منها القوة العسكرية والأفكار السياسية، وفيما اعتبر ماركس أن أزمات المجتمع الرأسمالي يمكن أن تتحول من الكم إلى الكيف بحيث تمهد الأزمات للتغيير الثوري للعلاقات الاجتماعية فإن ميلز يرى أن النظام الرأسمالي يستحدث آليات كفيلة بالتغلب على هذه الأزمات[36]. وبذلك يمكن القول أن ميلز قبل الماركسية كنظرية عالجت المجتمع في ظل الظروف التاريخية التي عاشها ماركس ولكنه رفضها كنموذج Model صالح لتفسير التطورات الاجتماعية في كل المجتمعات وفي كل الحقب التاريخية[37].

والحقيقة أن "ميلز" كما هو الحال بالنسبة لمعظم رواد الاتجاه النقدي حاوروا ماركس و لم يحاوروا الماركسية لأن الماركسية ليست فقط أعمال ماركس بل أيضا أعمال الماركسيين الذين أتوا بعده والذين أدخلوا تعديلات كثيرة وهامة على أفكار ماركس، ومع ذلك فإنهم حاوروا نصف ماركسية ماركس المتمثل بالمادية التاريخية و لم يحاوروا النصف الآخر المتمثل بالمادية الجدلية والتي من أهم دعاماتها قوانين الجدل الرئيسية الثلاثة.

أما موقف المفكرين النقديين من النظرية الوظيفية فقد كان أكثر اكتمالا من نقدهم للنظرية الماركسية فـ "جون ركس John Rex" مثلا يرى أن النظرية الوظيفية تعاني من قصور منهجي ونظري فاضح وأن أهمية النظرية الوظيفية تأتي من خلال أهمية القضايا التي

أثارها فقط، فكتب قائلا: "واستنادا إلى أهمية تلك القضايا أعتبرت النـــزعة الوظيفيـــة مساهمة هامة في النظرية الاجتماعية. ومع ذلك فلنا أن نتساءل عن مدى مساهمة الترعـــة الوظيفية في تحقيق مطالب النظرية الاجتماعية، هذه المطالب التي وضعتها الترعة الوظيفيـــة ذاتها، وهل هي مساهمة مظهرية أم حقيقية"[38].

أما "رايت ميلز" فقد خصص فصلا في كتابة "الخيال السوسيولوجي" بعنوان النظرية المتضخمة والتي يقصد بها النظرية الوظيفية وأعتبر أن أهم عمل يمكن أعتباره ممثلا للنظريـــة المتضخمة هو كتاب بارسونز "النسق الاجتماعي"[39] ويصف النظريـــة المتضخمـــة بأنهـــا "مستوى من التفكير هو غاية في العمومية والتجريد بحيث لا يستطيع ممارســـوه بصـــورة منطقة النـــزول إلى مستوى الملاحظة فهم كأصحاب نظرية متضخمة لا ينـــزلون أبدا من مستوى العموميات البالغة والتجريد إلى مستوى المشاكل في سياقاتها التاريخيـــة والبنائيـــة ويفسر هذا الافتقار للحس القوي بالمشاكل الحقيقية عدم الواقعية الملحوظة بدرجة كبيرة في كتاباتهم، وإحدى السمات الناجمة عن هذا هي ما يبـــدو مـــن تعســـف ومحـــاولات لا تنتهي لإتقان التمييزات التي لا تؤدي إلى توسيع فهمنا وإدراكنا ولا تجعل تجربتنـــا أكـــثر معقولية"[40] (*).

لقد اعتبر "رايت ميلز" النظرية الوظيفية-كنظرية متضخمة- وأساليبها البحثية المتمثلة بالأساليب الامبيريقية أو كما أسمها-الخبروية المجتزأه- "اداتي إعاقة علمية. ففي الأولى يقوم بدور الإعاقة تشيء المفاهيم النظرية، وفي الثانية يقوم بهـــذا الـــدور الكـــف والقصـــور المنهجي"[41]. واعتبر إن الإمبيريقية أسلوب منهجي نمطـــي غـــير مبـــدع في الدراســـات الاجتماعي وأن هذا الأسلوب اكتسب شهرة متعاظمة بغير وجه حق وأن من بين النتـــائج التي أسفر عنها استخدام هذا الأسلوب المنهجي "هي أن أنواع المشاكل المتبناة والطريقة التي تصاغ بها جد محدودة ومقيدة، أذن باختصار تبدو المنهجية وكأنها هي التي تحكم المشـــاكل وليس العكس"[42].

(*) يصف رايت ميلز كتاب بارسونز بأن 50% منه لغو كلام و 40% قضايا معروفة وشائعة في علم الاجتماع أما الـــــ 10% الباقية فإنها ذات فائدة ايديولوجية ممكنة بالرغممن أنها أقرب إلى الغموض.

لقد افترضت النظرية الوظيفية وحدة المنهج العلمي بمعنى أن مناهج العلوم الاجتماعية ومناهج العلوم الطبيعية تشترك في خصائص واحدة. الأمر الــــذي أدى إلى أن المنظريــــن الوظيفيين ساووا بين التفسيرات السوسيولوجية المتغيرة بحكم ارتباطها بالسياقات الثقافيـــة والتاريخية وبين القوانين العلمية الصالحة-نسبياً- في الزمان والمكان، وتلاءماً مـــع ذلــك افترضوا إمكانية إرساء دعائم اتجاه موضوعــــي Objective Attitude لتفسـير الظـواهـر الاجتماعية "وقد انبرى هؤلاء العلماء يدافعون عن الموضوعية والحياد القيمي ويروجـــون لمبداء "ماكس فيبر" الشهير "عن التحرر من القيم"[43] وهو ما رفضه علمـــاء الاجتمـــاع النقديون وبشكل خاص "الفن جولدنر" الذي اعتبر "أن مقولة علم الاجتماع المتحرر مـــن القيم تعد استمرارا أو صياغة معاصرة للصراع الذي كان سائدا في العصور الوسطى بـــين الإيمان Faith والعقل Reason والذي أسفر عن إيجاد شكل مـــن أشكال الفصل بين الإثنـين من أجل حفظ السلام بينهما"[44]. وقد تبنى كثير من علماء الاجتماع هذه المقولة بشـــكل دوجماطيقي دونما اختبـــار جاد لها الأمر الذي شكل أساسا لتراكم معرفة إيمانيـــة غـــير نقـــدية للمجتمع وساعد على سيادة الأفكار الأخلاقية Moral التي احتمى خلفها كثير مـــن علماء الاجتماع المغتربين Alienated Sociologists الذين يشعرون بالغربـــة والعزلـــة عـــن مجتمعاتهم والذين يشعرون بالعجز من التقديم لثقافات مجتمعاتهم وبالتـــالي الحكـــم علـــى الثقافات الأخـــرى من خلال الأحكام الأخلاقية التي يؤمنون بها. أمـــا علـــى المستوى الشخصي فإن هذه المقولة تخدم أولئك العلماء الذين يعيشون بعلم الاجتماع لا من أجلـه. إذ تضمن لهم بقاء السوق مفتوحا لعرض مهاراتهم التكنيكية[45].

"ويكشف موقف "جولدنر" هنا عن رؤية نقدية لأسلوب علماء الاجتماع في التفكير وتنفيذ البحوث فهم إما منظرون خياليون مغتربون عن المجتمع وأما منفذوا بحوث لحســاب الأخرين نظير مقابل مادي، وهم بذلك لا يلتزمون بأية قيمة علمية حـــتى بالقيمـــة الـــتي يتذرعون بها وأعني التحرر من القيم كلها والتي تذهب إلى القول: أما النشـــر أو المـــوت Publishor Preshe"[46].

وإذا كان ذلك هو موقف المفكرين النقديين من الاتجاهين الرئيسيين في النظرية الاجتماعية. فما هو موقفهم من الاشتراكية والرأسمالية كنظامين اجتماعيين مهيمنين في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية وحتى منتصف الثمانينيات؟

موقف المدرسة النقدية من الاشتراكية والرأسمالية

يعتبر هربرت ماركيوز من أكثر مفكري المدرسة النقدية وضوحا في طرحه لرؤية متكاملة حول موقفه من الاشتراكية والرأسمالية كنظامين اجتماعيين وبشكل خاص يطبقان في الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية. ويرى ماركيوز أن هناك عناصر مشتركة لهذين النظامين ولذلك فإنه يشير إليهما معا بمصطلح المجتمع الصناعي فيقول: "إن ثمة ظاهرتين بارزتين في قطاعات المجتمع الصناعي الأكثر تقدما، فمن جهة أولى تعبر العقلانية عن نفسها في الميل إلى الكمال التقني، ومن الجهة الثانية تبذل كل الجهود الممكنة لحبس هذا الميل في المؤسسات القائمة ذلكم هو التناقض الملازم لهذه الحضارة-الصفة اللاعقلانية لعقلانيتها- وهذه الصفة ملاصقة لكل منجزاتها. والحق أن المجتمع الصناعي المتمكن من العلم والتكنولوجيا قد نظم نفسه بصورة يسيطر معها دوما وبقدر أكبر من الفعالية على الإنسان والطبيعة"[47] ويضيف أن المنتجات تكيف الناس مذهبيا وتصطنع وعيا زائفا عديم الإحساس بما فيه من زيف، وعندما تصبح هذه المنتجات المفيدة في متناول عدد أكبر من الأفراد المنتمين إلى طبقات اجتماعية أكثر تعددا تخلق قيم الإعلان والدعاية طرزا للحياة. وهو بلا أدنى شك طراز للحياة أفضل من السابق ولكنه من هنا بالذات يكتسب مناعة ضد كل تغيير نوعي. وهكذا يتكون الفكر والسلوك الأحادي البعد"[48].

أن هذه المماثلة بين التجربة الأمريكية والتجربة السوفيتية تبدو أكثر وضوحا في كتاب ماركيوز "الماركسية السوفيتية" إذ نجد فيه ميلا إلى المقارنة الدائمة بين التجربة الأمريكية والتجربة السوفيتية وإصرارا على وجود أوجه شبه قويه بين النظامين على الرغم مما بينهما من تضاد ظاهري، ومحاولة ملحة لإثبات أن "الجنة السوفيتية" ليست على

الإطلاق أفضل من "الجحيم الأمريكي الرأسمالي" مضافا إليها أن الاستبداد في حالة هذا المجتمع الأخير يمارس في إطار ظاهري مخفف من الحريات اللبرالية ومن خلال إغراق الطبقة الثورية المحتملة في النعم الاستهلاكية التي يفتقر إليها في معظم الأحيان من يعيشون في ظل النظام السوفيتي"[49] (*). إن رفض ماركيوز وغيره من النقديين لا ينصب على الاشتراكية أو الرأسمالية بل "يرفضون الصناعة لذلك فقد رفضوا الرأسمالية الصناعية والاشتراكية الصناعية لأن التكنولوجيا تسلب الإنسان إنسانيته ويصبح الإنسان عبدا للتكنولوجيا بدلا من أن يكون سيدا لها"[50].

ومن الجدير بالملاحظة أن ماركيوز في نقده للتجربة السوفيتية يحرص على أن يؤكد أنه لا ينتقد التجربة الاشتراكية في ذاتها لأنه يعتقد أنه اشتراكي على طريقته الخاصة. بل أنه لا يوجه هجومه إلى الماركسية وإنما يهاجم شكلا من أشكالها هو الماركسية السوفيتية على التخصيص"[51] وينتقد في التطبيق السوفيتي للماركسية البيروقراطية التي سيطرت على الحزب وجهاز الدولة، والتي تخلق نوعا من التسيس لكل ما هو غير مادي ويدخل ضمن ذلك القيم. ويبدو أن ملاحظاته كانت صائبة إلى حد بعيد فقد كان تبقرط الحزب الشيوعي السوفيتي وجهاز الدولة معول الهدم الذي أدى إلى سقوط التجربة السوفيتية وفشلها. هذا التبقرط الذي بدأ مع الفترة الستالينية والذي أدى إلى انحراف التجربة السوفيتية وفشلها. هذا التبقرط الذي بدأ مع الفترة الستالينية والذي أدى إلى أنحراف التجربة السوفيتية عن المثل الأعلى الاشتراكي "فالنظرية الماركسية في ظل النظام السوفيتي قد كفت في رأى ماركيوز عن أن تمثل أداة الوعي والممارسة الثوريتين وتحولت إلى جزء من البنية الفوقية لنظام يقوم على القهر والاستعباد والسيطرة(..) وفقد الجدل في ظل هذا النظام طابعه الثوري وتحول إلى منطق شكلي هدفه تبرير الواقع القائم[52].

(*) يعلق الدكتور فؤاد زكريا على ذلك بأنه ينبغي أن يلاحظ القارئ أن ماركيوز قام بدراساته عن الاتحاد السوفيتي في نهاية الفترة الستالينة وفي الفترة التالية لها مباشرة، أي في الأعوام 52-56 وهذا التحديد الزمني يفيد في القاء الضوء على كثير من تحليلاته(..) إضافة إلى أن هذه الدراسة أجريت لصالح مراكز الأبحاث المتخصصة في دراسات أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي بوجه خاص في جامعتي كولمبيا وهارفارد الأمريكيتين. وفي معظم الأحيان تكون لمراكز الأبحاث هذه صلات دقيقة بدوائر وزارة الخارجية وربما المخابرات وأن عمله في جامعة هارفارد كان امتدادا لهذا العمل (المرجع السابق، ص6، وتؤكد بعض الدراسات الأخرى هذه الحقيقة، أنظر مثلا علي ليلة، ضمن المراجع، ص169.

أما المجتمع الرأسمالي فإن ماركيوز يصفه بأنه مجتمع التعبئة الشاملة، والذي يتسم بـأن "عناصر الخلخلة والاضطراب التقليدية فيه قد قضى عليها أو عزلت، والعناصر المهددة تمت السيطرة عليها والسمات الرئيسية لهذا المجتمع معروفة: فمصالح الرأسمـال الكبـير تركـز الاقتصاد القومي، والحكومة تلعب دور الحفز والدعم وأحيانا دور قـوة رقابـة، وهـذا الاقتصاد وشيج الارتباط بنظام عالمي من التحالفات العسكرية والاتفاقات النقدية والمعونـة التقنية وخطط التنمية"[53] وهذا هو ما يوحد القوى السياسية والاجتماعية ويعبئها تعبئـة شاملة باتجاه الصراع مع عدو واحد مشترك هو خطر الشيوعية الأممية.

إن هربرت ماركيوز وهو اليهودي الذي عانى كثيرا من النازية والذي يقف أمـام غرف الغاز يذهب إلى القول في إدانته للمجتمع الرأسمالي الحديث "لم يكن عالم معسكرات الاعتقال مجتمعا رهيبا بصورة شاذة. فما رأيناه هناك كان صورة وإلى حد ما مثلا للمجتمع الجهنمي الذي نغوص فيه كل يوم"[54].

من السوسيولوجيا النقدية إلى سوسيولوجيا الحركات الاجتماعية

هناك من يرى أن مفكري المدرسة النقدية–وبشكل خاص هربرت ماركيوز– قدموا خدمات جليلة لنمط الإنتاج الرأسمالي وذلك من خلال تأكيدهم بأن النظـام الرأسمـالي نظـام تتحق فيه حالة الوفرة، وأن الأفراد في ظل هذا النظام ينعمـون بـالحصول علـى الحاجات الأساسية دون عناء بالإضافة إلى تنظيرهم لمسألة استحالة الثورة على هذا النظـام وأن أقصى ما يمكن فعله هو إحداث تغيرات أخلاقية وقيمية على النظام، كما أن نقدهـم أظهر النظام الرأسمالي بمظهر النظام المتسامح الذي يقبل وجود الرؤى المتباينة داخله[55].

وبالمقابل فإن هناك وجهة نظر أخرى ترى أن التيار النقـدي في علـم الاجتمـاع وبشكل خاص مفكرو مدرسة فرانكفورت، الذين تميزوا بانحدارهم من أصول برجوازيـة– الشريحة العليا للطبقة– المتوسطة الأمر الذي لا يجعلهم متعاطفين مع الأيديولوجيا النقديـة

للماركسية الكلاسيكية التي تدافع عن أوضاع البروليتاريا. إضافة إلى اعتبارهم عنصرا مكونا في بناء المجتمع البرجوازي قد ينتقدون بعض جوانب الخطأ في بناء المجتمع البرجوازي غير أن ذلك من أجل مزيد من الاكتمال وليس سعيا للقضاء عليه[56].

وجهتا النظر هاتان رغم ما يبدو من تعارضهما كلتاهما صحيحة. كل واحدة منهما تتضمن جزء من الحقيقة، فمفكرو مدرسة فرانكفورت يريدون رأسمالية اشتراكية أو اشتراكية رأسمالية، فقد مثلت أراؤهم نوعا من التوفيق بين النظرية الماركسية والنظرية الوظيفية. لعل ذلك هو ما أدى إلى أن وصف بعض علماء الاجتماع عقد السبعينيات الذي ازدهرت فيه الاتجاهات السوسيولوجية النقدية بأنه "فترة ابتعاد النظرية السوسيولوجية عن اتخاذ شكل فكري متماسك"[57]. بمعنى أن الاتجاه النقدي لم يستطع خلق نظرية اجتماعية أصلية وكبرى كما كان الحال بالنسبة لرواد علم الاجتماع الأوائل، بحيث تحتل مكانها إلى جانب الماركسية والوظيفية أو تمثل بديلا لهاتين النظريتين، ولازال بإمكاننا أن نميز داخل التيار النقدي نفسه بين ماركسيين أمثال: لوكاش، بوتومور، جون ماركس، جنبرج، فيتفوجل، فرانز بوركينو Franz Borkenau وبين وظيفتين أمثال: جولدنر ورايت ميلز، وهم جميعا سواء أولئك المتاثرون بالوظيفية أو المتأثرون بالماركسية وقفوا عند مستوى النقد السلبي فمنهم من رفض الوظيفية و لم يقبل الماركسية ومنهم من رفض الماركسية و لم يقبل الوظيفية. ولكنهم عموما لم يستطيعوا تشييد بديل نظري متكامل. على الرغم من طرح بعضهم لمشاريع بدائل نظرية كما فعل "هبرماس" حينما قدم ما أسماه "العلم الاجتماعي الجدلي" أو "رايت ميلز" في "الخيال السوسيولوجي" أو "جولدنر" في التأمل السوسيولوجي" ولكنها مع ذلك بدائل غير مكتملة وتحتاج إلى جهود كبيرة لتطويرها.

إن هذا التأرجح النظري والمنهجي شكل عائقا أمام الباحثين السوسيولوجيين الأمر الذي لم يمكنهم من تقييم أعمال المدرسة النقدية بشكل متكامل وصحيح. وجعل البعض يقيمها على أساس "أنها تصحيح للوظيفية الكلاسيكية أكثر مما هي ثورة علمية فعلية"[58] بل وشكل عائقا أمام تطور أفكار المدرسة النقدية ذاتها ففي نهاية الستينيات حينما تحول نضال

حركات اليسار الجديد إلى نضال عنيف يستهدف تغير النظام تغييرا جذريا شاملا فإن مفكري النقد الاجتماعي لم يستطيعوا التطور بشكل مواز بل تخلفوا عنه وظلوا يراوحون عند حدود إصلاح النظام وتحسينه فقط، ففي الوقت الذي قدم اليساريون الجدد نقدا إيجابيا فإن النقاد الاجتماعيين ظلوا عند مستوى النقد السلبي.

ولما كان من أهم السمات التي اتسمت بها المدرسة النقدية وقوفها عند حدود النقد فقط الأمر الذي يمكن معه وصفها بمعنى من المعاني أنها تمثل تيارا إصلاحيا. أو تيارا محافظا جديدا New Conservatism يقبل بالإطار العام للنظام الرأسمالي ولكنه يرى أن هناك بعض الاختلالات التي أصابت النظام الرأسمالي هو قمة التطور الإنساني الذي يمكن للجنس البشري أن يبلغه إنه "نهاية التاريخ" في ضوء ذلك ما الفارق إذا بين الاتجاه المحافظ والاتجاه النقدي في علم الاجتماع؟ وإذا كانت الإجابة بأن الثاني يمثل امتدادا-مع بعض التعديل للأول وهناك من يقبل مثل هذا الرأي[59] (*) فهل نحن بحاجة إلى تجاوز النقد كحركة اجتماعية واتجاه فكري عن طريق إبداع أطر نظرية أكثر كفاءة لفهم الواقع وتفسيره.

هناك من يحدد شروطا ثلاثة لابد من توافرها من أجل نشأة نظرية وحركة نقدية فاعلة هذه الشروط هي:

أولا : إظهار عجز النظام الاجتماعي القائم عن حل تناقضاته الداخلية وفشله في تحقيق متطلبات الجماهير.

ثانيا: وجود القوة أو القوى الاجتماعية القادرة على التغيير الثوري للبناء القائم.

ثالثا: وجود تصور لشكل البنية الاجتماعية البديلة[60].

وإذا كان عقد الستينيات قد توفر له الشرطان الأول والثاني بمعنى إنكشاف أزمة المجتمع الرأسمالي وظهور تناقضاته الداخلية والخارجية، وتحرك قوى اجتماعية رافضة للنظام متمثلة بالعمال والفلاحين والشباب والطلاب. فإن علماء الاجتماع النقديين لم يستطيعوا إبداع نظرية جديدة تسعى إلى خلق مجتمع جديد. مثل ذلك نقطة تحول هامة في مسار

(*) ونجد نقدا مشابها لأعمال جولدنر وبالذات لمفهومه عن علم الاجتماع التأملي في بوتومور، "علم الاجتماع: منظور اجتماعي نقدي"، انظر المراجع، ص ص 56-58.

تطور المدرسة النقدية ذاتياً مارسه عدد من مفكريها مؤكدين على ضرورة ارتباط حركة الفكر بحركة الجماهير وبالتالي إحياء الاهتمام بدراسة سوسيولوجيا الحركات الاجتماعية. وبالفعل إتجه عدد من المفكرين النقديين نحو الإهتمام بدراسة الحركات الاجتماعية منهم على سبل المثال: "هابرماز" و "توم بوتومور" و"هربرت ماركيوز" و "س. رايت ميلز" و "آلن تورين". وغيرهم. ومع ذلك فقد ظل عدد منهم متأثرين بمواقفهم السابقة التي تميل إلى الوسطية فـ"هابرماز" في تحليله للتمردات الطلابية في الستينيات يرى أن المشاركين فيها "هم أساساً أبناء البرجوازية-وليس أبناء الطبقة الوسطى الإدارية- الذين لا يمثلون الطبقة العاملة ولا الزنوج وليسوا من أبناء المجتمعات المتخلفة ولكنهم يمارسون أنشطتهم من أجل أنفسهم وبأسمائهم. وإذا كانت ملاحظاتي صحيحة-الكلام لومابرماز- فإن الطلاب لم ينظروا إلى أنفسهم باعتبارهم مثقفين منسلخين عن طبقتهم الاجتماعية و لم يعتبروا أنفسهم معارضين للاضطهاد والإبعاد(..) لذلك فإننا أمام أول تمرد برجوازي ضد مبادئ المجتمع البرجوازي"[61].

إن الفكرة الرئيسية التي تقوم بها تحليلات تورين هي أنه في ظل المجتمعات الرأسمالية الحديثة "مجتمعات ما بعد الصناعة" فإن التقدم العلمي والتكنولوجي سوف يؤدي بشكل متزايد إلى أن تعتمد العملية الإنتاجية على الآلات بدلاً من اعتمادها على البشر ويترتب على ذلك تغيير كبير في العلاقات الإنتاجية والاجتماعية وتتناقص أهمية العمل العضلي وتنعقد العمليات الإدارية والبيرقراطية مما ينتج عنه ظهور أشكال جديدة من الصراع تتمثل في الحركات الاجتماعية الجديدة والحركات الطلابية[62]. ومن ثم فإن على علم الاجتماع أن يتحول باتجاه دراسة الحركات الاجتماعية.

الهوامش والمراجع

(1) أحمد زايد، علم الاجتماع: بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية"، دار المعارف، القـــاهرة، ط2، 1984م، ص ص 219–220.

(2) يرجع البعض ظهور مصطلح النظرية النقدية إلى عام 1937م عندما نشر هوركهيمر دراسة بعنوان "النظرية التقليديـة والنظرية النقدية" ونشر ماركيوز مقالة "الفلسفة والنظرية المنقدية"، وقد أشار هوركهيمر إلى أن النظرية النقديـــة أقرب إلى النقد الديالكتيكي للاقتصاد السياسي منها إلى النقد المثالي للعقل الخالص عند كانط.

(3)سمير أيوب، تأثيرات أيديولوجيا في علم الاجتماع"، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1983م، ص ص 226–227.

(4) انظر س رايت ميلز، "الخيال العلمي الاجتماعي"، ترجمة عبدالباسط عبدالمعطي وعادل مختار الهواري، دار المعرفـــة الجامعية، الإسكندرية، 1987م، الفصل الأول.

(5) انظر بوتومور، "علم الاجتماع السياسي"، ترجمة وميض نظمي، دار الطليعـــة، بـــيروت، الطبعـــة الأولى 1986م، ص111.

(6) انظر المرجع السابق، ص 122.

(7) فؤاد زكريا، هربرت ماركيوز، سلسلة الفكر المعاصر، دار الفكر المعاصر، القاهرة، أغسطس 1978م، ص114.

(8) Alvin W. Gouldner, Anti-Minotaur: The Myth Avalue –Free Socioloy" , in Jack D. Doglas (editor) "The Relevance of Soucilogy, Meredith Corporation, New York, 1970. P73.

(9) Op cit, p74.

(10) أحمد زايد، "الهرمنيوطيقا وإشكاليات التأويل والفهم في العلوم الاجتماعية"، حولية كلية الإنســـانيات والعلـــوم الاجتماعية، جامعة قطر، العدد الرابع عشر، 1991، ص 239.

(11) توم بوتومور، "علم الاجتماع: منظور اجتماعي نقدي"، ترجمة عادل الهواري، دار المعرفة الجامعية، الإســكندرية، 1985م، ص 59.

(12) المرجع السابق، ص ص 44–45.

(13) رايت ميلز، "الخيال العلمي الاجتماعي"، مرجع سابق، ص 60.

(14) المرجع السابق، ص 61.

(15) المرجع السابق، ص 57.

(16) سمير أيوب، مرجع سابق، ص 236.

(17) علاء طاهر، "مدرسة فرانكفورت من هوركهايمر إلىهابرماز"، منشورات مركز الإنماء القومي، بـــيروت، د.ت، ص 73.

(18) انظر أحمد زايد، علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية، مرجع سابق، ص340.

(19) علي ليلة، "موقع مدرسة فرانكفورت على خريطة النقد الاجتماعي: مكانتها واسهامها"، سلسلة كتاب قضايـــا فكرية، العددان التاسع والعاشر بعنوان والماركسية والبريسترويكا ومســتقبل الاشــتراكي"، القـــاهرة، نوفمـــبر، 1990،ص 158.

(20) المرجع السابق، ص 172.

(21) علاء طاهر، مرجع سابق، ص54.

(22) المرجع السابق، ص 95.

(23) المرجع السابق، ص90.

(24) انظر توم بوتومور، "علم الاجتماع: منظور احتماعي نقدي"، مرجع سابق، ص ص 24-25.

(25) انظر أحمد زايد، "علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية"، مرجع سابق، ص 293.

(26) انظر بوتومور، "علم الاجتماع: منظور احتماعي نقدي"، مرجع سابق، ص93.

(27) السيد الحسيني، "نحو نظرية اجتماعية نقدية"، دار النهضة العربية، بيروت، 1985م، ص110.

(28) أحمد زايد، "علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية"، مرجع سابق، ص229.

(29) انظر جاك وودويس، مرجع سابق، ص ص 283-310.

(30) هربرت ماركيوز، "الإنسان ذو البعد الواحد" ترجمة جورج طرابيشي، دار الآداب، بيروت، الطبعة الثالثة، 1988م، ص29.

(31) See Alvin. W. Gouldner, "The Tow Marxisms" A continuum Book, the Seabury press, New York, 1980,p. 15-35.

(32) نقلا عن علي ليلة، مرجع سابق، ص 175.

(33) علاء طاهر، مرجع سابق، ص98.

(34) المرجع السابق، ص 104.

(35) أحمد زايد، علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية، مرجع سابق، ص 263.

(36) See C. W. Mills, "The Marxists, Penguin Books, frist published, 1962, pp. 15-21.

اعتمدنا في عرض موقف ماركيوز من الماركسية على، أحمد زايد، مرجع سابق، ص ص 260-267.

(37) انظر، المرجع السابق، ص ص 266-267.

انظر، س رايت ميلز، مرجع سابق، ص 47.

(38)جون ركس، "مشكلات أساسية في النظرية الاجتماعية"، ترجمة محمد الجوهري وآخرون، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ت، ص 127.

(39) انظر، س رايت ميلز، مرجع سابق، ص 47.

(40) المرجع السابق، ص 60.

(41) المرجع السابق، ص 91.

(42) المرجع السابق، ص 101.

(43) أحمد زايد، علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية، مرجع سابق، ص 238.

(44) Alvin W. Gouldner, "Anti-Minotaur: The Myth of a Value-free Sociology' in Jack D. Douglas (ed) The Relevance of Sociology, Meredith corporation, New York, 1970, p.79.

(45) See op. cit pp. 66-74.

(46) أحمد زايد، المرجع السابق، ص 296.

(47) هربت ماركيوز، مرجع سابق، ص 53.

(48) المرجع السابق، ص 48.

(49) فؤاد زكريا، مرجع سابق، ص 56.

(50) Rolland Ray Lytz, "The "New Left" of Restoration Germany" Jornal of the history of ideas, April-June, 1970, volume xxxl, No. (2), p.236.

(51) المرجع السابق، ص ص 55-60.

(51) حسن محمد حسن، "النظرية النقدية عند هربرت ماركيوز"، دار التنوير، بيروت، ط 1، 1993م، ص186.

(52) هربرت ماركيوز، مرجع سابق، ص 55.

(53) علي ليلة، "النظرية الاجتماعية المعاصرة: دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع"، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، 1981م، ص 670.

(54) انظر، فؤاد زكريا، مرجع سابق، ص ص 112-125.

(55) علي ليلة، "موقع مدرسة فرانكفورت على خريطة النقد الاجتماعي"، مرجع سابق، ص 166.

(56) السيد الحسيني، "نحو نظرية اجتماعية نقدية"، دار النهضة العربية، بيروت، 1985م، ص 203.

(57) انظر برتران بادي وبيار بيرنبوم، "سوسيولوجيا الدولة"، ترجمة جوزيف عبدالله وجورج أبي صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، بدون تاريخ، ص 28.

(58) وفي هذه السياق نجد من يصف "ألفن جولدندر" مثلا وهو واحد من أعلام الاتجاه النقدي بأنه "بداء وظيفيا نـاقدا وانتهى مصلحا اجتماعيا مثاليا.

-انظر، أحمد مجدي حجازي، علم اجتماع الأزمة: رؤية نقدية للنظرية السوسيولوجية، دار الثقافة العربية، القاهرة، 1992، ص 133. انظر المرجع السابق، ص 89، ص ص 145-146.

(59) Jurgen Hbermas, "Toward A Rational Rational Society: Students Protest, science and Politics", Beacon Press, Boston, 1970, p28.

(60) احمد زايد، مرجع سابق، ص340.

(61) انظر آلن تورين وآخرون، الحركة العمالية، ترجمة عيسى عصفور، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، 1991م، ص 20.

التعريف بمخطوطة يمنية نادرة

من تراث المُطرَّفِيَّة الزيدية

"القسم الأول"

د. محمد الحاج الكمالي

المقدمة

مما لاشك فيه أن الدراسات حول المخطوطات اليمنية لا تزال بكراً على الرغم من بعض الكتابات القليلة حول هذا الموضوع بالمقارنة إلى الدراسات التي ظهرت في بعض المناطق العربية كمصر وسوريا والعراق وغيرها من البلدان العربية أو الإسلامية.

لذلك كان من الواجب على كل باحث يمني أن يوجه أنظاره حول هذا التراث المطمور ويشارك في مجاله التخصصي لإظهار وعرض وبيان ما يمكن من هذا التراث القديم الجديد.

إن المخطوطات الموجودة في مكتباتنا العامة والخاصة ليوجد في ثناياها تفكير متقدم جداً في مجال العلوم المختلفة بصفة عامة ومجال الفلسفة بفروعها المختلفة بصفة خاصة، بدليل عرض أراء القدماء بمنهج نقدي وتحليلي يصل إلى نتائج تخالف ما هو متفق عليه عند القدماء كما فعل كثير من علماء الزيدية وعلماء السنة في هذا الجانب. وإنه ليوجد في مكتبتي الجامع الكبير بصنعاء الشرقية منها والغربية مئات المخطوطات في مجال الفلسفة وفروعها وبالأخص الفلسفة الإسلامية التي تثرى الفكر وتشحذ الهمم في مواصلة معرفة ما تحتويه تلك المخطوطات.

واليمن كما نعرف من خلال تاريخها استطاعت أن تحافظ على تراثها أو على أغلب تراثها رغم الاختراق الذي حصل طوال التاريخ لنهب هذا التراث ونقله إلى مكتبات العالم كما هو واضح الآن من خلال الأبحاث التي قدمت لنا نموذجاً من هذا الاختراق [1].

ولعل بداية انتشار تراثنا اليمني كان في بداية الستينات عندما أتت اللجنة المصرية المكونة من الهيئة العامة للكتاب ومعهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية وصوروا آلاف المخطوطات مما جعل الباحثين ينهلون منها ويفتشون ما فيها، وظهرت كثير من الرسائل العلمية، الماجستير، و الدكتوراه لباحثين غير يمنيين وهذا عمل جيد لإظهار التراث اليمني، و ها نحن نهيب بشبابنا المثقف والباحثين أن يشاركوا في تعريف هذا التراث للعالم كله، وأنا واحد من الباحثين اليمنيين أمتلك الدليل على أن من يتولى البحث في هذا التراث وهو غير يمني و لا يعرف تاريخ اليمن وحضارتها لا يمكن أن يقدم هذا التراث الحضاري كما هو مطلوب [2].

لذلك كان اختيار الباحث لموضوع هذا البحث (التعريف بمخطوطة يمنية نادرة من تراث المطرفية) وهي مشاركة من الباحث في هذا المجال حتى تكون دعوته مقبولة.

كتاب البرهان الرائق المخلص من ورط
المضايق تأليف الشيخ الأجل الأوحد
العالم الكامل الأفضل محيي الدين سليمان بن محمد بن
أحمد المحلي وفقه الله تعالى للصواب وأحله
في الدار الآخرة محل أوليائه وصلى الله على رسوله
سيدنا محمد النبي وآله وسلم تسليماً كثيراً

صفحة عنوان المخطوط

المخطوطة ومؤلفها

يتضح من خلال مشكلة البحث أن المخطوط الذي بين يدي الباحث نادر (وهو البرهان الرايق المخلص من ورط المضايق) لمؤلفه العلامة سليمان بن محمد ابن أحمد المحلي، أحد أكابر علماء المُطَرَّفِيَّة في اليمن. والحكم على هذا المخطوط بالندرة أنه مخطوط واحد فقط لا يوجد حتى الآن مخطوط غيره، لذلك يرى الباحث أن يصفه بالندرة، كذلك فإن مؤلف هذا المخطوط لم نجد له ترجمة في طبقات الزيدية الصغرى للعلامة يحيى بن الحسين مما يدل على أن المُطَرَّفِيَّة وتراثها فنيا معاً و لم يظهر لهما أي أثر. عدا هذه المخطوطة (موضوع الدراسة)، ومخطوط أخر هو تاريخ مسلم اللحجي و لم يوجد منه سوى الجزء الرابع وهو مخطوط مشوه وخطه رديء إلى أبعد الحدود ولا يستطيع القارئ أن يفهمه أو يصل إلى نتيجة محددة منه ومما يؤسف له أن كثيراً من الباحثين يتداولون مخطوط مسلم اللحجي لمحاولة معرفة شيء منه لكنهم لايستطيعون، ولدى الباحث نسخة منه.

أهمية البحث

سبق أن أشار الباحث أن هذا المخطوط هو نادر ولابد من معرفته، ولن يتسنى معرفته الا من خلال الأمور التالية :

1-أن يتولى المتخصصون في الفلسفة الإسلامية تحقيقه، ولكن للأسف لا توجد له نسخ أخرى أو مخطوطات أخرى مما يجعل تحقيقه مخالفاً لقواعد البحث العلمي ومنهجيته.

2-أن تتولى مؤسسة طباعته على ما هو عليه بسلبياته وإيجابياته و هو مخطوط قديم ليس فيه نقط و لا شكل كما أنه يتميز بحجمه الكبير وهذه عوائق أمام الباحث لا يستطيع أن يقحم نفسه فيها وهو يعلم مقدماً فشل التجربة.

3-وهي الحالة التي اختارها الباحث للتعريف بهذا المخطوط ليقدم للأمة والمجتمع وللمثقفين المتخصصين وغير المتخصصين نبذة عن مذهب كان يصول ويجول في

واقعنا اليمني وشارك في أحداث يجب على كل يمني أن يعرفها لأن كل حدث له إيجابياته وسلبياته وعلينا أن نستفيد من الإيجابيات ونتجنب السلبيات. ولذلك كان التعريف بهذا المخطوط من الأهمية بمكان.

الدراسات السابقة

لم يسبق أي دراسة لهذا المخطوط وللأسف الشديد أن الذين قدموا دراسات حول مذهب المُطَرَّفِيَّة بصفة عامة لم يتعرضوا لذكر هذا المخطوط لا من قريب ولا من بعيد.[3] عدا الأستاذ عبد الله الحبشي في كتابه مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن. حيث ذكر اسم المخطوط ومؤلفه في حدود السطرين فقط، وكذلك تطرق الباحث نفسه إلى دراسة المُطَرَّفِيَّة في مجلة اليمن الجديد في مقاليه العدد الثالث، السنة الثالثة نوفمبر 1977م والعدد الأول السنة السابعة 1978م بعنوان - المُطَرَّفِيَّة مذهب مجهول في اليمن بقلم عبد الله محمد الحبشي لم يتعرض لذكر هذا المخطوط. وكاتب هذه السطور أيضاً فقد تعرض لذكر المخطوطة في رسالته الدكتوراه ونقل منها بعض النصوص للإستدلال على مذهب المُطَرَّفِيَّة.

حدود البحث

سوف تقتصر هذه الدراسة على التعريف بمخطوط العلامة سليمان بن محمد المحلي الموسوم بالبرهان الرايق المخلص من ورط المضايق.

منهج البحث وأدواته

- لقد أعتمد الباحث على المنهج التحليلي والمقارن في بعض القضايا التي كانت محلاً لمناقشة المذهب، كما أنه استعان بالمنهج الوصفي لإبراز المذهب الفلسفي

عند مؤلف المخطوط. كما استعان الباحث بالمنهج التحليلي والمقارن لبعض القضايا التي تحتاج إلى المقارنة.

- ولقد استخدم الباحث الأدوات التالية :

1- المادة الموجودة في المخطوط موضوع البحث.
2- المصادر والمراجع التي تناولت الحديث عن مذهب المُطَرَّفِيَّة.
3- بعض الدراسات المتنوعة التي استعان بها الباحث حال المقارنة والتحليل.

موضوعات البحث

يتكون البحث من قسمين أساسيين إضافة إلى المقدمة والخاتمة.

القسم الأول : التعريف بالمخطوط ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول :التعريف بالمُطَرَّفِيَّة.

المبحث الثاني : التعريف بالمخطوط.

المبحث الثالث : دراسة المسائل الخلافية عن طريق المنهج التحليلي والوصفي والمقارن.

القسم الثاني : عقائد المطرفية وتشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول :التوحيد وما يلحقه من مسائل.

المبحث الثاني :العدل وما يلحقه من مسائل.

المبحث الثالث:التصديق وما يلحقه من مسائل.

وسيقتصر هذا البحث على القسم الأول.أما القسم الثاني الخاص بالعقائد فسيكون بحثا مستقلا وذلك لكبر حجمه.

المبحث الأول

التعريف بالمطرفية

في البداية يلزم على الباحث ان ينوه ان المصادر والمراجع التي تحدثت عن المطرفية شحيحة جدا، إذ لم نجد أي مؤرخ قد تناول حياة هذه الفرقة إلا شذرات قليلة ذكرت في طبقات الزيدية الصغرى ليحي بن الحسين بن القاسم وقد كان نقلها من تاريخ مسلم اللحجى الذي يعد المصدر الأساسي لتاريخ فرقة المطرفية الزيدية (6).

ومن المعلوم أن الزيدية هي إحدى فرق الشيعة الثلاث القديمة وهي : الجارودية، البترية أو الصالحية، الجريرية. ثم افترقت الجارودية إلى ثلاث فرق في المنطقة الشرقية والشمالية من اليمن، المطرفية، الحسينية، المخترعة. (7) فالمطرفية إذا من الفرق الزيدية المتأخرة. وليست فرقة من فرق أهل السنة كما زعم أحد الباحثين المحدثين. (8) بل هي إحدى الفرق الثلاث التي تفرعت عن الجارودية.

وليست المطرفية هي المخترعة أيضا كما زعم أحد الباحثين المحدثين الذين نصوا على أن المطرفية هي المخترعة (9).

وسميت هذه الفرقة بهذا الاسم نسبة إلي مطرف بن شهاب العبادي لشهرته، بينما المؤسس الحقيقي لهذه الفرقة هو علي بن محفوظ الذي كان أستاذا لمطرف بن شهاب ويسكن في بلدة ريدة وقد قيل عنه أنه أحد أكابر علماء الزيدية الذين ورثوا تراث الإمام الهادي إلى الحق يحي بن الحسين(10). كما ذكر صاحب الطبقات أن مطرفا أخذ عقيدته أيضا عن علي بن حرب لأن هذا الأخير كان عالما كبيرا ويقيم ببلدة ريدة أيضا وقد تميز أنه كان دائم العكوف على كتب الأئمة(11).

ويظهر من كتب الطبقات أن مطرف بن شهاب كان يتميز بمكانة علمية فائقة وأنه كان من العلماء الأفذاذ فقد سعى إلى صداقته الأمراء والسلاطين وكان يتميز بجدل لا نظير له يفحم الخصم بالحجة والدليل وقد روى المؤرخون أن علي بن محمد مؤسس الدولة الصليحية كان دائم السعي إليه، غير أن مطرفا كان يرفض مقابلته حتى أجبره ذات مرة فحمل إليه وهو مريض (يعني مطرف) فأخبره الصليحي بما يصدر منه من معارضة لحكمه وهم أن يقتله غير أن قوة جأش مطرف جعلت الصليحي يحجم عن ذلك واقتصر على مناظرته على أمل ان يخرجه من مذهبه ويقلل من حجمه[12]. وقد ذكر الإمام احمد بن سليمان أن المطرفية كانت هي الفرقة القوية من الزيدية وكانت موجودة ومنتشرة في أغلب المناطق الشمالية، وقد كانت الزيدية فرقة واحدة حتى دخل عليهم الشيطان بسحره فمرق منهم فرقتان المطرفية والحسينيه[13]. وقد ذكر ابن المرتضى أن المطرفية فارقوا الزيدية بمقالات في أصول الدين كفرهم كثير من الزيدية بها[14]. هذا التقسيم الثلاثي للجارودية يعد حديثا بالنسبة لتقسيم الزيدية قديما، ثم حدث أن انقسمت الزيدية المتأخرة إلى فرقتين :

إحداهما : فرقة الناصرية نسبة إلى الناصر الأطروش، لأنهم على مذهبه في الأصول والفروع جميعا.

وثانيهما : فرقة القاسمية نسبة إلى القاسم بن إبراهيم الرسي، لمتابعتهم إياه في الأصول والفروع[15].

أما بداية ظهور المطرفية فقد كان في زمن القاسم العياني، واستمر وجودهم حتى أول فترة الإمام المهدي علي بن محمد مؤسس الدولة الصليحية[16]. الا أن هذا القول يخالفه قول ابن أبي الرجال من أن الافتراق حدث في أواسط القرن الخامس الهجري[17]. وهذا الرأي ربما يكون أقرب إلى الصحة لأن القرن الخامس كان مشحونا بالخلافات والاضطرابات والفتن التي ربما يكون هذا الافتراق من أسبابها، وقد ذكر المهدي أحمد بن يحيى المرتضى ونقله عنه صاحب الطبقات أن الزيدية كانت فرقة واحدة فمرقت المطرفية وكان سبب خروجهم أن رجلا يسمى مطرف بن شهاب عمل هو وصاحبان معه ولم يذكر اسمهما في

بلـــدة سناع "هجرة " وبنوا فيها مسجدا ومطاهر وجعلوا قواعـــد دينهم وأساسه بـــأن قالوا: العالم يحيل ويستحيل[18]. وقد ذكر أصحاب الطبقات أن سبب افتراق الزيديـــة إلى مطرفية وحسينية ومخترعة ما حصل من المناظرة التي حدثت بين علي بن شهر الذي اصبح رئيسا لفرقة المخترعة، وبين علي بن محفوظ المؤسس الحقيقـــي للمطرفيـــة في موضـــوع "الاختراع" إذ قال ابن شهر : "إن الله يخترع الأعراض في الأجســـام، وأنهـــا لا تحصـــل بطبائعها"[19].

وسوف نتعرض لهذا الموضوع في المبحث الثالث عند التعريف بموضوعات المخطوط.

ويدعي المطرفية أن مذهبهم هو مذهب الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحســـين في الأصول والفروع ويرون أن علي بن محفوظ أخذ مذهبه من طريقين :

أحدهما : عن أبي الحسين أحمد بن موسى الطبري عن المرتضى ابن الهادي.

وثانيهما :عن إبراهيم بن بالغ الوزيري عن أبيه عن الهادي وأخذ مطرف مذهبـــه عن علي بن محفوظ[20].

وقد ذكر مؤرخ المطرفية الكبير مسلم اللحجي[20]. أن علي بن محفوظ وعلي بن شهر اختلفا حول الأعراض، فذهب علي بن محفوظ إلى القول بأن الأعراض في الأشياء ذاتيـــة وليست زائدة عليها وخالفه في هذا علي بن شهر قائلا : " إن الله يخـــترع الأعـــراض في الأجسام " فكان هذا أول انشقاق بينهما وتكونت الفرقتان المطرفية والمخترعة ويرى يحيى بن الحسين المؤرخ أن جمهور الزيدية كان على مذهب المطرفية[22]. وهذا محتاج إلى دليل لأنه قد سبق الحديث أن المطرفية كانت أقوى من الفرق الأخرى ولا يعني هـــذا أن جمـــهور الزيدية كانوا على مذهب المطرفية إذ لو كانوا كذلك لما أفناهم الإمام عبد الله بن حمـــزة وخرب ديارهم، وأيضا لو كان جمهور الزيدية مطرفية لما انحصرت المطرفيـــة في أمـــاكن محدودة كبلدة سناع ووقش وغيرهما من الأماكن المعينة.

ويرى الأستاذ عبد الله الحبشي أن المطرفية قد ابتليت في عقر دارها بمذاهب مختلفة كالزيدية والإسماعيلية والاباضية والحنابلة وكانت تجرى بينهم حوارات ومناظرات في مختلف الفنون وكان كل منهم لا يسلم للأخر تعصبا وقد كان مطرف يقوم بنفسه بمناظرات اتباع المذاهب الأخرى. وذات مرة ناظر شيخ المخترعة العلامة عبد الله بن القاسم البشاري، وقد ذكر مسلم اللحجي أن أول من نشر العداوة بين الفريقين كانت المخترعة وهم أكثر أصحاب الفرق مناظرة للمطرفية وذلك لقربهما في الأماكن واتحادهما في المذهب[23].

ولقد كان اختلاف المطرفية مع الإمامين أحمد بن سليمان وعبد الله بن حمزة بداية لنهاية المطرفية، حيث حاربوهم بالسيف والقلم وجندا كلما يمكن ان يجندوه لحزبهم فقد كان أحمد بن سليمان أكثر حربا من عبد الله بن حمزة من الجانب الفكري بينما عبد الله بن حمزة كان أكثر حربا من الأول من حيث القتل والإبادة وتشريد المطرفية من مناطقهم، حتى قال المؤرخون وأصحاب الطبقات إن الإمام عبد الله بن حمزة جمع جيشا وزحف على مناطق المطرفية في وقش وقتل خلقا كثيرا منهم وشرد الباقين و لم يبق إلا المساكين فهدم مساكنهم ونقل أحجارها وأخشابها إلى ظفار وبنى مسجدا كبيرا كتب على بابه بيتا من الشعر يخاطب فيه المسجد قال فيه

أقسمت قسمة حالف بر وفي — لا يدخلنك ما حييت مطرفي [24]

ويرى ابن الوزير في تاريخه لآل الوزير إن ابن المنصور سليمان سبى ستمائة امرأة مطرفية من صنعاء [25].

وقد ذكر عبد الله الحبشي أن هذه الحرب من الإمام عبد الله بن حمزة لم تكن نهاية المطرفية كما يذكر بعض المؤرخين، وإنما كانت نهايتهم عندما تألب عليهم العلماء وبدءوا في التكتل والوقوف صفا واحدا ضد المطرفية[26]. مما جعلهم يشعرون بالغربة في أوطانهم واشتد الخناق عليهم فبدأ كثير من علمائهم ومعهم العامة والدهماء يميلون إلى فرقة المخترعة إضافة إلى عجزهم في مواجهة سيوف الأئمة.

فقد تفرقوا أيدي سبأ. والذي يظهر للباحث من خلال المطالعة في هذا الموضوع أن هذه الحرب لم تكن حرب عقيدة بقدر ما هي حرب سياسية استطاع الإمام عبد الله بن حمزة أن يغلفها بالمسائل العقدية حتى يجمع أبناء المجتمع جاهله ومتعلمه حوله وحتى يضعف قوة المطرفية التي كان يخاف منها.

ويرى الأستاذ عبد الله الحبشي أن الذي قضى على المطرفية ليس حرب الإمام عبد الله بن حمزة لهم وإنما الموقف الموحد من طائفة العلماء وخصوم مذهب المطرفية هو الذي أضعفهم وكان له أكبر الأثر. مما جعل كثيرا من الناس يخرجون من هذا المذهب ويدخلون في مذهب المخترعة مما وحد المذهب الزيدي وأعطاه زخما شق طريقه فيما بعد دون منازع من مذهب المطرفية[27].

وإنني أوافق الأستاذ الحبشي على هذا وأضيف إلى ذلك أنه بقدر ما يفهم الإنسان هذا الموقف من الناحية الفكرية بقدر ما يضع ألف حساب للجانب السياسي فالإمام عبد الله بن حمزة إلى جانب علمه فإن قوته وحزمه وتوحيده لمناطق كثيرة من اليمن جعل أكثر الناس يميلون إليه فكان سبيلا لمحاربة المطرفية وإبادتهم ونقل أحجار منازلهم إلى ظفار فدخل في نفوس من بقي من المطرفية الرعب والهيبة ولم يكن لهم طريق غير تيار المخترعة فدخلوا ونجوا من الهلاك وهذه الظاهرة تأتي كثيرا في سياق التاريخ بدليل أن بقايا المطرفية عاشت بعد وفاة الإمام ابن حمزة عام 614هـ ويمارسون عقائدهم رغم ما حصل لهم[28].

لم تكن الحرب ضد المطرفية حرب عقيدة بقدر ما هي حرب سياسية غلفت بالمسائل العقدية.

المبحث الثاني

" وصف المخطوط "

- يتبن من خلال مقياس الرسم لصفحات المخطوط ما يلي :

1–طول كل صفحة 24سم تقريبا.

2–مقياس العرض 16سم.

وهذا تركيب من المقاسات المستعملة الآن في تأليف الكتب المتوسطة وطبعها.

- أما سطور كل صفحة فإن الصفحات تختلف في عدد سطورها ولكن بعد التأكد من أول المخطوط إلى أخره وجد سطور الصفحات بشكل عـــام لا يعـــدوا أن يكون بين 17– 19 سطرا وهو الأغلب الأعم الذي أخذ به في تحديد ذلك وما زاد على عدد سطوره عن 19سطرا فهو نادر لا يؤخذ به.

- أما معرفة زمن كتابة المخطوطة فإن الباحث لم يجد أي إشارة إلى تحديد زمـــن للكتابة ولذلك فقد اعتمدنا على ما ورد في فهرست مخطوطات مكتبة الجـــامع الكبير بصنعاء وهي المكتبة التابعة لوزارة الأوقاف حيث ذكر أن المخطوط كتب بخط نسخي قديم وقد حدد هذا الخط بالقرن السابع الهجري، وهذا يعني أنـــه كتب بعد وفاة مؤلفه بمئة عام نظرا إلى أن الأستاذ عبد الله الحبشي قد ذكـــر في كتابه مصادر التراث اليمني أن المؤلف عاش في القرن السادس الهجري تقريبا وقد تم البحث في المصادر والمراجع وبعض المخطوطات ولكننا لم نجد أي ســند لمـــا ذكره عبد الله الحبشي، ولربما حدد هذه الفترة بالذات نظرا للصراع الـــذي دار بين المطرفية والأئمة حينها وسيظل هذا الجانب مجهولا حتى يعثر على دليل يوثقه.

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وبه نستعين

الحمد لله المتفرد بالبقا المختص من بين الذوات باستمرار البقا الذي

لم يزل ولا يزال وله الكبريا والجلال حمدا استجلب به مواد التوفيق

واستوجب الناس السلوك واصح الطريق ونعتصم به من نعم العظام

في الهداية الى معرفة حقيقة الإسلام وصلواته على لباب الشرف والكرم

وسنام العرب ومولى العجم سيد المبعوث بالرسالة المخصوص

بالتعظيم والجلالة محمد صلى الله عليه وآله

اما بعد فان بعض من هذبت الديانة اوصافه واوجبت الآخرة

انعامه سالني تصنيف كتاب يتضمن اعتقاد اهل الدين من المطرفية

الموحدين مشتملا على بيان اقوال المختلفين والحجة على المخالفين

فاجبته الى ذلك مستعينا بالله تعالى ومستمدا بالله وراغبا البيان

ليعظم للناظر فيه والمتوسل عليه وان يجعل سعيي في ذلك خالصا لوجهه

فما حررت ولا قصدت الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بالله

عليه توكلت واليه انيب وليس اطمع ان اريد على ما بالله السلف الصالح

رحمة الله عليهم ورضوانه وانا احقر من كل الهم ما حمله البسط فناعد

١٥

الصفحة الأولى من المخطوط

- والدليل على أن المخطوط كتب بخط نسخي قديم، أن القارئ يجد فيه بعض الإشارات التي تدل على أنه قديم ويمكن تحديد بعض النقاط على سبيل التمثيل لا الحصر على النحو الآتي :

1- عدم الالتزام بوتيرة واحدة في الكتابة.

2- عدم تشكيل الكلمات في أواخرها و في أوسطها وأولها.

3- عدم وضع النقاط للحرف المعجم إلا نادرا.

4- وضع ثلاث نقاط تحت حرف ليس بمعجم نحو "النفس" مثلا.

علما أنه تم مقارنتها بمخطوطات أخرى للإمام أحمد بن يحيى المرتضى فوجد الخط متقاربا مما يدل على أن المخطوط كتب في القرن السابع الهجري ومع ذلك وللأسف يظل هذا الحكم تقديرا ظنيا وليس يقينيا لأن المخطوط خال من ذكر الناسخ أو تاريخ النسخ مما يجعلنا نلجأ إلى التقديرات وهي طريقة غير علمية ولكن شيئا لابد منه طالما وقد التزمنا بتعريف المخطوط.

- أما الأبواب التي اشتمل عليها المخطوط فقد وضع لها صفحة قبل بداية كتابة عنوان المخطوط حدد فيها أبواب المخطوط بخمسة وأربعين بابا وكتب في اسفل الصفحة " لأحمد بن على بن محمد الحمدي عفا الله عنه " ثم كتب أسفل منه قوله " الحمد لله آمنا بالله وكتبه ورسله واليوم الأخر، اللهم اهدنا هداية توصلنا إلى ما يرضيك عنا ".

وقد قسم هذه الأبواب إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : فيما يتعلق بالتوحيد وقد أشتمل على أربعة وعشرين بابا.

٢

الاطراف واسط من ذلك ما حله الاحار حتى الاعراض وابرع ما استحسنه
من كتب العلما مما اوا من مذهب امير المومنين يحيى بن الحسين الهادي الى
الحق المبين صلوات الله عليه وعلى ابائه الاكرمين لقوله سبحانه فبشر
عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هداهم الله
واولئك هم اولوا الالباب ولا ادعي بنبعا لم رعبر ولا اراه يبسي من التقصير
لكن علمت ان المحمود من بذل في الخبر استطاعته وان احدًا لا يدرك من العلم غايته
ومن الله استمد العون والتاييد واسأله التوفيق والتسديد فهو ولي
ذلك والقادر عليه ثم نقول من بعد ذلك اول ما يجب على كل
مكلف معرفة الله سبحانه التي هي اصل عشرها من الدين ولا يصح الا بعد تقدمها
ولا بد من بيان سبعة فصول اولها بيان معنى المكلف والتكليف والثاني
في معرفة اقسام الواجب والثالث بيان اقسام المعرفة والرابع في الدليل
على انها واجبة والخامس في الدليل على انها اول الواجبات والسادس
في بيان الطريق الموصلة اليها وما يصح ان يكون طريقا وما لا يصح والسابع في
فيما يسقط الناظر فيه اما الفصل الاول فالمكلف هو
البالغ العاقل المامور المنهي والمكلفون هم الملائكة والجن والثقلون
العقلا من الانس وانما قلنا البالغ العاقل لما تقرر في العقول من قبح

١٦

الصفحة الثانية من المخطوط

القسم الثاني : فيما يتعلق بالعدل وأفعال العباد،ثم في النبوة و الإمامة وقد أشتمل على ثلاثة عشر بابا.

القسم الثالث : فيما يتعلق بالوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وغيرها من الموضوعات وقد أشتمل على ثمانية أبواب.

أما في الصفحة الأولى من المخطوط فقد وجدت كتابة ليست للمؤلف و لم يعرف الكاتب باسمه، وقد كتب في أول الصفحة أربعة أبيات من الشعر بيتين مطموستين عدا كلمة (قال...... خافت وهافت) أما البيتان الأخريان فقد قال فيهما:

لم يبق إلا نفس هافت ومقلة إنسانها خافت

يرثي له الشامت مما به يا ويح من يرثي له الشامت

ثم يقول: "الحمد لله المحمود، وبعد فليعلم المطلع على ما بين الدفتين هذا أنه من كتب المطرفية المبتدعة وقد أزالهم الله سبحانه وتعالى وطمس آثارهم فلم يبق لا الرسوم ولا الطلل ولا النهر ولا الوشل".

وفي الورقة الثانية كتب كاتب لم يذكر اسمه بعض ما رآه في تاريخ مسلم اللحجي وهو من المطرفية ثم ذكر أنه وجد لمطرف بن شهاب مناقشات حول الأعراض ثم ذكر ان تاريخ مسلم اللحجي أكثره في أحوال المطرفية من أصحابه.

وهذه الصفحة مكتوبة بخط رديء جدا لأنه غير منقوط وغير مشكل ورسم حروفه رديء جدا يشبه كتابة طفل لم يعرف شيئا من قواعد الإملاء العربي.أما الصفحة الثالثة فإنها مكتوبة بخط رديء جدا ومطموس أغلبه ومبتور، وأعتقد أن هذه الصفحة هي التي أشار إليها مؤلفوا فهرست مخطوطات مكتبة الجامع الكبير صنعاء الأستاذ احمد عبدالرزاق الرقيحي والأستاذ عبد الله الحبشي والأستاذ علي وهاب الأنسي وقد ذكر هؤلاء أن هذه الصفحة بخط العلامة يحيى بن الحسين ومعروف أن يحيى بن الحسين بن القاسم صاحب الأماني عاش في القرن العاشر والحادي عشر الهجري.

لحرها هنا الحرام واما عند مباشرة التهمة لقوله تعالى هل ينظرون الا ان ياتيهم الملائكة
او ياتي ربك او ياتي بعض ايات ربك يوم ياتي بعض ايات ربك لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن امنت
من قبل او كسبت في ايمانها خيرا وبالتهنا العقبة الا الاية والحجر المقدم وهو قوله لا تقلعه
حتى تطلع الشمس من مغربها وكذلك ان صار القرعن بنفسه وزال عقله لان التوبة لا تصح
الا من العاقل المكلف لقيام الادلة على سقوط التعبد عن المجنون **واما الفصل**
الثالث في بيان شرائطها التي تصح التوبة معها وشرائطها اربعة احدها الندم على ما
سلف من الذنوب وعلى ما فرط في ايامه ومنع نفسه من العودة الى ما منه تاب لان من
ندم وتاب من بعض ذنوبه لم يكن تائبا على الحقيقة وهو اختيار اهل البيت عليهم السلام وما
يذهب اليه المحصلون من علماء الاسلام وان خالف فيه من لا يعتد بخلافه **والشرط**
الثاني التخلص من المظالم على موجب الشريعة النبوية **والمظالم** اقسام مظالم الاموال
ومظالم الابدان ومظالم الاقوال ومظالم الافعال ومن الظلم ترك تعظيم من يجب
تعظيمه كالوالدين ومن جرى مجراهما في وجوب تعظيم حرمته فقد روي عن النبي صلى الله
عليه في خبر طاهر ثلاثة لا يستخف بحقهم الا منافق بين النفاق الامام المقسط
وذو الشيبة في الاسلام ومعلم الخير وهذا باب واسع نتعذر استيفاؤه في هذا الموضع
والشرط الثالث قهر نفسه وحملها على خلاف معهود عادتها التي كانت تعتادها
من الحرص والاحتياط فيما يستقبله من اعماله لقول النبي صلى الله عليه كادت العادة
ان تكون خلقا خامسا وروي عنه صلى الله عليه انه قال الخير عادة والشر عادة والنفس
لما ربتها معتادة **والشرط الرابع** ان يقصد باعماله وجه الله سبحانه مع الحراسة
لذلك والاستقامة عليه لقوله تعالى الا لله الدين الخالص وقال تعالى فمن كان يرجوا
لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا وذلك يقتضي الاخلاص

الصفحة الأخيرة من المخطوط.

أما الصفحة الرابعة فقد تضمنت أمرين:

1- ذكر إنتقال هذا المخطوط إلى شخص طمس اسمه في بداية السطر الثاني ووجد من المكان المطموس إلى هامش الصفحة سهم كتب تحت هذا السهم اسم "حسين بن علي ذعفان " ولم يذكر اسم الناقل منه.

2- ذكر الأبواب الخاصة بما يحتويه هذا المخطوط فقال :

" جملة ما نذكره من الأبواب بعد مقدمة هذا الكتاب لا يخرج عن التوحيد والعدل والتصديق وهي خمسة وأربعون بابا ".

أ- أبواب التوحيد وهي : إثبات الصانع سبحانه، ثم الدلالة على أنه قديم، ثم على أنه قادر، ثم على أنه عالم، ثم على أنه حي، ثم على أنه سميع بصير، ثم على أنه يخالف الأشياء، ثم على أنه واحد، ثم على أنه غني، ثم على أنه لا يرى بالأبصار، ثم الكلام في الأسماء والصفات، ثم في الأصول والجواهر، ثم في الإحالة، ثم في تسمية الأعراض، أحوالا وصفات، ثم في الاختراع والأعراض، ثم في الإرادة، ثم في الوسايط، ثم في رؤية الأعراض، ثم في المتولدات، ثم في رجع الصدأ، ثم في بقاء الأعراض، ثم في سماعها، ثم في أصناف الأجسام، ثم في الخلق والتكليف والإرسال، ثم قال : فهذه أربعة وعشرون بابا.

3- أبواب العدل قال : ثم في العدل، ثم في القضاء والقدر، ثم أفعال العباد، ثم في الاستطاعة، ثم في تكليف مالا يطاق، ثم في تعذيب من لا ذنب له، ثم في الامتحان، ثم في العوض، ثم في ان القرآن كلام الله، ثم في خلقه، " أي القرآن "، ثم في الفضل، ثم في النبوة، ثم في الإمامة.فهذه ثلاثة عشر بابا.

4- في الوعد والوعيد : قال: ثم القول بأنه صادق، ثم في الوعد والوعيد، ثم في عذاب القبر، ثم في الشفاعة، ثم في المنزلة بين المنزلتين، ثم البراء والولاء والهجرة، ثم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم في التوبة. وبه نختم الكتاب فهذه ثمانية أبواب.

ثم كتب في أخر الصفحة من الأسفل، لأحمد بن علي بن محمد الحمدي عفا الله عنه، ثم كتب في الركن الأيسر من أسفل الصفحة

" الحمد لله أمنا بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، اللهم إهدنا هداية توصلنا إلى ما يرضيك عنا ".

ويلاحظ أن الخط الذي كتب به الفهرست هو نفس الخط الذي كتب به المخطوط من أوله إلى آخره بخط واحد لم يتغير فإذا انتقلنا إلى الورقة الأولى من الكتاب (أ.ب) نجد أن صـ أ كتب فيها عنوان الكتاب وذكر مؤلفه، كما يلاحظ في الصفحة كتابات مطموسة ولا يعرف منها شيء يقرأ، وفي مقدمة صـ أ من الأعلى قال كاتب لم يذكر اسمه : **"هذا من كتب المبتدعة في التوحيد نفع الله به مولاه بحق محمد وآله، وكتب أيضا على هامش الصفحة من الجهة اليسرى " من كتب الفقير إلى الله يحيى بن الحسين بن أمير المؤمنين".**

أما عنوان الكتاب فهو (كتاب البرهان الرايق المخلص من ورط المضايق) تأليف الشيخ الأجل الأوحد العالم الكامل الأفضل سليمان بن محمد بن أحمد المحلي وفقه الله تعالى لمرضاته وأجزل في الدارين مجازاته وصلى الله على رسوله سيدنا محمد النبي وآله وسلم تسليما كثيرا. قيد للشيخ الأجل الأوحد الأمجد يحيى بن أحمد بن عبدالرحمن الحقه الله جناح مغفرته، ورحمته وبركته. ثم ألحق هذا الكلام بيتين من الشعر على النحو الآتي :

هذا الكتاب لخير الناس كلهم (الاسم مطموس) أحمد أزكى الناس إنسانا

السيد الماجد البدر الأبي أبي الحسين خير الورا دينا وإيمانا

وعلى هذه الصفحة ختم مكتوب فيه (المكتبة المتوكلية العامة الجامعة لكتب الوقف العمومية في جامع صنعاء المحروسة). ويظهر من خلال خدش بعض الكلام وخاصة الأسماء منها أن المخطوط كان يتداول بين الناس سرا قبل تسليمه إلى المكتبة العامة. وخدش الأسماء بالذات يعطي إشارة إلى الخوف الذي كان ينتاب من يتداول هذا المخطوط بدليل التحذيرات التي سجلها هؤلاء في الصفحات الأول من المخطوط دون أن يذكروا أسماءهم والذين ذكروا الأسماء مثل حسين بن ذعفان اسم مجهول لا ذكر له في الطبقات أو في التاريخ وكذلك احمد بن علي بن محمد الحمدي، وإنما الملاحظ ان ذكر يحيى بن الحسين قد ذكر في الهامش بخط رديء ليس من نفس الخط الذي كتب به المخطوط ولكن لم نعرف من هو يحيى بن الحسين هذا هل هو الهادي إلى الحق أم أنه يحيى بن الحسين بن القاسم صاحب "طبقات الزيدية" و"غاية الأماني". لم نعلم شيئا عن هذا والأرجح عندي أنه يحيى

بن الحسين بن القاسم لأنه متأخر عن القرن السادس الذي وجد فيه المؤلف والقرن السابع الذي خط فيه المخطوط.

وفي الورقة الأولى (ب) من المخطوط بدأ المؤلف بذكر البسملة والحمدله والاستعانة ثم قال في أول المخطوط .

" الحمد لله المتفرد بالبهاء المختص من بين الذوات باستمرار البقاء الذي لم يزل ولا يزال وله الكبرياء والجلال حمدا نستجلب به مواد التوفيق ونستوجب التأييد لسلوك واضح الطريق ونقضي به حق نعمه العظام بالهداية إلى معرفة حقيقة الإسلام".

وفي أخر المخطوط قال المؤلف، والشرط الرابع (من شروط التوبة)

"أن يقصد بأعماله وجه الله مع الحراسة لذلك والاستقامة عليه لقوله تعالى (آلا لله الدين الخالص) وقال تعالى : "فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا " وذلك يقتضي الإخلاص".

بسم الله الرحمن الرحيم

اسم هذا الكتاب المبارك للعبد الفقير الى الله الراجي لرحمة ربه وعفوه [illegible] وهو يسأل من الله الصفح والغفران
ولوالديه ولجميع المسلمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

جملة ما فيه من الابواب في مقدمة هذا الكتاب الخارج عن التجسيم والتعطيل
والتصديق وهي خمسة واربعون بابا ابواب التوحيد وهي
اثبات الصانع سبحانه ثم الدلالة على انه قديم ثم على انه قادر ثم على انه عالم
ثم على انه حي ثم على انه سميع بصير ثم على انه لا يشبه الاشياء ثم على انه واحد
ثم على انه غني ثم على انه لا يرى بالابصار ثم الكلام في الاسماء والصفات
ثم في الاصول والجواهر ثم في الاحالة ثم في تسمية الاعراض احوالا واوصافا
ثم في اختراع الاعراض ثم في الارادة ثم في الوسائط ثم في حدوث الاعراض
ثم في المتولدات ثم في رجع الصدى ثم في بقاء الاعراض ثم في سماع ما [illegible] في
اختلاف الاجسام ثم في اكل [illegible] التكليف والارسال فهذه اربعة وعشرون بابا ثم
ثم في العدل ثم في القضاء والقدر ثم في افعال العباد ثم في الاستطاعة ثم في تكليف
ما لا يطاق ثم في تعذيب من لا ذنب له ثم في الامتحان ثم في العوض ثم في ان
القرآن كلام الله ثم في خلقه ثم في الفضل ثم في النبوة ثم في الامامة
وهذه ثلاثة عشر بابا ثم القول في انه صادق ثم في الوعد والوعيد ثم في علامات [illegible]
ثم في الشفاعة ثم في المنزلة بين المنزلتين ثم في الولاء والبراء والعداوة ثم في الامر
بالمعروف والنهي عن المنكر ثم في التوبة وبه يختم الكتاب وهذه ثمانية ابواب

[illegible]

صفحة فهرست المخطوط

المبحث الثالث

دراسة بعض النصوص
عن طريق المنهج التحليلي والوصفي والمقارن

مقدمة

يظهر من خلال الاطلاع على هذا المخطوط النادر أن فرقة المطرفية كانت تميل في أكثر مقولاتها العقائدية والسياسية إلى الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين،والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا الأئمة والحاكمون بالذات هم الذين واجهوا هذه الفرقة بكل ما أوتوا من قوة فكرية ومادية مادامت تنتسب إلى الهادي، وهو إمام الجميع. والإجابة عن هذا السؤال هي أن هذه الفرقة كانت أكثر صراحة وصرامة أمام المسائل السياسية والعقدية، وكانت تتوج مواجهاتها بالمناظرة والجدل أمام الفرق الأخرى بإكبار ودون محاباة أو مجاملة،مما جعل تلك الفرق تقف بوجه المطرفية بلا هوادة.ولكن قوة المطرفية جعل الأئمة وبالذات الحكام يقفون أمام هذا التيار المطرفي خوفا من تأثيره على العامة والدهماء الذين يستعين بهم الأئمة الحكام لإنجاز أي مهام يريدونها، ولذلك كانوا في المقدمة لمواجهة المطرفية، ومن المؤسف جدا أن المؤرخين لهذه الفرقة لم يتعرضوا للجانب السياسي رغم أنه السبب في فنائهم، وحصر مؤرخوهم الجدل والخصام في الجانب العقائدي،ومن يدري فربما كان الجانب العقائدي غلافا وغطاء للجانب السياسي الذي تغلب في الأخير وحكم على المطرفية بالفناء. وعلى هذا الأساس فإن الباحث هنا فيما يتعلق بالجانب السياسي سوف يغلق بابه لأنه موضوع واسع ويحتاج إلى وقت طويل للبحث عن أصوله وهو موضوع مهم ندعو الباحثين إلى اختراقه، وينتقل إلى الجانب العقائدي الذي احتواه هذا المخطوط وسوف

يجد القارئ من خلال مناقشة بعض الموضوعات أن موقف المطرفية قوي وأدلتها دامغة ويستندون إلى الأئمة العظام المشهورين بالمذهب الزيدي، وسوف ينحصر الحديث عن بعض المسائل العقدية التي اتهم علماء المخترعة من خلالها المطرفية بالزندقة والكفر كالقول باختراع الأعراض، ومسألة الإحالة والاستحالة وكذا وحدانية الله تعالى للأسباب التالية:

1- أن هذه المسائل الثلاث كانت أكثر نقاشا بين الطائفتين المطرفية والمخترعة.

2- لقد أطلق المخترعة الكفر والزندقة على المطرفية من خلال هذه المسائل من وجهة نظر المخترعة بينما بعض الكتاب المحدثين يرون أن المسألة سياسية.

3- لقد أطلق المخترعة على المطرفية أنها من الفرق الطبائعية التي آمنت بتعدد القدماء وسوف يتضح للقارئ عند مناقشة هذه المسائل أن المطرفية من أهل التوحيد بدليل نصوصهم المذكورة في هذا المخطوط " موضوع البحث ".

المسألة الأولى : القول باختراع الأعراض.

هذه المسألة الكبيرة التي كانت بداية الاختلاف وحدوث الفتن بين المطرفية والمخترعة كما يذكر مؤرخوهم. وقد أسند المطرفية القول بالاختراع إلى فرقة المخترعة إحدى فرق الزيدية المتأخرة، بينما أسند المخترعة وغيرهم من علماء الزيدية القول بالإحالة والاستحالة وإبطال الاختراع إلى فرقة المطرفية إحدى فرق الزيدية الكبار. وقد استدل المطرفية على القول بعدم الاختراع إلى الإمام الهادي،والأمام القاسم رضوان الله عليهما يبدأ صاحب المخطوط سليمان المحلي حديثه عن إثبات الإحالة والاستحالة وبطلان الاختراع فيقول :

" إن الله سبحانه جعل للعالم أصولا وهي الماء والهواء والرياح والنار وجعلها أضدادا متباينة مختلفة كما ذكر القاسم عليه السلام[29]. فجعلها كذلك لما أراد من تأثير بعضها في

بعض وإحالة بعضها لبعض تقديرا لمصلحة عباده وقد صح أن الله تعالى حكيم والحكيم لا يفعل فعلا الا لمنفعة تعود على عباده[30].

ويقول في مكان أخر إن الأجسام تنفع وتضر وتحيل وتستحيل ويدلل على ذلك بطريقتين إحداهما الإلزام والثانية الدليل :

- أما الإلزام فقد أثبته من خلال طرح سؤال يتضمن أن الخطاب إذا ورد من الله أو من رسوله فهل يحتمل الحقيقة أو المجاز وعلى أيهما يجب حمله. والمناقشة هنا طويلة ولكن نأخذ منها أن قول الرسول (ص) كل مسكر حرام هل يحمل على الحقيقة أم المجاز؟ فمذهب المخترعة (أن المسكر على الحقيقة هو الله والمجاز هو الخمر)[31] فيلزم على هذا أن الله تعالى أقر بالحرام، فإن قيل إن دلالة العقل قد دلت على وجوب صرفه إلى المجاز حيث أن الفعل لا يصدر إلا من حي قادر قلنا إن دلالة العقل والكتاب والسنة قد دلت على أنه سبحانه خلق الأجسام يؤثر بعضها في بعض واجبرها على ما يحدث منها من الأحوال وليس إذا جبر الجسم على أحواله سمي مسكرا لأنه علم عباده كيف يستصلحونها ويصلحون غيرهم[32].
ويرى سليمان المحلي أن الأعراض هي استحالة الأجسام وتغيرها وأن كلام الإمام الهادي عليه السلام يدل على ذلك إذ يرى " أن الأعراض متفرعة من الأجسام" ويعلق المحلي على هذا قائلا إذا كانت الأعراض فرعا للجسم فالقول باختراعها باطل لأن من يقول أن الله يخترع العرض في الجسم يلزم أن يجوز تعري الجسم منه ولاسيما إن أنكر أن يكون له علة [33].

ولذلك فقد ساق المحلي ستة أدلة عقلية يبطل من خلالها قول من يقول باختراع الأعراض في الأجسام واختصارا للكلام نختار دليلين من الأدلة التي ساقها على النحو الأتي:

الدليل الأول : وهو الدليل الثالث عند المؤلف قال : "

إن الله تعالى إذا اخترع الحركة في الجسم لم يخل من أحد وجهين، إما أن يخترعها والسكون باق أو غير باق، فإن اخترعها والسكون باق فيه فمحال لأن ذلك يوجب اجتماع

الضدين الحركـــة والسكون والمــوت والحياة والسواد والبياض، وذلـــك محـــال، وإن أوجدها والسكـــون معـــدوم فمحال أيضاً لأنه يؤدي إلى تعري الجســـم عـــن الحركـــة والسكون جميعاً". [34]

والواقع أن هذا الدليل العقلي بأخذ جانبين :

أحدهما : أن تأخذ المسألة تفسيراً طبيعياً حسياً بحتاً وعندها يمكن أن يـــأخذ هـــذا التفسير منحى ما جاءت به المُطَرَّفِيَّة، غير أن المُطَرَّفِيَّة تسند أفعال الإحالة والاستحالة إلى الله تعالى كمصدر أساسي وأن إسناد الفعل إلى الطبيعة أو إلى جزء منها إنما هو بطريق المجـــاز فقط : تقول مات فلان، وسقط الحجر، و نزل المطر إلى غير ذلك من الأشياء المجازية.

وثانيهما : أن تأخذ المسألة تفسيراً يرتبط بالقدرة الإلهية والإرادة المطلقة فالذي يثبت القدرة المطلقة لله لا يمتنع عنده أن يجتمع الضدان لحكمة يعجز العقل عن بيانها والقائل بهذا ليس عنده مشكلة، والذي يراه الباحث أن إسناد الفعل للأجسام قد فسره المُطَرَّفِيَّة بالمجـــاز وعليه فليس هناك مخالفة في هذه المسألة بينهم وبين خصومهم المخترعة غير أن المسألة شابها سوء فهم وعدم روية من الطرفين فطغى عليهم التعصب وازداد بعدهم عن بعض، ففســـر كل واحد نصوص الأخر بما يتناسب ووجهة نظره.

الدليل الثاني : وهو الدليل السادس عند المؤلف ويقول فيه :

"إن الأعراض إذا كانت مخترعة أدى ذلك أن الله سبحانه أخرج الأجسام من العـــدم إلى الوجود وهي غير موصوفة، لأن خلق كل واحد منهما غير خلق الثاني فهما اخراجان مـــن العدم إلى الوجود، إخراج الجسم، وإخراج العرض، ولا تعلق لأحدهما بالأخر على وجـــه من الوجوه، وأحدهما ليس بعلة للثاني، ولا موجب لحصوله ولا سبب، ألا ترى أن الجســـم إذا كان على ما وصفنا من كونه ليس بعلة ولا سبب ولا موجب فحاله وحال العـــرض في الخلق كحال زيد وعمرو يصح أن يوجد أحدهما دون الثاني وذلك يوجب خروج الجســـم من العدم إلى الوجود غير ذي حال [35]**. "**

وهذا في الواقع مخالف للعقل والمنطق إذ هناك اتفاق بين الفلاسفة وعلماء الكـــلام على أن الجسم يوجد مع عرض ولا يمكن الفصل بينهما لوجوه :

1-أن الجسم علة لأحواله وموجب لحصولها والعلة لدى الفلاسفة لا تتأخر عن معلولها

2-أن الله قادر بذاته يفعل ما يشاء و يرتب خلقه كما يريد.

3-إذا كان الجسم يثبت أن الاعتماد السفلي في الجسم الثقيل سبب موجب لهويه فنحن نقول :إن الجسم مع كونه علة لأحواله سبب لحصولها فمهما جاز له في السبب جاز لمخالفه[36].

يتضح من خلال هذا السياق أن موقف الْمُطَرَّفِيَّة في إبطال اختراع الأعراض قوي جداً لأن علماء الكلام لم يستطيعوا إثبات حدوث العالم إلا من خلال حدوث الأعراض، ثم تلازمها مع الجسم ويتعدى الحكم من الأعراض إلى الأجسام فيثبت حدوث الأجسام، ثم حدوث العالم. وهذا يعني تلازم الجسم والعرض تلازماً ضرورياً وعليه فإن لفظ الاختراع يشير إلى عكس هذا التلازم.

المسألة الثانية : في الإحالة والاستحالة.

يفسر العلامة سليمان المحلي صاحب المخطوط (موضوع البحث) الإحالة بالتأثير والنفع إذا استعمله الناس على ما علم وذلك لا يكون الا عن طريق الجبر لا الاختيار، فما حصل منه من تأثير فهو فعل الله سبحانه لا فاعل له غيره ولا موجد له سواه وإنما قلنا ذلك لأنه شيء كائن بعد العدم خارج عن مقدور العبد فيجب أن يكون فعلاً للقديم[37]. أما الاستحالة فهي التغيير و الانتفاع. وإسناد الفعل لغير الفاعل الحقيقي إنما هو مجاز. فالقائل : أن النار تحرق والماء يروي والطعام يشبع واللحاف يدفئ ويستر والدواء ينفع ويشفي والسم يقتل ويفني من قبل الإحالة والاستحالة إنما هو من فعل الله تعالى وإسناد الفعل والتأثير إلى العالم إنما هو إسناد مجازي طالما أن الفاعل الحقيقي هو الله[38]. وعلى هذا الأساس فإن التفسير الذي أورده صاحب طبقات الزيدية الصغرى نقلاً عن علماء الزيدية

وخاصة الإمام عبد الله بن حمزة والإمام أحمد بن سليمان فيه نظر لأن كلاً من المُطَرَّفِيَّة والمخترعة يسندون الفعل الحقيقي إلى الله تعالى وعلى هذا فالله هو الخالق للمحيل والمستحيل، ولو لا أنه كذلك لما صح التكليف والامتحان و الأمر والنهي والتعليم والترغيب والترهيب، بل يكون ذلك بغير معنى، ومن فعل فعلاً بغير معنى فليس بحكيم[39].

المسألة الثالثة: وحدانية الله تعالى .

هذه إحدى المسائل الصعبة التي احتدم الصراع حولها بين المُطَرَّفِيَّة والمخترعة ومن المعروف أن جميع المدارس الكلامية يثبتون الوحدانية لله تعالى مستدلين بالعقل والنقل عدا أن هناك خلافاً بسيطاً بين المعتزلة والأشاعرة حول الصفات، إذ ترى المعتزلة أن الصفات هي الذات وعلى هذا الأساس فليس هناك تعدد في القدماء. والأشاعرة يرون أن الذات لها صفات وهذه الصفات لا هي الذات ولاغيرها. فحكم المعتزلة على الأشاعرة بأنهم أثبتوا قدماء مع الله متعددة وهذا الكلام أثبتوه من خلال اللازم للنص، وليس هناك نص صريح من الأشاعرة يثبتون من خلاله تعدد القدماء، والكلام بين المُطَرَّفِيَّة والمخترعة حول الوحدانية ينطلق من هذا الجانب وهو إدعاء علماء المخترعة أن المُطَرَّفِيَّة يثبتون أربعين إسماً لله تعالى، وقالوا بأنها قديمة، يذكر العلامة أحمد بن يحيى حابس[40]، في شرحه "كتاب الإيضاح المسمى بالمصباح" أن مذهب المُطَرَّفِيَّة في مسألة الوحدانية إثبات أسماء لله تعالى هي قديمة وكل اسم هو ذات[41]. ولكن بعد الرجوع إلى مخطوط العلامة سليمان المحلي اتضح أن هذا الكلام غير وارد وأن المُطَرَّفِيَّة تثبت الوحدانية كما يثبتها الزيدية والمعتزلة وبنفس الأدلة التي يثبتها علماء الاختراع خصماء المُطَرَّفِيَّة غير أن ابن حابس يعلق على هذا القول ويلزم المُطَرَّفِيَّة بمفهوم كلامهم أنه (أي الله) أربعون، فقد زادوا على النصارى في الإحالة ثم يقول ابن حابس : قال : بعض أهل العدل وقيل أنه الإمام أحمد بن سليمان عليه السلام على هذا"إن كل مطرفي ثلاثة عشر نصرانياً وقلت لأن النصراني يقول أنه واحد، ثلاثة، ومقتضى كلام المطرفي أنه واحد أربعين[42]. وهذا الكلام لا وجود له في عقائد المُطَرَّفِيَّة، بدليل أن

العلامة سليمان المحلي يسوق سبعة أدلة على أنه واحد من كل الوجوه وهي نفس الأدلة التي يثبتها علماء الكلام من الزيدية وغيرهم.

ويكفي هنا أن نسوق بعض الأدلة التي ساقها المحلي في هذا الكتاب النادر.

الدليل الأول :

أنهما لو كانا إثنين أو أكثر لم يخل الحال فيهما من أن يكونا جسمين أو لا، فإن كانا جسمين فقد قامت الأدلة على أن الصانع غير جسم وإن كانا غير جسمين فيجب أن يكونا حكيمين، والحكيم لابد أن يدل على نفسه بفعله وأن يقيم الدلالة على ما يفرق بينه وبين غيره، ولاسيما إذا كان كل منهما داعياً إلى معرفته وشكره.

أو يصاغ الدليل بأسلوب أخر كأن يقال : لو كان معه تعالى ثانٍ لم يخل ذلك الثاني من أمرين :

- إما أن يكون مشاهداً.
- إما أن يكون مدلولاً عليه.
- ومحال أن يكون مشاهداً لأن المشاهد جسم وهو ليس بجسم ولا يقع فيه الاختلاف، وإن كان مدلولاً عليه فلا يخلوا من أحد أمرين :-
- إما أن يستدل عليه من قبيل الأعراض وهو ما تعالى ليس عرضاً.
- وإما أن يستدل عليه بالأثر فيكون كل جسم يدل على صانعه وفي هذه الحالة لابد من أمرين:
- إما أن يكون الصانع واحداً لجميع الأجسام.
- إما أن يتعدد الصانع بتعدد المصنوعات، لأنه لا وجه يوجب الوقوف على صانعين فقط، والقول بوجود صانعين بعدد المصنوعات لم يقل به أحد.

فظهر أن الصانع واحد لجميع المصنوعات، وهو ما نروم إثباته[43].

الدليل الثاني :

لو كانا اثنين لم يخل من أحد أمرين :

- إما أن يكونا مستويين في الوجود.
- وإما أن يكونا مختلفين في الوجود.
- فإن كانا مستويين في الوجود وجب القول بحدثهما جميعاً، لأن كل واحد منهما لم يتقدم على الثاني في وجوده، ومن نفي عنه التقدم من وجه ثبت له الحدث من ذلك الوجه وهذا مبني على أن نفي الشيء إثبات لضده، وهو دليل عقلي صحيح.
- وإن كانا مختلفين فاختلافهما في الوجود يوجب حدث أحدهما لأن المفهوم من اختلافهما في الوجود أن يوجد أحدهما قبل وجود الثاني وهذا دليل على أن أحدهما قديم والأخر محدث[44].

الدليل الثالث :

أن الإجماع منعقد على صانع واحد وهو الذي أوجبته الدلالة ومن يدعي غير هذا يفتقر لإثبات دعواه إلى برهان[45].

الدليل الرابع :

أن الاثنين لا يجري تدبيرهما على نظام واحد ولا يتفق الملك بينهما على الوئام إذ جائز أن يريد أحدهما إحياء زيد والأخر يريد إماتته في تلك اللحظة وهذا لا يخلو من ثلاثة أوجه :

- إما أن يتم مرادهما معاً، وهذا محال لأن زيد لا يمكن أن يكون حياً وميتاً في نفس الحال.
- وإما أن يتعذر مرادهما معاً، فذلك دليل على عجزهما والعجز دليل الحدوث.

- و إن تم مراد أحدهما وتعذر مراد الثاني، فمن تم مراده فهو الصانع القادر لذاته إذ القادر لذاته قادر على جميع أجناس المقدورات ومن تعذر مراده فهو المحـــدث[46].
وقد نبه الله تعالى إلى هذا الاستدلال بالآية الكريمة :" لو كان فيهما آلهـــة الا الله لفسدتا." [47] ويقول تعالى " ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله إذا لذهـــب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض[48].

ومن هنا يتضح أن ما أثبته ابن حابس على المُطَرَّفِيَّة فيه نظر، وهي دعوى محتاجة إلى إثبات من أصول المُطَرَّفِيَّة نفسها وهذا غير متوفر، فظهر بذلك أن المُطَرَّفِيَّة تثبت الوحدانيـــة كما تثبتها بقية المذاهب الكلامية.

الدليل الخامس

إن الواحد في العقل متقدم على الثاني ومستغن عنه، فلا ثاني إلا بعد الأول الـــــذي هـــو الواحد[49].

ويصح وجود واحد لا ثاني معه. فثبت بذلك أن الأول الواحد قديم غني، وأن الثاني محتاج إلى الواحد الأول، والحاجة دليل الحدوث. فثبت بهذا أن الواحد سبب لوجود الثـــاني لجواز أن يتراخى وجوده عن وجود الواحد، وألا يوجد البته، ولا يصح ان يكون الواحـــد علة للثاني لأن العلة لا يتراخى عنها معلولها[50].

ونكتفي بهذه الأدلة لبيان أن المُطَرَّفِيَّة لم تشذ عن قواعد علماء الكلام ومـــن قـــول الأئمة الكبار من علماء الزيدية وهنا ينتهي القسم الأول من التعريف بالمخطوط.

خلاصة ما تضمنه القسم الأول من الدراسة

لقد تضمن القسم الأول مقدمة تناول الباحث فيها الحديث عن التراث اليمني ومـــا الواجب على الباحثين إزاء هذا التراث المطمور.

ثم أشتمل القسم الأول على ثلاثة مباحث :

- كان الحديث في المبحث الأول عن فرقة المطرفية وهل هي فرقة من فرق الزيدية أم أنها فرقة من فرق أهل السنة عند بعضهم أو أنها فرقة تمردت عن الزيدية واتخذت طريق المعتزلة. وقد توصل الباحث أن المطرفية فرقة من فرق الزيدية المتأخرة وليس من فرق السنة ولا هي معتزلية بالمعنى المعروف للاعتزال وإنما نستطيع أن ندرجها ضمن التيار الذي مال إلى الاعتزال في بعض مسائل علم الكلام العقائدي بدليل أن صاحب المخطوط كان يرد على المعتزلة في بعض المسائل كما فصل أحمد بن يحيى المرتضى في نقد وتحليل بعض المسائل للاعتزال رغم أنه من تيار الاعتزال وخاصة في مسائل الإمامة وغيرها من المسائل.

ولقد كان الحديث في المبحث الثاني التعريف بالمخطوط ، وقد أتخذ الباحث الطريقة العلمية لوصف المخطوط من حيث المقاسات الخاصة بالصفحات وأطوالها، وكذلك ذكر الأسطر في كل صفحة وعدد كلمات السطر الواحد وكذلك عدد أوراق المخطوط فوجد أنه لم يكن آخذاً ونبرةً واحدة في مقياس الرسم للسطور فبعض الصفحات تتفق مع بعضها في عدد السطور وبعضها الأخر مختلف مما جعل الباحث يذكر أن المخطوط لم يكن متسقاً في كتابة سطوره وكلماته،كما اتضح للباحث أن هذا المخطوط لم يبين كتابة السنة التي كتبت فيه أو من كتبه مما جعل الباحث يقوم بالمقارنة بينه وبين مخطوطات أخرى بغرض تحديد الزمن الذي كتب فيه، كما أشار الباحث أن عدم ذكر الناسخ وتاريخ النسخ دليل على أن الخوف الذي أنتاب من كانوا يتداولون هذا المخطوط من قبل السلطات حينها لأنه يعتبر من الكتب المبتدعة التي يحرم على الناس تداولها من وجهة نظرهم.

أما الحديث في المبحث الثالث :

فإنه يتضمن مناقشة المُطَرَّفِيَّة والمخترعة في ثلاث مسائل كانت هي السبب في الاختلاف الذي حدث بين المُطَرَّفِيَّة والمخترعة عند من يرى أن الاختلاف عقائدي وليس

سياسياً والباحث هنا يرى أن الاختلاف سياسي لأنه عند الرجوع إلى أصول المُطَرَّفِيَّة يتضح أنه لا خلاف بين الفريقين وإنما أخذ الاختلاف جانباً أخر هو مواجهة المُطَرَّفِيَّة للحكام ومنازعتهم والحكم عليهم بالظلم والطغيان مما جعل بعض الأئمة الحكام يحاربون المُطَرَّفِيَّة ويبيدونهم بحجة أنهم كفار وزنادقة و فساق. علماً أن هذا الحكم لم تأخذ به كل الفئات الزيدية وإنما هناك علماء أكابر ردوا على هذا التكفير الذي صدر من الإمام احمد بن سليمان والإمام عبد الله بن حمزة واثبتوا عدم التكفير كالأمير المنتصر محمد بن المفضل المعروف بالعفيف والمؤمن بالله أحمد بن الحسين الهاروني و ما ورد عن كآفة أهل البيت عدم التكفير وكذلك الإمام محمد بن إبراهيم الوزير و الإمام الشوكاني وابن الأمير الصنعاني وغيرهم من العلماء الذين قالوا بعدم التكفير.

الهوامش

1- الحبشي، عبد الله، مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن. حسين عبد الله العمري، مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني

2- محمود، حسين سليمان، تحقيق تاريخ اليمن لعمارة اليمني صـ305، وأنظر أيضاً غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ليحيى بن الحسين، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور.

3- جـ1 ، صـ372 هامش.

4- عارف، أحمد عبد الله، دراسة تحقيق شرح الأساس الكبير للعلامة : أحمد بن صلاح الشرقي جـ1، صـ179 حتى صـ210.

5- الحبشي، عبد الله، مصادر الفكر العربي الإسلامي، صـ101.

6- د. الكمالي، محمد الحاج الكمالي، الإمام أحمد بن يحيى المرتضى وأثره في الفكر الإسلامي سياسياً وعقائدياً دار الحكمة، صنعاء الجمهورية اليمنية صـ24، 25.

7- سيد، أيمن فؤاد، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي صـ106.

8- المرتضى، لإمام أحمد بن يحيى ، المنية والأمل شرح الملل والنحل مخطوط رقم45مكتبة الجامع الكبير بصنعاء ورقة 47أ.

9- قد سبقت الإشارة إليه رقم (2) من الهوامش.

10- فؤاد، عبد الفتاح أحمد، " دكتور " الإمام الزيدي أحمد بن سليمان وأراءه الكلامية ط1 1986م. دار الدعوة، الإسكندرية ج.م.ع. صـ149.

11- القاسم، يحيى بن الحسين، طبقات الزيدية ورقة 41.

12- نفس المصدر والورقة.

13- الحكمة الدرية مخطوط ورقة 133.

14- المنية والأمل ورقة 47ب

15- نفس المصدر ورقة 48أ.

16- الحسين، يحي بن،طبقات الزيدية ورقة 41ب.

17- ابن أبي الرجال : مطلع البدور مخطوط ومصور بدار الكتب المصرية رقم 4322 تاريخ جـ4 صـ392.

18- المنية والأمل ورقة 47أ،ب وانظر الطبقات يحيى بن الحسين ورقة 41أ.

19- الحسين، يحيى بن ، الطبقات ورقة 39.

20- نفس المصدر ورقة 33.

21- اللحجي، مسلم ، هو " مسلم بن محمد بن جعفر اللحجي الشطبي المتوفى عام 545هـ —1150م من علماء الهدوية في الفروع ومن المُطَرَّفِيَّة في الاعتقاد و كان يعد في درجة القاضي جعفر بن عبد السلام. رد على من يرجح تقليد المؤيد بالله أحمد بن الحسين الهاروني البطحاني المتوفى عام 411هـ وتفضيله على الهادي وانتصر اللحجي لترجيح مذهب الهادي وأقواله وكان جامعاً لفنون العلم لم يفته شيء وهو نسابة وله تاريخ.

22- الطبقات ورقة 38.

23- الحبشي، عبد الله ، المُطَرَّفِيَّة " مذهب مجهول في اليمن " اليمن الجديد العدد الثالث السنة الثالثة نوفمبر 77م صـ49.

24- غالب، قاسم، وآخرون ابن الأمير وعصره صـ37.

25- الوزير، أحمد بن ، تاريخ أل الوزير ورقة 68 مخطوط.

26- نفس المصدر والصفحة.

27- الحبشي، عبد الله، اليمن الجديد صـ44.

28- نفس المصدر والصفحة.

29- المحلي، سليمان، البرهان الرايق ورقة 78ب.

30- نفس المصدر والصفحة.

31- نفس المصدر ورقة 70ب.

32- نفس المصدر والورقة.

33- نفس المصدر والورقة.

34- نفس المصدر ورقة 79ب.

35- نفس المصدر ورقة 80ب ، 81أ.

36- نفس المصدر ورقة 80ب.

37- نفس المصدر ورقة 68أ.

38- نفس المصدر والورقة.

39- نفس المصدر والورقة.

40- حابس، العلامة أحمد بن يحيى، (1061هـ) كتاب الإيضاح على المصباح مخطوط ورقة 80 من النسخة المصورة.

41- نفس المصدر والورقة.

42- نفس المصدر والورقة.

43- المحلي، سليمان، البرهان الرايق ورقة 45أ.

44- نفس المصدر ورقة 45ب.

45- نفس المصدر والصفحة.

46- نفس المصدر ورقة 45ب،46أ.

47- سورة الأنبياء آية 22.

48- سورة المؤمنون آية 91.

49- المحلي، سليمان، البرهان الرايق ورقة 46أ.

50- نفس المصدر والورقة.

مصادر البحث ومراجعه

1-البرهان الرايق المخلص من ورط المضايق للعلامة سليمان بن محمد بن أحمد المحلي لم يحدد كاتب المخطوط زمناً ولا مكاناً في كتابة المخطوط و لم يذكر حتى اسمه رقم المخطوط 1763، المكتبة الشرقية بالجامع الكبير بصنعاء.

2-طبقات الزيدية الصغرى،للإمام يحيى بن الحسين بن القاسم،مخطوط جزءان في مجلد واحد لدى الباحث نسخة مصورة من مكتبة جامعة صنعاء، بدون رقم.

3-تاريخ مسلم اللحجي /جـ4 مخطوط،يوجد في المكتبة الأهلية بباريس ولدى الباحث نسخة منه.

4-كتاب الدرر الفوائد في شرح كتاب القلائد في تصحيح العقائد للإمام أحمد بن يحيى المرتضى مخطوط لدى الباحث نسخة منه مصورة ص 30.

5-دامغ الأوهام في شرح رياضة الإفهام في لطيف الكلام للإمام أحمد بن يحيى المرتضى مخطوط ولدى الباحث نسخة مصورة منه.

6-غاية الأماني في أخبار القطر اليماني،يحيى بن الحسين بن القاسم مطبوع في مجلدين تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ومحمد مصطفى زيادة دار الكتاب العربي القاهرة 1388هـ 1968م.

7-الإمام أحمد بن يحيى المرتضى وأثره في الفكر الإسلامي سياسيا وعقائديا تأليف محمد الحاج الكمالي (دكتور) ط1 1991م دار الحكمة اليمانية صنعاء الجمهورية اليمنية.

8-الإمام الزيدي أحمد بن سليمان وأراوه الكلامية / عبد الفتاح أحمد فؤاد ط1 / 1986م. دار الدعوة الإسكندرية جمهورية مصر العربية.

9-العواصم و القواصم،الإمام محمد بن إبراهيم الوزير تسعة مجلدات ط1 دار العودة بيروت 1982م

10-قراءة في فكر الزيدية والمعتزلة / عبد العزيز المقالح " أ.د" ط1 1982م.دار العودة بيروت.

11-اليمن الجديد مجلة ثقافية شهرية العدد الثالث، السنة الثالثة نوفمبر 1977م. الأستاذ / عبد الله الحبشي.

12-اليمن الجديد العدد الأول السنة السابعة يناير - فبراير 1978م الأستاذ / عبد الله الحبشي.

البرتغاليون والفرنسيون

في اليمن والبحر الأحمر مطلع العصور الحديثة(*)

الأدميرال هنري لابروس

ترجمة : حسين أحمد الورد

مراجعة : د. حميد العواضي

يرتبط تاريخ بلاد اليمن بتاريخ البحر الأحمر .فمنذ مطلع العصور الحديثة كان هـذا البحر الضيق وشبه المغلق تحت سيطرة الإسلام الكاملة . وكانت مملكة " أكسوم "الأثيوبية قد فقدت منذ القرن العاشر الميلادي منفذها البحري المتمثل في " ارتيريا " ، وأصبحت محصورة في جبالها لمدة ستة قرون حتى وصول البرتغاليين . ففي عام 1183م قام "رونو دو شاتيون Renaud de Chatillon" بمحاولة غزو المدن الإسلامية المقدسة عن طريق البحر .بمغامرة

(*) العنوان الأصلي للمادة هو :
L'Arabie du Sud et l'Europe à l'aube des temps modernes, par Honri LABROUSSE in Joseph Chlehod, *L'Arabie du Sud histoire et civilisation* ; tome I le Peuple Yéménite et ses racines, Paris, Maisonneuve et Larose, 1984,pp.91-109.

منقطعة النظير غير أنها لم تؤت أكلها. لم تكن أي من السفن الأجنبية تستطيع آنذاك التوغل إلى البحر الأحمر . فكان يضطر أولئك الذين كانوا يأتون من الهند إلى التوقف في "بريم "(*) عند مضيق باب المندب حيث كان المرشدون يقودونهم إلى ميناء المخا . وبعد تفريغ حمولاتهم في هذا الميناء كانوا يعودون أدراجهم في طريق المحيط الهندي. فكان البحر الأحمر المحمي بشدة وحرص يعتبر بالنسبة للعرب بخاصة الطريق البحري الذي يسمح لهم بمراقبة تجارة التوابل والفلفل بين الهند وأوروبا .

فأصبحت هذه السلع النادرة التي كانت تنقلها سفن عربية إلى السويس ثم تنقلها القوافل إلى مدينة الإسكندرية حكرا لجمهورية البندقية ذات الصول و القول، التي كانت تسيطر آنذاك على كل تجارة أوروبا .

البرتغاليون في البحر الأحمر

في منتصف القرن الخامس عشرالميلادي وبناءا على رغبة " دون إنريك Don Enrique" الابن الأصغر لملك البرتغال قرر البرتغاليون انتزاع احتكار تجارة التوابل والفلفل من جمهورية البندقية . ولعدم استطاعة البرتغاليين انتزاع هيمنة البنادقة على الملاحة في البحر المتوسط حيث كان قناصلة البندقية قد استقروا في مصر، وبدورهم كانوا يقفلون الطريق على أي تأثير أجنبي هناك فقرر البرتغاليون الوصول إلى الهند، مصدر التوابل، وذلك بالمرور بافريقيا من جهة الجنوب عن طريق رأس الرجاء الصالح . ولإنجاح هذا العمل الخطير بذل البرتغاليون جهودا ضخمة .

ففي عام 1485م قام البرتغاليون بتشكيل لجنة الرياضيين الشهيرة " Janta das Methematicas " والمؤلفة من فلكيين وعلماء رياضيات برئاسة العالم اليهودي" جي . فيزنيهو J. Vizinho " . حيث قامت هذه اللجنة باختراع طرق فلكية جديدة لوصف الكون

(*) وتسمى ميون وهي جزيرة يمنية تقع عند مدخل مضيق باب المندب في البحر الأحمر (المترجم) .

Cosmogra phiqne لتحديد مواقع البلدان المكتشفة ووضع علامات لمواقعها الفلكية. وقد أعدت بطريقة سرية للغاية خرائط بحرية تبين نطاق الكرة الأرضية ووصف للسواحل والموانئ.

وبعد تسوية مسألة تقاسم المناطق المكتشفة مع اسبانيا بناء على معاهدة "تورديسياس Tordesillas" في عام 1494م، سمحت البرتغال لملاحيها، الذين دخلوا التاريخ، بالتوجه الى تلك المناطق. فقام " بارتلولوم دياز Bartholom Diaz" و " فاسكودوجاما Vasco De Gama و" كابرال Cabral" و " دالميدا D'Almeida و"ترستان دوكنها Tristan de Cunha" و "البوكيرك Albuquerque" و " لوبوسوارس Lopo Soares" و" لوبيز دو سيكيرا Lopez de Seiqueira" وآخرون يتمتعون بجرأة وجسارة غير محدودتين بالتوغل في المجهول . حيث نزلوا إلى موزنبيق وميلندي Melinde (*) وسقطرة وكلكتا وغوا Goa(*) وديو Diu وهرمز ومسقط. بالإضافة إلى سيلان Ceylan(*) وملاقة Malacca(*) ومن ثم إلى مكاو Macao.

وقد أسسوا القلاع في كل المناطق التي نزلوا إليها في أفريقيا وعُمان والخليج وجزر البحرين . وهاجموا لمرات عديدة مدينة عدن كما قاموا بقصف واحتلال الموانئ الأرتيرية وبربره وزيلع(*) وجزيرة كمران ومصوع(*) وسواكن(*) وكذلك استفزاز المسلمين حتى السويس كما سنرى لاحقاً . وبهذه الإنجازات حصد البرتغاليون معلومات جغرافية وأخرى خاصة بالتركيبة المائية للبحر الأحمر حيث اعتُبِروا وبدون منازع الغربيين الأوائل في ممارسة الاستكشافات العلمية والملاحة في هذا البحر .

كان الهدف من كل هذه الأعمال والجهود هو تجارة التوابل.وليس من المبالغة القول بأن الفلفل قد تسبب في إراقة سيول من الدماء . فقد قام " فاسكو دوجاما "(**) بنقل الصراع من أجل التوابل الذي كان مسرحه مدينة الإسكندرية حينها ما بين باب المندب

(*) تقع (ميلندي) شرق الصومال وهي مدينة ساحلية مطلة على البحر العربي، و (غوا) و(ديو) مدينتان هديتان تقعا في غرب الهند و تطلان على المحيط الهندي، و(سيلان): تقع في المحيط الهندي جنوبي الهند وتعرف حاليا بسريلنكا، (ملاقة) : مدينة ساحلية ماليزية تقع شمال شرق كوالا لمبور . و(مصوع): مدينة ساحلية تقع في شرق الحبشة ، (سواكن): مدينة ساحلية مطلة على البحر الأحمر وتقع جنوبي مدينة بور سودان في الجمهورية السودانية حاليا (المترجم)

(**) فاسكو دو غاما ، بحار برتغالي (1469-1524م) ، بدأ رحلته منطلقا من لشبونة في 4 يوليو 1497 و مر برأس الرجاء الصالح في 22 نوفمبر من نفس العام . و تمكن من بلوغ الهند لأول مرة في 20مايو 1498 حيث نزل في مدينة كلكتا. (المراجع).

وكلكتا . وبدهاء ملحوظ أوقف الملاح البرتغالي الكبير التجارة العربية من مصدريها . حيث دمر الملاحة العربية في البحر الأحمر والخليج كما أغلق تماما طريقي تجارة التوابل وهما السويس والفرات . وبهذا انهارت الإسكندرية وحلب ونقل سوق التوابل والفلفل عنوة إلى لشبونة . فكانت السفن البرتغالية تشحن هذه السلع النفيسة من موانئ الهند مباشرة وتعود عن طريق رأس الرجاء الصالح لتنقلها إلى أوروبا فيما كانت قواتهم البحرية . تدمر الملاحة العربية في المحيط الهندي، وترغم الأتراك على أن يعودوا أدراجهم حتى السويس. فكان لهذه الأحداث دوي كبير في مصر . فأخذت جمهورية البندقية القلقة تتقرب إلى مصر لمحاولة قطع الطريق أمام البرتغاليين. لأن التوابل ومنذ عام 1502م أصبحت غير متوفرة في الإسكندرية. حيث تلاشى عمليا سوق السلع النادرة هذه بسبب الإرهاب الناتج عن تواجد سفن " الفاريز كابرال Alvarez Cabral"[*] في المحيط الهندي . فتأثر السلاطين المملوكيون المستفيدون من هذه التجارة المربحة والذين كان لديهم سفن تذهب في السابق إلى الهند. وأثارتهم بشكل كبير رسائل حكام البندقية القلقين و رسلهم حول جرأة البرتغاليين . إضافة إلى ذلك قام أمراء الهند المسلمون والمتعجلون في التخلص من الطغيان البرتغالي باللجوء إلى مصر للحصول على مساعدات تتمثل في سفن ورجال . فشعر السلطان " الغوري " والي مصر المملوكي بأن مصلحته تكمن في الحفاظ على البحر الأحمر واستوعب أهمية الطريق البحري إلى الهند وطريق دخول التوابل[1] لكن بعد فوات الأوان .

فقد قام "فاسكو دوجاما" بالنزول في "كلكتا" في عام 1498م. ودون إضاعة وقت وبجرأة وقدرة فائقة على اتخاذ القرارات وصل البرتغاليون إلى باب المندب عام 1500م [2].

كما وصل " البوكيرك " إلى عمان .وسيطر على سقطرة[3] عام 1507م وحاول الاستيلاء على عدن في عام 1508م .

(*) هو بردو الفارس كابرال Predo Alvarez CABRAL بحار برتغالي (نحو 1467–1520 أو 1526م) استولى على البرازيل باسم البرتغال في 22 أبريل 1500م و استكشف سواحل موزبيق .(المراجع)

فكان أول رد فعل مصري هو قيام الأمير البحري المصري حسين(*) بمحاصرة "ديو"(4) الحصن البرتغالي الرئيسي في الهند . غير أن الأسطول البحري البرتغالي هزمه أمام ميناء " ديو " .

كما استولت البرتغال على "غوا" عام 1510م "وملقا" عام 1511م وذلك ردا على مصر. كما حاول "البوكيرك" مرة أخرى الاستيلاء على مدينة عدن لكنه فشل، ودخل إلى البحر الأحمر حيث استولى على جزيرة كمران بعد عملية عسكرية بحرية أمام "مصوع".

أجبرت هذه الأحداث الأسرة الحاكمة المملوكية في القاهرة على الاهتمام بشكل جدي بالبحر الأحمر وعلى وجه الخصوص باليمن والحجاز . فقد عرفت سنة 1513م بالحملة البحرية البرتغالية الأولى على البحر الأحمر وبحملة " البوكيرك " والهجوم البرتغالي لمرتين على مدينة عدن(5) .

ولعدم قدرته على استخدام ميناء عدن(6) توجه الأمير حسين إلى المخا وقام بالاستيلاء على السهول الساحلية مستفيدا من الانشقاق الداخلي بين الأمراء الطاهريين " سلاطين اليمن المستقلين " ونصب واليا مصريا في صنعاء في الثالث عشر من أبريل عام 1517م.

وفي الوقت نفسه انتهى حكم المملوكيين في مصر . ففي عام 1517م استولى الأتراك على مصر وأخذوا على عاتقهم جهود المصريين في جنوب البحر الأحمر الهادفة إلى انتزاع تجارة التوابل من البرتغاليين . فبدأت سفنهم بجددا بحملات على اليمن وبدعم أمراء الهند في "غوزيرات Guzerate" و " كورمانديل Coromandel" . كان الغزو المصري لليمن قد اقلق البرتغاليين مما أدي إلى حملات صليبية جديدة على البحر الأحمر. فدخل" الأميرال لوبو سواريس " إلى البحر الأحمر قادما من " ديو " في الثامن من فبراير عام 1516م بصحبة 27 بارجة و 1200 برتغالي و 1600 من الهنود من ساحل " ملبار " باحثا دون جدوى عن

(*) قائد حملة الإغاثة التي أرسلها السلطان الغوري والي مصر لمساعدة أمراء الهند وتحرير طرق التجارة من البرتغاليين وقد اشتهر فيما بعد باسم "حسين الكردي" (المترجم).

الأسطول المصري لتدميره . فبعد قصف عدن ، وجُدَّة، والدخول إلى سواكن قـام عند طريق العودة بمهاجمة " زيلع " عاصمة مملكة " عدل " و " بربرة " التي سيطر عليها كلياً .

فضلاً عن ذلك فقد أدت سياسة السلطان سليم الأول إزاء الهند إلى ردود أفعـال برتغالية فورية . فقام " الأميرال لوبيز دو سكيرا " في عام 1520م بالتوغل في البحر الأحمر كما دمر أرخبيل " دهلك " كلياً وهدد " مصوع " . وفي عام 1524م قـام " سيلفيرا " بالاستيلاء على " مصوع " بعد محاولتين، وأخضع المدينة لحكم القبيلة . وقـد احتـل " انطوان دو ميرندا Antoine de Miranda" جزيرة كمران في عـام 1523م. وأخيراً فـرض " سيلفيرا " معاهدة "ولاء " على مدينة عدن التي لم يستطع السيطرة عليها كليـاً وظلت هـذه المعاهدة مجرد حبر على ورق .و مع ذلك فإن الحملات البحرية البرتغالية لم تعـق الأتراك وحلفائهم من تأكيد هيمنتهم على كل موانئ البحر الأحمر والسـيطرة علـى ضفتيه. حيث مكث الولاة العثمانيون في عدن عام 1539م و " مصـوع " و "سـواكن " عـام 1555م وظلوا هناك لوقت طويل . وبهذا نجح السـلطان سـليم الأول في منـع البرتغاليين من دخول البحر الأحمر ولكنه لم يستطع إعادة تجارة التوابل إلى مـا كـانت عليه في السابق . علاوة على ذلك، فإنه قد ضمن أمن مصر، غير أنه لم يستطع إعـاقة بعض العمليات المتغطرسة كغارة " دوم إستيفان دو جاما Dom Estevan de Gama" والـتي اجتـاحت البحر الأحمر في عام 1541م وقصفت السويس .

تسببت تلك الأحداث في إيقاظ صراع قديم بين المسلمين وأمبراطوريـة "الكـاهن جون"(*) "الحبشة " فقررت سائر الممالك الإسلامية المطلة على البحر الأحمـر والمجتمعـة حـول الأتراك الذين كانوا يمثلون مصدر القوة والبطش الاستفادة من هــذه الفرصـة لتدمير المملكة الحبشية المسيحية التي كانت معرضة لتهديد غزو قبـائل "غـالاس Gallas" الوثنية وقوات "العدليين" المسلمة التي تشن حربا ضدها منذ قرون. وقد توجه الأحبـاش المحاصـرون بالحشود الإسلاميـة نحـو البرتغاليين وطلبوا منهـم المسـاعدة لإنقـاذ معتقداتهم الدينية .

(*) كانت الحبشة تعرف في أوروبا حينذاك باسم (مملكة القديس جون أو يوحنا) (المترجم).

وقد أدت هذه المساعدات إلى إنشاء سفارات في البلدين. حيث بعث "البوكيرك" عند وصوله إلى رأس "غاردافوي Gardafui[*]" في عام 1507م رسلا إلى النجاشي. فأسرعت "هيلينا Hélène " الواصيه على الحبشة بإرسال " ما ثيو الأرمني Mathieu l'Armenien" إلى الهند والذي قام "البوكيرك" بإرساله إلى ملك البرتغال في عام 1513م .

فأقام في لشبونة لبضع سنوات ثم أعاده" مانويل Manuel" إلى سيده مع سفير برتغالي في عام 1517م . فمات هذا السفير " كالفان Calvan" في جزيرة كمران في البحر الأحمر. بينما تمكن خليفته " ر .دوليما R. De Lima " كاهن الفاريز كابرال من الوصول إلى بلاط الإمبراطورية الحبشية. ومكث فيه من عام 1520م إلى عام 1526م . واقترح ملك الحبشة على ملك البرتغال الزواج المتبادل بين العائلتين الحاكمتين وحثه على إنشاء حصن في "مصوع". فبينما كان النجاشي في أوج قوته تعرضت هذه الفترة من التاريخ الحبشي بشكل مفاجيء إلى خطر مصدره الهجوم الشامل على المملكة والذي شنه الإمام " إبن إبراهيم الغازي " المعروف بـ " جران أو الأعسر " على رأس " العدليين " .

كانت مملكة " عدل " وعاصمتها "زيلع " قد أسستها في نهاية القرن العاشر الفتوحات الإسلامية المنطلقة من موانئ اليمن والتي كانت قد سيطرت تماما على ساحل "غاردافوي" في باب المندب .

في عام 1527م كان "ليبانا دينغل Lebana Denghel" المعروف بـ "داوود الثاني David II" - الذي تولى الحكم في الحبشة عام 1508م - ملكا منبوذا و لم يساعده أتباعه في حملته ضد الإمام " أحمد جران " الذي توغل في اثيوبيا واستولى على الأرض ووزعها بسخاء كغنيمة على رجاله المحاربين الذين كان من بينهم على وجه الخصوص 1300 جندي منجنيق من الأتراك. وكانوا يشكلون القوة الأساسية لجيوشه . وعندما شعر الملك الحبشي بالخطر أرسل جيوشه لمجابهة الإمام فأحدثت نيران المنجنيق أضرارا بالغة في صفوف الأحباش . فاصبح " أحمد جران " أكثر عنادا بعد انتصاراته، فتوغل أكثر في المملكة بمساعدة العديد

---

[*] غاردافوي: مدينة ساحلية تقع في القرن الأفريقي شمال شرق الصومال وتطل على البحر العربي (المترجم).

من الأحزاب الحبشية والتي كانت مرتبطة بانتصاراته . فقام " داوود الثاني " بحشد جيوشه بمواجهة ملك "العدليين" ولكنه خسر . وبعد هذه النكبة أوى " داوود الثاني "، ومعه بعض الأتباع المخلصين له إلى جبل شاهق هو " ديبرا دامو Debra Damo" حيث كان قد جمع ثروته إلى هناك ومات في هذا الجبل في 15 سبتمبر 1540م . وقد قام " أحمد جران " بالهجوم على " ديبرا دامو " واستولى عليه بسهولة وكذلك على أهم ثروة عرفت على الأرض كلها. وبعد وفاة " داوود الثاني " قام الأفضل من رعيته والأكثر إخلاصا للعقيدة والأكثر وطنيه بانتخاب أبنه الأكبر " كلود Claude " - الذي كان صغير السن - ملكا للحبشة ليحكم من عام 1540م إلى 1559م . ولأنه لم يكن مستعدا لمقاومة المسلمين فقد انسحب إلى " فالاشا Falashas " - أرض يهودية منيعة على مرتفع " سامن Samen أو سيمن Symen" الجبلي - لحشد قواته واستئناف الصراع . كان " داوود الثاني " قد أرسل في شهر مايو 1540م قبل وفاته مع أحد برتغاليين من "مصوع" رسالة إلى الهند موضحة الأخطار الرهيبة التي تتعرض لها المملكة الحبشية المسيحية من جراء غزو " العدليين " .

وكان حاكم الهند البرتغالية حينها " دوم إستيفان دوجاما " الابن الثاني لـ " فاسكو الكبير " . فقرر إغاثة النجاشي المعزول عن العالم والذي كان يدافع عن عقيدته مع قلة من المخلصين المؤمنين . وجهز بعناية حملة بحرية كبيرة كان من بين أهدافها شن الحرب على مصر ليقتص من الأتراك لغاراتهم على " ديو " حيث كان سليمان باشا – قائد الأسطول البحري التركي – قد أوشك على تدمير القوة البرتغالية نهائيا في الهند . ولإنهاء الأمر تماما واستعادة تجارة التوابل من البرتغاليين الذين كانوا قد احتكروها لمصلحتهم كان ملك مصر قد قرر في عام 1537م إرسال حملة بحرية كبيرة انطلقت من السويس متجهة إلى الهند تتمثل مهمتها في تحرير " ديو " من السيطرة البرتغالية، وطرد البرتغاليين نهائيا من المحيط الهندي بمساعدة أمراء الهند المسلمين . وقد عهد بقيادة هذه الحملة إلى سليمان باشا حاكم القاهره وكان قائدا بحريا عظيما لدى الأتراك ذا كفاءة عالية ودهاء كبير . وقد استغل سليمان باشا الحرب التي اندلعت عام 1537م بين الأتراك وجمهورية البندقية، فقام في 7 سبتمبر من نفس العام بالاستيلاء على بعض السفن الشراعية التابعة

للبندقية والتي كانت ترسوا في ميناء الإسكندرية لبضعة أيام بقيادة " انتينيو بارباريغو Antonio Barbarigo " الذي لم يعلم بنشوب الحرب . فاعتقل كل البحارين الإيطاليين وأرسلو إلى السويس للإبحار مع الأسطول التركي . ومع هذا الأسطول بدأت قصة أحد البحارين الإيطاليين المحتجزين والمفترض أن يكون ضابط في سفن الأسطول الإيطالي "كمراقب أو قائد للعبيد" . شهد هذا الرجل المسكين، الذي لم يذكر اسمه أبدا، حملة سليمان باشا كاملة وترك تقريرا فريدا ودقيقا جدا عن عمليات هذه الحملة . كان الأسطول التركي مكونا من 76 سفينة منها أربع بوارج . إضافة إلى ذلك كانت تنقل عددا هائلا من الجنود . فتحرك الأسطول من السويس في 22 يونيو عام 1539م مستعينا برياح شمالية مناسبة و رسى في ميناء جدة في 11 يوليو 1539م. ومن ثم في جزيرة كمران في 20 يوليو حيث مكث عشرة أيام . بسبب ما يتسم به سليمان باشا من حذر فقد قام بإرسال سفينتين استطلاعيتين واحدة إلى عدن وأخرى إلى المخا لإعلان وصوله ولطلب مؤن . وفي 3 أغسطس وصل الأسطول بأكملة إلى عدن مسببا الذعر للأمير الطاهري " أحمد "(*) الذي كان يحكم عدن لحسابه الخاص منذ سقوط صنعاء في أيدي الأتراك عام 1517م . فأرسل على الفور أربع شخصيات رفيعة المستوى للترحيب بسليمان باشا . فاستقبلهم بشكل جيد ولكنة طالب بأن يأتي الأمير بنفسه . فلبى الأمير أحمد كل رغبات سليمان باشا غير أنه رفض الصعود إلى سفينة هذا القائد البحري المريع . فانزعج سليمان باشا وأنزل رجالة الذين أقنعوا الأمير الحاكم ليأتي بنفسه للترحيب بممثل الخليفة . فسلم بالأمر وصعد على متن السفينة ولكنة تعرض للسوء فبعد أن استقبله سليمان باشا بجفاوة قام بشنقه مع أربعة من مساعديه على سواري بوارجه . وقام الجنود الأتراك بالسيطرة على مدينة عدن وهكذا ظلت المدينة في أيدي الأتراك لفترة مائة عام تقريبا.

(*)الأمير أحمد الطاهري نسبة الى السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري الذي تمركز في صنعاء و سقط بعد ذلك حكمه عندما وصل الأتراك الى اليمن غير أن مدينة عدن ظلت تحت السيطرة المستقلة لأحمد الطاهري حتى وصول الأتراك بقيادة سليمان باشا. (المترجم) .

وفي عام 1638م تقريبا قام إمام اليمن بطرد الأتراك من المدينة ولكن في عام 1738 م استولى سلطان " لحج " المجاورة لعدن على المدينة واحتفظ بها حتى عام 1839م تاريخ الاحتلال البريطاني .

ونتيجة لذلك امتلك سليمان باشا القاعدة الملاحية التي كانت ضرورية له لمواصلة حملته القوية على البرتغاليين وبعد أن ترك ثلاث سفن لحراسة الميناء وبعد شحن كمية كبيرة من البضائع أبحر في 19 أغسطس 1539م ليصل إلى ميناء " ديو " في 3 سبتمبر من العام نفسه. وكان حصار " ديو " في الحسبان . فشن سليمان باشا هجوما عنيفا على المدينة بمساعدة ملك " كامبايا Cambaia " وملك " غزيرات Guzerate " الذي كانا يحاصران المدينة من اليابسة . فذاقت مدينة " ديو " أهوال ومعاناة حصار لا رحمة فيه. ولكن الشجاعة الجامحة للبرتغاليين المحاصرين من كل الجوانب لم تضعف . حيث قرر سليمان باشا – والذي علم بالوصول الفوري للأسطول البرتغالي السنوي الضخم إلى " ديو " – رفع الحصار في 5 نوفمبر 1539م بعد أن كان على مقربة من النجاح حيث شعر بأن جيوشه المتعبة وسفنه المنهكة لن تستطيع تحمل مواجهة الأسطول الضخم الذي كان يقترب .

عبر سليمان باشا البحر العربي مستعينا بالرياح الشمالية الشرقية ورسى على جزر كوريا موريا قبالة ساحل حضرموت في 24 نوفمبر واستولى على حصن " أبر " البرتغالي حيث أسر أربعين برتغاليا ثم وصل أسطوله إلى عدن في 6 ديسمبر 1539م وبعد تحصين المدينة وتكليف خمس سفن بحراسة الميناء أبحر سليمان باشا من عدن في 23 ديسمبر. وفي 24 من الشهر نفسه رسى الأسطول التركي في خليج " رأس سيان " قبالة الساحل الأفريقي شمال " أوبوك "(*). وبعد يومين وصل إلى المخا وقرر إرساء السلطة التركية بشكل أكثر حزما في اليمن والتي فرضت من قبل في عام 1517م عن طريق القائد البحري حسين .

كما قام سليمان باشا بحملة سريعة وشديدة على اليمن لأنه كان يريد وبدون شك أن يعوض عن فشلة في " ديو " فبعد أن غزا سهل تهامة الساحلي قام بتنصيب ولاة أتراك

(*)أوبوك : مدينة ساحلية تقع شرق جيبوتي . (المترجم).

على المرتفعات اليمنية حتى صنعاء . وقد غادر اليمن في 23 فبراير 1540م منصاعا للأوامر التركية . وبعد توقف سريع في جزيرة كمران وصل إلى السويس . فعزم " دوم إستيفان دوجاما" والذي كان قد عين حاكما على الهند البرتغالية في عام 1540م والمشهور بقدرته على اتخاذ القرارات وبنشاطه على رد الضربة للأتراك وإنهاء الأمر تماما مع القوة البحرية التركية بتدمير أسطولها المتواجد في البحر الأحمر وبالهجوم على السويس القاعدة البحرية الرئيسية للأساطيل التركية . فكان لديه أربعة أسباب لحشد كل القوات البحرية البرتغالية وإرسالها لشن حرب ضد الأتراك :

السبب الأول للاقتصاص من الأسطول التركي على غارته على " ديو " محاولا تجريده من قواعده في باب المندب وكمران وعدن .

أما السبب الثاني فيكمن في إعادة السفراء الأحباش المرسلين إلى ملك البرتغال عن طريق النجاشي قبل بضعة أشهر إلى بلدهم . فمات أحدهم وهو حبشي من أصل "زنجباري" عند وصوله ، والآخر يدعى " ديرموديز Dermodez " وهو برتغالي كان قد أقام سابقا في البلاط الملكي الحبشي وعاد إلى البلاط مرتديا زي بطريرك كاثوليكي . ولسوء الحظ لوحظ فيما بعد بأن هذا البطريرك مخادع.

والسبب الثالث : إغاثة النجاشي " داوود الثاني " المحاصر بقوات سلطان العدليين أحمد جران حيث لم يكن دوجاما على دراية بوفاة النجاشي.

وكان السبب الرابع : مباشرة الملاحة في شمال البحر الأحمر حيث لم تمر أي سفينة منه حتى ذلك الوقت . وقصف وتدمير مخازن أسلحة السويس حيث كان لابد أن يلجاء إليها الأتراك لترميم أسطولهم .

قام " دوم إستيفان دوجاما " بتكثيف مصادره الملاحية واستطاع جمع أسطول مكون من أربعة وستين سفينة وأرسل ألفين رجل كطاقم للحملة بقيادة أخيه " كريستوف

دوجاما Christophe de Gama " الذي قتل في الحبشة أثناء حملة الإغاثة الموجهة ضد " أحمد جران " لإنقاذ النجاشي المحاصر "(*).

أبحر الأسطول البرتغالي من " غوا " في 31 ديسمبر 1540م . مستعينا بالرياح الموسمية الشمالية الشرقية، عبر الأسطول المحيط الهندي ووصل إلى جزيرة سقطرة "أسقفية القدامى" في 14 يناير 1541م التي سبق وأن وصل إليها " البوكيرك " في شهر يوليو عام 1507م . فقام الربان "دوم خوان دوكاسترو Dom Juan de Castro" أحد مساعدي "دوم إستيفان دوجاما" بوصف الجزيرة وسكانها بشكل فريد ومثير للدهشة في مذكراته على متن السفينة وأكد بأن شعبها قد حافظ على العقيدة الإنجيلية وأنهم وبناء على تصريحاتهم قد اعتنقوا الديانة المسيحية عن طريق القديس " توماس Thomas "[7]. فقد ذكر مايلي:

"هناك الكثير من الكنائس في الجزيرة كلها . وليس لها من شفيع سوى صليب مولانا . ويؤدي السكان صلواتهم على الطريقة "الكلدانية".

ويضيف "كاسترو" :

"إن التعليم الديني ينقصهم ويرغبون في تلقيه ويطلبون بإلحاح تعليمهم بموجب مذهب وطقوس الكنيسة الرومانية" "جميعهم مخلصون جدا للصليب لدرجة أنه من المستحيل العثور على ساكن لا يحمل صليبا على صدره".

أبحر الأسطول في 20 يناير وبعد توقف في "خبت قلنسية Ghubbet Gollonsier" في الزاوية الشمالية الغربية للجزيرة توجه إلى باب المندب ليصل في 29 يناير 1541م إلى "رأس سيان " على الساحل الأفريقي حيث كان أسطول سليمان باشا قد رسا هناك قبل ذلك بعامين .

(*) كان داوود الثاني نجاشي الحبشة الذي سبق ذكره قد بعث إثر هزيمته 1535م برسالة إلى ملك البرتغال حملها خاو برموديز Jao Bermudez وكان طبيبا للبعثة البرتغالية التي بقيت في أثيوبيا ومات النجاشي قبل الرد. وتمثل الرد بوصول قوة يقدر عددها بنحو 400 مسلح. نزلوا بمصوع في فبراير 1541م بقيادة كريسوف دوجاما. وهزم جيش جران قرب منطقة عنبا ألغوي Amba alagui في جنوب التجري وقام الوالي التركي في زبيد بإرسال مسلحين مع مدافع ودارت معركة جديدة قرب بحيرة عشنغوي Ashangui انهزم البرتغاليون وأسر دوغاما الصغير وكان عمره 26 سنة ثم قطع رأسه، أما من بقي من أصحابه على قيد الحياة فقد فر بعضهم وأخذ بعضهم إلى زبيد.(المراجع).

وبعد 48 ساعة من التوقف المخصص للمراقبة الفلكية واصل الأسطول رحلته فعبر مضيق باب المندب في 30 يناير وتوقف في خليج " حواقل " ثم بلغ " مصوع " في 11 فبراير 1541م.

كان خبر وصول الأسطول البرتغالي قد انتشر سريعا في البلاد فترل النجاشي "كلود" من جباله ليتمركز في هضبة " ارتيريا " ومنها بعث العديد من الرسائل إلى " دوم إستيفان دوجاما " مطالبا النجدة ضد العدليين . فوعده القائد البرتغالي بمساعدته وتزويده بمجموعة من رماة المنجنيق بمجرد عودته من السويس ، وسنرى لاحقا بأنه قد وفى بوعده.

في 18 فبراير توجه الأسطول نحو الشمال وبعد التوقف لمرات عديدة وخصوصا في "سواكن" "وكشر" دخل إلى خليج السويس في 23 إبريل 1541م . مجتازا بصعوبة مياه الخليج بالتجذيف. ظهرت سفن " دوم استيفان دوجاما " أمام السويس في 27 إبريل حيث وجدوا المدينة في حالة تأهب دفاعي حيث كانت قد أخطرت بذلك عن طريق العديد من الرسل برا وبحرا والذين كانوا قد تتبعوا تقدم الأسطول البرتغالي على طول الساحل. كان الأسطول التركي المكون من 41 بارجة قابعا في خليج السويس وعلى ضفافه وكان محميا بواسطة قوات تركية مدعمة بمشاة وفرسان . كانت هذه القوات مجهزة بمدافع فتحت وابلا من النار على الأسطول البرتغالي الذي لم يوفق في مفاجأة الأتراك . فقد درس " دم إستيفان دوجاما " وقادته بعناية إمكانية النزول من السفن ولكن كانت القوات التركية المدعمة بوحدات عسكرية هائلة قدمت من القاهرة متخندقه بقوة. فكانت العملية مليئة بالمخاطر. ولذلك قام القائد البحري البرتغالي بقصف المدينة بشراسة ومن ثم أنسحب لأنه لم يكن يريد المجازفة بالأسطول الأساسي للبرتغال في المحيط الهندي وإيقاعه في هذا الشرك، فقد يكلفه التوغل في هذه المناورة خسائر فادحة في العديد من سفنه وجزءا من جنوده .

وفي 28 أبريل أنطلق بمساعدة الرياح الشمالية وخرج من خليج السويس ليصل إلى "مصوع" في 22 مايو 1541م بعد أن نزل لعدة مرات إلى اليابسة لتدمير المدن العربية على الساحل المصري وتدمير القوات البحرية المعادية القابعة في الموانئ. وعند وصوله إلى

"مصوع" أنزل " دوم إستيفان دوجاما " حملة عسكرية مكونة من 1500رجل بقيادة أخيه "كريستوف دوجاما" وفاء بما كان وعد به النجاشي " كلود " لأغاثته .

فزحف الأحباش ضد الأمام " أحمد جران " الذي كان يعسكر دائما بالقرب من بحيرة " تانا Tana"(*) جاهلا تماما تجمع أعدائه . وأثناء المعركة تقدم القائد المسلم بشكل مفرط وقتل بضربة منجنيق . ففر جنوده المذعورين بموته . وقاوم الأتراك بضراوة حتى أنتهي بهم الأمر بالخسارة والموت الذي لم يستطع الإفلات منه سوى 40 رجلا من أجمالي 200 من الرجال. من جهة أخرى أصبح لدى النجاشي مجموعة صغيرة من الجنود المدربة الماهرة في استخدام الأسلحة النارية. أما البرتغاليون الذين كانوا على قيد الحياة وعددهم ما يقرب من المائة وقد مكثوا لمدة عام أيضا في الحبشة لتوطيد نجاح الجيوش الصليبية . ثم توجه معظمهم من "مصوع" نحو الهند في عام 1544م وأخرون مكثوا في الحبشة واختلطت ذريتهم شيء فشيئا بالسكان الأصليين .

كان " دوم إستيفان دوجاما " قد غادر مصوع في 9 يوليو عام 1541م وعبر أسطوله مضيق باب المندب في 18 يوليو . وبمساعدة الرياح الموسمية الجنوبية الغربية عبر الأسطول المحيط الهندي بسرعة وبلغ "غوا" في 9 أغسطس . ومع ذلك قرر الأتراك المتأثرون بمناورة "دوم إستيفان دوجاما" احتلال منافذ البحر الأحمر لحماية أنفسهم من أي عودة هجومية للبرتغاليين .

ووطدوا إقامتهم في " مصوع " في عام 1555م وهذا الاستيلاء كان قد سبقه الاستيلاء على عدن واليمن وجدة وبذلك تم إغلاق البحر الأحمر فعليا أمام البرتغاليين. أعتبر احتلال " مصوع " حدثا مفجعا لاثيوبيا التي وجدت نفسها نتيجة لذلك منقطعة عن البحر لمدة قرنين من الزمان .

أما البرتغاليون فقد عززوا تواجدهم في الهند والخليج وعلى الساحل الشرقي لأفريقيا. واحتفظوا باحتكار تجارة التوابل التي تنازل عنها الأتراك لهم نهائيا .

(*) بحيرة تقع في شمال اثيوبيا بالقرب من الحدود السودانية. (المترجم).

فحل نوع من التوازن . فاحتفظ الأتراك بالسيادة على البحر الأحمر ولكنهم لم يعودوا يستطيعون الإبحار في المحيط الهندي حيث تطور التأثير البرتغالي حتى نهاية القرن السادس عشر. وتلاشي هذا التأثر شيئا فشيئا بعد الهزيمة المزدوجة لملك البرتغال " سباستيان Sébastien" في " الخزر الكبير Alcazar Quivir" في عام 1578م والذي وضع البلاد تحت التبعية الأسبانية.

وفي عام 1660م قام الهولنديون ثم الفرنسيون والإنجليز بمتابعة ما بدأه البرتغاليون وتمركزوا شيئا فشيئا في الهند وإندونيسيا . وبهذا أقفل البحر الأحمر أمام الغرب حتى بداية القرن الثامن عشر عند عبور أولى الحملات البحرية الفرنسية والهولندية مجددا باب المندب لشق طرق تجارية جديدة واستعادة التواصل مع سكان اليمن والبحر الأحمر .

الفرنسيون في اليمن

يرجع تاريخ الحملة البحرية الفرنسية الأولى على البحر الأحمر والصومال واليمن إلى بداية القرن الثامن عشر الميلادي.

فقد قام بها القبطانان "دولا ميرفي de la Merveille"و "دو شامبلوريه لو برانde Champloret le Brun" اللذان كانا يقودان على التوالي البارجتين " الفضولي Le Curieux " و"المجتهد Le Diligent "في الفترة من 1708م إلى 1710م لحساب شركة تجارية من "سان مالو Saint-Malo ". فكانت كل واحدة من هاتين السفينتين المسلحتين لغرض الحرب والتجارة تحمل خمسين مدفعا .

كان هدف الحملة إقامة علاقات تجارية مع اليمن وبشكل خاص شراء البن اليمني الذي كان من الصعب جدا الحصول عليه في فرنسا . حيث كان يتوجب شراؤه من الأتراك في السواحل الشرقية للبحر المتوسط وأحيانا من الإنجليز أو الهولنديين .

فكان ينقل البن بعد حصاده في اليمن بواسطة سفن صغيرة إلى جدة حيث كانت السفن التركية تنقله وتفرغه في السويس ومصر .

كانت أغلب عمليات شراء البن للبلدان الأوروبية تتم بوساطة تجار البندقية ومرسيليا. بينما كان الهولنديون قد نجحوا في إقامة وكالة تجارية في المخا وكانت سفينة هولندية تأتي إليه كل سنة لتشحن البن باتجاه "باتافيا Batavia"(*) حيث ترسل مرة أخرى إلى أوروبا. أبحرت السفينتان " الفضولي Curieux " و " المجتهد Le Diligent " من "برست في 6 يناير 1708م . فبلغتا جزيرة سقطرة في 28 نوفمبر 1708م ورست الحملة في ميناء "تامارين" في 30 نوفمبر من نفس العام .

كانت الجزيرة آنذاك في أوج ازدهارها وتتردد عليها سفن هولندية و إنجليزية للحصول على مؤن أو لاصطحاب مرشدين عرب للمحيط الهندي . غير أن رداءة الماء دفعت "دولاميرفي " للذهاب إلى عدن حيث توجد صهاريج ضخمة كانت تستخدم لتموين السفن . فغادرت السفن الفرنسية سقطرة في 10 ديسمبر 1708م وتجاوزت "غاردافوي " في 13 من نفس الشهر وأبحرت على طول ساحل الصومال لمدة ستة أيام بعد أن حاولت، دون جدوى، الدخول في علاقات تجارية مع سكان تلك السواحل .

فقد استقبلتها القبائل الساحلية في منطقة " بربره " بشكل سيئ للغاية وقد تعرض طاقم زوارق مرسل إلى اليابسة لمعرفة البلاد لكمين أودى بحياة خمسة بحاراً . فأبحرت الحملة إلى عدن تاركةً تلك السواحل غير المضيافة . ووصلت في 18 ديسمبر 1708م . كانت المدينة حينذاك خاضعة لإمام اليمن . أقام الحاكم استقبالاً فخماً للسفن الفرنسية . وفي غضون عشرة أيام أكملت الحملة تزودها بالمؤن وأنجزت صفقات جيدة متمثلة في بيع جزء من بضائعها . وعند الرحيل حَمَّل حاكم عدن " دولاميرفي " رسالة توصية إلى أخيه حاكم المخا وقدم هدايا قيمة جداً لقادة السفن الفرنسية . وغادرت الحملة عدن في 27 ديسمبر 1708م . كانت نوايا " دولاميرفي " ترمي إلى معرفة عمق مياه خليج عدن قبل عبور

(*) الاسم الهولندي لمدينة جاكرتا الاندنوسية. (المراجع).

باب المندب . لذلك كان قد اصطحب مرشدين عرب للبحر الأحمر وأبحر إلى الجنـــــوب الغربي بمجرد خروجه من مياه عدن .

في صباح يوم 29 ديسمبر لمحت السفن الفرنسية الجزر والشاطئ فدخلـــت خليـــج "تاجوره Tadjourah "(*) مارة بين الجزر والساحل الشمالي للخليج. وعلى الرغم من رغبـــة "دولاميرفي" الجادة في الإقامة في "تاجوره" إلا أنه لم يمكث فيها سوى بضع ساعات لأنـــه كان متعجلا الوصول إلى المخا . وقد غادر "تاجورة" بعد أن أقام علاقات طيبة جدا مـــع السلطان، و قدم له العديد من الهدايا، وحرر تقريرا لوزير بحرية لويس الرابع عشر "جـيروم دو بونتشارتران Jérôme de Pontchartrain" عن زيارته التي انتهت بهذا التعبير:

"لم أغادر خليج تاجوره دون أسف بسبب جمال البلد والمعرفة المفيدة للتجارة التي قد يمكن الحصول عليها من ذلك المكان الذي كما يبدو لي أنه لما يتحـــدث عنـــه لا الرحالـــة ولا البحارة".

وبعد توقف قصير في مسكالي وفي في جزر "موشا Musha" توجهت السفن الفرنسـية نحو باب المندب. وتم العبور بسهولة من هذا الممر الصعب ورست الحملـــة الفرنســـية في خليج "راهيتا Raheita" في 1 يناير 1709م لاتخاذ أخر الترتيبات قبل الوصول إلى اليمن.

وفي 3 يناير عام 1709م توجهت الحملة الفرنسية إلى ميناء المخا أي بعد عـــام مـــن رحيلها من "سان مالو" . قام "دولاميرفي" بزيارة حاكم المدينة الشيخ صالح الحريبي وسلمه توصية أخيه حاكم عدن . فقامت العلاقات مباشرة في جو من الثقة والصداقة مما ســـهل بشكل ملحوظ إقامة الحملة الفرنسية . فكان الأوروبيون الوحيدون المقيمـــون في المخـــا آنذاك هولنديا واحدا كان يدير وكالة تجارية لشراء البن ومبعوثين إيطـــالين " ريكوليـــه Recollets " فاستقبلهم الفرنسيون بتقدير كبير وحصلوا عن طريقهم على العديـــد مـــن المعلومات التي ساعدهم على وضع أقدامهم في البلاد وازدهار أعمالهم .

(*)تاجورة : مدينة ساحلية تقع في شرق جيبوتي . (المترجم)

وبعد أسبوع من النقاش وقع " دولا ميرفي " وحاكم المخا صالح الحريبي في 16 ينـاير 1709م معاهدة عادلة وملزمة أرضت الحملة الفرنسية في كل النواحي .

كانت المميزات التالية تمنح للبحارة الفرنسيين خاصة:-

- إمكانية الشراء المباشر للبن من اليمن وبكميات كبيرة .
- تخفيض ضخم في رسوم الجمارك المفروضة على البضائع التي تجلبـها السـفن الفرنسية والحرية الكاملة في بيع هذه البضائع .
- السماح بإقامتهم على اليابسة مع راياقم وإنزال الطاقم والتجهيزات .
- الحرية المطلقة في ممارسة ديانتهم والتجول كما يشاءون كضيوف لملك اليمن.

وبالمقابل ألتزم " دولاميرفي " بتوخي الحيادية التامة في مرفيء المخا أمام سفن الأمـم الأخرى التي كانت فرنسا في حرب معها . وكانت بنود أخرى تقضي بتسوية المخالفـات القضائية ومعالجة النـزاعات التي قد تطرأ بين الفرنسيين واليمنيين أثناء إقامة الحملـة في المرفيء . كان اليمن آنذاك بلد شبه مستقل تحت سلطة الأمام المهدي لدين الله محمد أحمـد بن الحسن القاسم المقيم في " المواهب " .

كان لدى هذا الملك علاقات مع سلطان القسطنطينية وكان تابعاله نوعا ما . بيد أن تأثير الأتراك توقف عمليا في جدة حيث كان لهم هناك والي يمثل الباب العالي .

كانت المخا حينذاك مدينة ذات 10,000 نسمة وكان سوقها يعتبر الأهم على سـاحل الجزيرة العربية في كل ما كان يتعلق بشراء وبيع البن بالجملة . وكان " دولاميرفي " ورفاقه من أوائل الفرنسيين الذين قدموا إلى بلاد العرب عن طريق جنوب البحر الأحمر. لقد كـان لحجم بوارجهم وللمنشئات التي أقاموها على البر وبفضل حميمية حاكم المخا والإمكانيات المالية التي يملكونها أن تولد عنهما انطباع ممتاز في مختلف البلدان .

وبمساعدة التجار العرب استطاعوا بيع بضائعهم بسهولة وشراء كميات ضخمة من البن والذي شحنوا به سفنهم الثلاث.

وبعد إقامة استمرت قرابة ثمانية أشهر في المخا في جو من التفاهم والصداقة توجهت الحملة إلى " سان مالو " في 20 أغسطس 1709م . وَدَّعَ" دولاميرفي " حاكم المخا الذي حصل منه على وعد بإرسال سفن فرنسية إلى السواحل اليمنية مرة أخرى. وأمام النجاح الذي حققه " دولاميرفي " في حملته على السواحل اليمنية للفترة من 1708م إلى 1710م قررت شركة تجار الجملة بسان مالو مباشرة حملة أخرى بالاستفادة من العلاقات الجيدة التي اكتسبها الفرنسيون على سواحل الجزيرة العربية . فجهزت بذلك بارجتين هما السلامLa Paix ، والمجتهد Le Diligent " التي كانت قد شاركت في الحملة الأولى، ووضعتهما تحت إمرة " دولالند de la Lande" و " دو بريزلن de Briselaine" وهما قبطانان ذوا خبرة عالية .

كان "دولا ميرفي " الذي أنجز الحملة الأولى بنجاح قائد هذه الحملة أيضاً. وفي 4 يناير 1711م أبحروا من " سان مالو " . وبعد المرور من رأس الرجاء الصالح ولكون السفن الفرنسية متعجلة في الوصول إلى المخا فقد أخذت طريقها عبر قناة موزنبيق بغية الوصول إلى سقطرة بسبب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التي كانت تهب بعنف في تلك الفترة من السنة .

ولعدم إضاعة الوقت ولانتظار انتهاء الرياح الموسمية عبرت الحملة الفرنسية المحيط الهندي ووصلت إلى "بونديشيري Pondichéry"(*) حيث مكثت هناك حتى انعكاس اتجاه الرياح . ترك " دولاميرفي" بونديشيري في بداية شهر أكتوبر من عام 1711م ووصل إلى عدن في 18 نوفمبر من نفس العام . كان قد اصطحب معه إلى الهند " دولا جرو لوديير De la Grelaudière " ضابط مشاه في محمية " يونديشري " (ويعتبر نبيهاً وحسن السلوك وكان يعرف بما فيه الكفاية اللغات العربية والشرقية لكي لا يكون مخدوعاً بالمترجمين).

(*)بونديشيري : مدينة ساحلية مطلة على المحيط الهندي وتقع في جنوب شرق الهند جنوبي مدراس. (المترجم)

رست الحملة بأكملها في المخا في 2 ديسمبر 1711م . وكان حاكم المخا هو نفسه الذي كانوا قد التقوه في عدن أثناء الحملة الأولى . كان أخوة قد ترك المخا ليصبح الوزير الأول لإمام اليمن. وبشكل فوري أوجدت طريقة تعامل "دولاميرفي" والسلطات المحلية طابع من المودة المنقطعة النظير وبدأت العمليات التجارية بسرعة .

كان ملك اليمن المسن ذو السبعة والثمانين عاماً والذي كان يقيم في " المواهب " بداخل البلاد يعاني كثيراً من دمامل " تقيح " في الأذن . ولكونه قد سمع عن مهارة الأطباء الفرنسيين فقد طلب من "دولاميرفي" أن يرسل إليه سفيراً لرغبته للتحدث معه وأن يصحب معه طبيباً .

وأختير " دولا جرولوديير " لهذه المهمة وغادر المخا في 14فبراير 1712م مع "باربيه Barbier " جراح البارجة " Le Diligent " ومجموعة من الأتباع .

رحلوا بالخيول برفقة موكب مكون من مجموعة من فرسان الحرس الملكي اليمني والعديد من جنود الأمام النظاميين.

بلغت السفارة " المواهب " في 22فبراير من نفس العام حيث استقبلها هناك الشيخ صالح رئيس الوزراء والذي كان كما رأينا حاكم المخا اثناء الحملة الأولى. وبفضل عناية الطبيب " باربيه " المتميزة خضع الأمام لمعالجة فعالة وفي غضون ثلاثة أسابيع شفي تماماً . وبذلك تولد لدى الأمام شعور بالصداقة الحميمة نحو الجراح الفرنسي فغمرة بالهدايا والرعاية . استفاد " دولا جرولوديير " من الإمكانيات الجيدة هذه وحصل من الملك على مقابلات متكررة وكان العاهل يطرح عليه أثناءها ألف سؤال وسؤال على حالة فرنسا وقوة لويس الرابع عشر وعظمة البلاط في فرساي وقصوره وعلى الفضائل الشخصية لملك فرنسا .

أحاط إمام اليمن الفرنسيين بعناية يقضه وسَخَّر كل انتباهه وسلطته لكي يعاملوا بالحد الأقصى من التقدير . وكانت تخصص لهم جولات طويلة في الريف المجاور وكان

أمنهم محط التعليمات الصارمة والمحددة . وأثناء إقامة " دولا جرولوديير " في المواهب شهد وصول سفارة تركية مرسلة من سلطان القسطنطينية جاءت للاحتجاج علـــى تخفيـض عمليات إرسال البن إلى مصر والذي كان يصرف من هناك إلى أوروبا .

جاء السفير التركي للاحتجاج أيضا على دخول السفن الأجنبية إلى البحر الأحمر من الجنوب لشحن البن مباشرة من اليمن وكان يتهم الأوروبيين وخاصة الفرنسيين بحرمـــان التجارة التركية والمصرية بذلك من مصادر دخل مهمة .

على الرغم من تواجد هذا الوزير التركي حافظ ملك اليمن على ما جاء في المعـاهدة التي كانت قد وقعت في 16 يناير 1709 بين " دولا ميرفي " وحاكم المخا، وقد سمح للسـفن الفرنسية بشحن ما تستطيع حملة من البن وبنفس الأسعار المحددة أثناء الحملة الأولى . حتى أنه حمل السفينة " الفضولي Le curieux " حصة ضخمة من البن من محصول مزارعه الخاصة وكان يرغب في تقديمها إلى الملك لويس الرابع عشر .

ترك " دولا جرولوديير " والطبيب " باربيه " وحاشيتهما المواهـــب في 18 مـــارس 1712م وأنجزوا رحلة رائعة إلى المخا حيث وصلوا هناك في 21 من نفـــس الشـــهر . فقـــد ودعهم الملك وحملهم العديد من الهدايا الثمينة لهم ولكل أعضاء الحملة . كانت إقامتـــهم في بلاط الملك تمثل نجاحا مكتملا وكان الطبيب (باربية) الذي اسف الجميع على مغادرتـه قد اكتسب سمعة كبيرة في البلاد عن مواهبه الطبية والعديد من حالات الشفاء . مكثـــت السفن الفرنسية ثلاثة اشهر أيضا في المخاء لاستكمال شحنها . وتحركت في 10 يوليـــو 1712م وبعد الرسو في جزيرة "لاريونيون La Reunion " بلغت سان مالو في 11 يونيو 1713م. كان " دولاميرفي " أثناء إقامته الأولى في المخاء المتصرف باسم مليكه لويس الرابع عشر قد وقع في 16 يناير 1709م مع حاكم المخاء صالح الحريبي المتصرف باسم إمام اليمن معـــاهده عادلة وملزمه تعطي فرنسا مميزات تجارية هامة . وعلى وجه الخصوص لم تكن البضـــائع الفرنسية تدفع سوى 2,5 % من رسوم الجمارك عند دخولها الى اليمن وكانت الشـركات الفرنسية تستطيع الإقامة في البلد وتشتري منه مباشرة البن بكميات كبيرة .فضلا عن ذلك

فقد منحت مميزات أخرى للفرنسيين لا يستهان بها وهو الشيء الذي أثار غيرة القـــوى المنافسة أي بريطانيا العظمى وهولندا .

كانت شركة الهند الشرقية التي أسسها "كولبرت Colbert"في عام 1664 م قد وضعت هدف يتمثل في إقامة تجارة منتظمة مع الهند وشراء الوكالات التجارية البرتغالية القديمـــة لتستحوذ على طرق العصور الوسطى التجارية المتمثلة في الخليج الفارســـي وسوريـــا والبحر الأحمر ومصر . كانت قد استفادت كذلك من بنود معاهدة "دولاميرفي" للإقامة في المخا والدخول مع اليمن في تجارة مهمة ومربحة .

استفادة شركة الهند من فترة السلام الطويلة بين 1715م و 1740م التي جاءت على إثر معاهدات "اولترخت Ultrecht " و راستاد Rastadt " و " باد Bade " و " أنفير Anvers " قد تطورت بشكل كبير وكانت تلعب دورا هاما كقوة إقليمية وغازية . فكانت ســـفنها المسلحة بقوة تشكل قوة بحرية مدربة تدريبا جيدا وكانت تدعم مصالحها وتدافع عنـــها في كل مكان .

وكان لدى شركة الهند أسباب هامة للانزعاج من حكومة المخا عند منتصف القرن الثامن عشر في عام 1736م .

ففي بادئ الأمر كانت هذه الأخيرة تعطي لمعاهدة 1709م تفسيرا مختلفا تماما عـــن التفسير الخاص بالشركة. كانت حكومة المخا تزعم، بناء على مشورة الانجليز السـوية، أن البضائع الفرنسية التي كانت لابد أن تستفيد من تعريفة جمركية تفضيلية تقدر بـــ 2.5 % بناء على المعاهدة هي البضائع المستوردة بشكل مباشر من فرنسا بينما كـــانت الشـركة تدعي بأنها تتعلق أيضا بتلك التي كانت تستوردها من وكآلاتها التجارية في الهند . فكـــان الإنجليز المقيمون مثل الفرنسيين في الهند يرون بقلق البضائع الفرنسية وهي تدخل إلى اليمن تحت حماية جمركية خاصة وكانوا يبذلون الجهود لإلغاء معاهدة 1709م التجارية بين فرنســا واليمن .

كان هذا التباين في التفسير قد سبب للشركة منذ سنوات مضايقات ومتاعب لا تحصى يضاف إلى ذلك قضايا ابتزاز أضرها إضرارا جسيما .

نتج عن ذلك انخفاض تجارتها مع اليمن إذ لم تعد فوائدها تساوي رؤوس الأموال المبذولة في هذه المنطقة . لذلك قررت الشركة التصرف وتعديل الوضع بعد أن حصلت على موافقة لويس الخامس عشر ملك فرنسا. لم يكن هدفها تدمير المدينة التي قد يكون خرابها ضارا بتجارة الشركة كما قد يكون نذير شؤم لعلاقاتها المستقبلية مع اليمن، ولكن إنفاذ العدالة وتطبيق المعاهدة التي ما تزال سارية المفعول . غير أنه إذا كان من المهم بالنسبة لها الحفاظ على سلامة التجارة مع اليمن ومراعاة سكان المخا في هذا الأمر فإنه كان يتوجب من جانب أخر أن يكون تدخلها العسكري ناجحا لكي لا تجد نفسها مطرودة ومقصاه في المستقبل اليمن .

إذ كان الوضع حساسا جدا، فتشاور مجلس الشركة لوقت طويل في "بوند يشيري" قبل اتخاذ القرار . تبنى في أخر الأمر القرارات التالية :

- القيام بعملية استعراض القوة في المخا لاستعادة مكانة الشركة .
- الاستفادة من الوضع الراهن لإصلاح الماضي وإبرام معاهدة أكثر تماسكا وفائدة.

تلقى قائد أسطول الشركة تعليمات بالاستيلاء على أحد الحصون الحامية للمدينة وإن أمكن على الحصن الشمالي وبالتمركز فيه، وإخطار حكومة المخا بأنه قد تهاجم المدينة وتدمر إذا لم تأت باتفاق وإذا أصرت على عدم منح التعويضات التي طلبت منها .

كان هدف الحملة استخدام القوة طورا والإقناع طورا آخر لتحاشي القطيعة وللحصول على ما يرضيها مع مراعاة مشاعر سلطات اليمن .

وقد أختار المجلس كقائد للأسطول ورئيسا للحملة السيد " دولا جارد جازير de la Garde Jazier" إبن أخت " دوجوى تورين Duguay- Trouin"(*) الشهير والذي كان منذ عدة سنوات في خدمة الشركة كقائد سفينة. كلف بأوامر الملك وأوامر الشركة ورسمت لـــه خطة مفصلة للحملة متروكا لحذره وقدراته الحرية في إتباع أو تغيـــير موادهـــا بحســب الضرورة .

كان مؤدى هذه الأوامر أنه بمجرد أن تصل السفن إلى مرفىء المخا في حاله رد الفعل تبعث رسائل مكتوبة من مجلس الشركة إلى الأمام والحاكم، وبدون انتظار ردودهم يبـــدأ العمل بالخطة . ومع ذلك كان تم تحديد أنه ليس من الواجب على الإطلاق التوقف عـــن التفاوض للحصول على تسوية، وأنه يبقى قبل البدء في أية مفاوضات ضرورة الحصول على رهائن " من مرتبة ذات تأثير في تلبية مطالب الحملة " في هذه اللحظة قام "دو لاجـــارد جازير " بتجهيز أسطوله المكون من أربع سفن شراعية .

وبعد صعود مجموعاته المكونة من 330 جنديا من السرايا البحرية وبعـــد توقفـــه في "غوا" التي تزود فيها بالمؤنه وبالبضائع التي كانت تنوى الشركة بيعها في اليمن. قـــام "دو لاجارد جازير" بعبور المحيط الهندي ليصل إلى سقطرة في 27 نوفمبر 1736م وهناك تـــزود بالماء وما يحتاجه للعيش . ثم زار الجزيرة وكانت مفاجأته كبرى عندما وجد فيها قبـــائل مسيحية وقد قال في رسالة:

" بأن هذه القبائل لا تحتفظ إلا بفكرة بسيطة عن المسيحية نظرا لانعدام المبشرين وهـــذه القبائل التي تعيش داخل الجزيرة خاضعة للعرب وحدهم اللذين يحتلون الساحل بالأعمـــال التجارية وهذه التجارة عبارة عن تبادل المواشي والبخور واحجار الشب مقابل النســـيج والأرز مما يحتاج إليه في هذه الجزيرة".

وفي يوم 9 يناير 1737م أبحر " دو لاجارد جازير " متجها إلى باب المنـــدب وهنـــاك أطلق إحدى السفن لكي تذهب وتتعرف على مدينة المخا ولكي تخبر وكلاء شركة الهند بأن عليهم الخروج من المدينة .

(*) René Duguay-Trouin بحار فرنسي ولد في سان مالو (1673-1736م) اشتهر إبان حرب لويس الرابع عشر ضـــد الإنكلـــيز والهولنديين وأصبح قائدا في حملة استيلاء فرنسا على ريودي جانيرو (المراجع).

وحسب بعض المؤرخين الإنجليز بأن " دو لاجارد جازير " استولى في طريقة على " بريم " وامتلكها باسم ملك فرنسا ولكن رغم بحثنا في يوميا سفن الحملة لم نستطع أن نجد أثرا يشير إلى هذا الاحتلال . وفي يوم 25 يناير رسى الأسطول الفرنسي في المخا وأخذت كل سفينة مكانها حيث سدت كل منافذ الميناء ، وبشكل يجعلها قادرة على احتمال مدافع الحصون التي تحمي المدينة .

وفي هذه اللحظة قام حاكم المخا بإجراء الاستنفار وتمركز لتوه في حصون الشمال والجنوب وأرسل الرسل إلى جميع الاتجاهات لإخبار الكل عن الخطر الذي هو فيه . أما "دو لاجارد جازير" فقد أراد أن يستغل مفاجأة الحاكم وينزل قواته لاحتلال حصن الشمال ولكنه وجد القيام بذلك مستحيلا أمام الرياح المعاكسة والتي أرغمته على الانتظار حتى يهدأ الجو .

وظل نزول القوات مستحيلاً أمام عواصف الجنوب التي ظلت لبضعة أيام .

وفي هذه الأثناء أراد قائد الحملة أن يستغل الوضع بتبادل بعض الرسائل مع حاكم المدينة ويطلب منه بعض التعويضات عن الخسائر التي تحملتها الشركة ويعرض عليه نواياه ويكلفه بإيصال رسالة إلى الإمام من مجلس الشركة غير أن الجو السيئ كان يقلق الفرنسيين وكان يسمح للمدينة باستقبال الدعم عن طريق البر .

وبعد تبادل جديد للرسائل مع الحاكم وبعد أن اظهر أنها لم ترض " دو لاجارد جازير " لذلك بدأ بقصف المدينة في الأول من فبراير . فاستخدم اليمنيون ما لديهم للرد على هذا القصف مما أدى الى زيادة حدته . غير أن رد الحصون كان غير مُحكم تماماً فقرر قائد الحملة، مدركاً حالة المدافعين اليمنيين بأنها أضعف مما كان يتوقع، تغيير الخطة. ولم يعد المقصود هو الاستيلاء على حصن الشمال ولكن كانت أعماق وطول الساحل غير معروفة لدى الغزاة، ففي هذه الظروف قد يؤدي النزول إلى الساحل إلى أخطار جسيمة.

إضافة إلى ذلك قد يؤدي الجو السيئ إلى قطع الاتصال بين الأفواج التي ستهبط إلى الساحل وبين السفن . وإذا لم يكن بالاستطاعة الاستيلاء على حصن الشمال فقد تضطر الحملة للقيام بانسحاب مخزٍ يغدو أكثر صعوبة بسبب نقص الماء والمؤن.

فبعد تفكير عميق قرر " دو لاجارد جازير " بأن يترك حصن الشمال ويهاجم حصن الجنوب، فبالنسبة لهذه العملية سيكون الأمر مريحاً جداً لسفنه والاتصال بينهم سيكون اكثر سهولة . إضافة إلى ذلك، وبفضل هذا الوضع الجديد، فإنه سيغلق ساحل المخا ويمنع كل المساعدات من الدخول إليه.

كان القصف على المدينة قد أفزع اليمنيين كثيراً وظهرت ضرباتهم غير فعالة إذ كانت بشكل عام تسقط في نصف المسافة بين الساحل والسفن. وبعد القصف كان حاكم المخا صائباً بإرساله بعض الرسائل الجديدة لـ" دو لاجارد جازير " محاولاً إيجاد مجال للتفاهم . وما أنفك الجو السيئ يمنع كل محاولة للنزول بالقوة واستمر قائد الحملة بالمراسلة وهو يعرف بأن المحادثات لن تفضي إلى شيء حاسم كون رد الأمام لم يكن معروفاً. وبعد عدة أيام هدأت الرياح وهنا قرر " دو لاجارد جازير " بعدم تأخير النزول المخطط له وعدم تأخير الهجوم على حصن الجنوب الذي سيشكل الاستيلاء عليه ضمانة أكيدة لفتح باب المفاوضات . وفي ليلة 14و 15 فبراير وبهدوء شديد نزلت حشود دو لاجارد جازير، وعند الفجر قامت القوة بالهجوم عن طريق ساحل صغير يقع بالقرب من الحصن مباشرة .

وهكذا قامة السرايا الثلاث بالهجوم واستولت على الحصن .

في هذه الظروف قام حاكم مدينة المخا الذي أفزعه نجاح الحملة الفرنسية بإرسال شخصية مهمة تنوب عنه وهو مسئول بيت المال في المدينة . فاستقبله " دو لاجارد جازير" وأملى عليه شروطه :

- **يجب على الأمام دفع كل تكاليف الحملة الفرنسية منذ مغادرتها للهند .**

- أن يعيد حاكم المخا المبالغ التي أخذها من الفرنسيين ما فوق 2.5% من رسوم الجمارك المفروضة على بضائع الشركة .
- أن يعيد أيضا كل المبالغ التي سلبها بشكل أو باخر من مندوبي الشركة .
- على سلطات المدينة تزويد معسكر الفرنسيين كل يوم بالماء والطعام .
- وأخيرا يحضر أحد مندوبي الإمام ويمنح للفرنسيين امتيازاتهم السابقة ويبرم اتفاقا قويا دائما.

نقلت الشروط للحاكم مع الاحتفاظ بمسئول بيت المال كرهينة .

وبعد محاولات تخويف عن طريق أمير تعز ، وهو أخو الأمام الذي دخل المخا بمجموعة من الأفواج ولكنة لم يحصل على أي نجاح أو تأثير على الفرنسيين، و قرر الإمام إرسال أحد الوزراء إلى المخا ليدخل في مفاوضات مع "دو لاجارد جازير ". بدأ هذا الوزير الذي يعتبر شخصية كبيره جدا بعزل حاكم المخا لضعفه وعدم مقدرته، وبعد جلسة من المفاوضات وافق على شروط الفرنسيين ماعدى ما يخص تعويض مصاريف الحملة لأنه شرط رأى الإمام انه مبالغ فيه وليس في محله. سار الاتفاق على هذه القواعد وبعد توقف، تقدم " أمير تعز" الذي يعي مدى قوة الحملة وأقترح القيام بتحالف معهم و يتم الاستيلاء على مدينة المخا معهم، وبعد ذلك يتم الزحف نحو المدن الداخلية ليتم الانقلاب على الأمام والاستيلاء على عرشه. أما " دو لاجارد جازير " فقد بدأ المحادثات بهدف إنشاء معاهدة جديدة للتجارة.

ولضمان تنفيذ الهدنة بشكل جيد تم تبادل بعض الأسرى، وفي يوم 9 مايو 1737م حصلت المعاهدة على اعتراف رسمي من قبل الإمام وتم تطبيقها وحصلت شركة الهند على الامتيازات اللازمة وبشكل تام. إضافة إلى ذلك فقد سمح للمسئولين الفرنسيين بالاستقرار في المخا وسمح لهم بشراء الأراضي وإنشاء علاقات دبلوماسية مباشرة بين ملك فرنسا وامام اليمن وذلك عن طريق افتتاح قنصلية فرنسا في المخا وعن طريق التبادل البريدي المنظم.

وفي هذا الوقت أصبحت نتائج المعاهدة الفعالة ملموسة وأصبحت العلاقات تـــأخذ طابعاً حميماً ، وتم تعيين رئيس وكالة الشركة الهندية " السيد انغـــران Ingran" كقنصــل لفرنسا .

أمـــا دو لاجـــارد جازير وبعـــد أن نجح وبشكل تام في مهمته أبحـــر باسطوله في 21 يونيو 1737 متوجهاً إلى بونديشيري .

الهوامش

(1) كان السلطان قنصوة الغوري والي مصر قد علم بالدمار الذي حل ببوارجه الناتج عن هجوم "كبرال"(9مـــارس1500م–31يوليو1501م).فسارع بارسال مبعوث خاص الى كلكتا وكلفه بدعوة ملك هذا البلد الى اغلاق وكالاته التجارية أمـــام السفن البرتغالية. أنظر le journal de PRIULI dans R.FULIN(Diarri diaristi Veneziani, Venise) 1881,p.164-168

(2) شن أحد مساعدي فاسكو دو جاما ويدعى "فانستها سودريه Vincent Sodré" هجوما على التجارة العربية عند مدخل البحر الأحمر(1502–1503م). وقام "دييغو فيرنانديز بيريرا Diego Fernandez Pereira"،أحد القادة المساعدين لفاسكو دو جاما، بزيارة جزيرة سقطرة وغاردافوي. أنظـــر J.Ph.BERJEAN:(Calcoen, a Dutch narration of the second voyage of V. de Gama to Calicut, printed at Antwerp circa 1504, with intro. And translation), Londres 1874.

(3) استولى "تريستان دو كنها" على جزيرة سقطرة في عام 1507م ونزل "ألبوكيرك" في هرمز Dames M.L., The Book) of Duarte Barbosa (1918)

(4) سحق البرتغاليون الأمير حسين وأسطوله أمام مدينة "ديو" . كان هذا الأسطول قد توقف بعض الوقت في جزيرة كمـــران ومرفئ المخا و دخل الى عدن بشكل يحمل طابع الصداقة. أنظر Yahya chroniqueur yemenite (Oriental Fol.) 1304 de la Bibliohteque de Berlin)(Ttaduction faite en 1930 par A.Sekaly Bey au Caire).

(5) نقل السند التاريخي ليحيى – مؤرخ يمني – هذه الأحداث مؤرخة بشهر مارس من عام 1512م. أنظـــر Damiano de) Goes, chronica, t.II p. 214). كان أسطول الأمير حسين في جزيرة كمران غير أن السلطان قد منع تزويد المصريـــين بالمؤن . أنظر chroniques de Qutb Ed-Dine et de Yahya, Notices et Extraits de S.de Sacy, t,IV, p.) 422 et suiv.).

(6) في شهر أغسطس من عام 1516م لم ينجح الأمير حسين في الاستيلاء على مدينة عدن غير أن (بارس باي Bars Bey) قاد همة الغزو العثماني على اليمن.

(7) قام القائد البحري "دو لا جارد جازييه" باثبات الأمر نفسه في عام1737م عندما توقف لبعض الوقت في جزيرة ســـقطرة أثناء حملته على المخا.

المراجع

1. A.KAMMERER, le Routier de Dom Joam de Castro, L'exploration de la mer Rouge par les Portugais en 1541- Librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1936 .
2. A.H.M. JONES et E. MONROE- Histoire de l'Abyssinie- Payot, Paris 1935.
3. Th . ASTLEY – The voyage of D. St. de Gama from Goa to Suez with the intention of burning the turkish galleys in that port- Londres, 1746 .
4. Abbé PREVOST – Histoire Générale des Voyages- Didot, Paris, 1746.
5. J .B. COULBEAUX – Histoire Politique et religieuse d'Abyssinie depuis les temps les plus reculés jusqu'à l'avènement de Ménélik II- Paris, 1929.
6. H. Le Roux – Ménélik et nous – Nilsson, Paris
7. C . GUILLAIN – Documents sur l'histoire, la géographie et le commerce et l'Afrique Orientale – Arthus Bertrand, Paris.
   W . DESBOROUGH COOLEY – Histoire Générale des voyages de découvertes maritimes et continentales depuis le commencement du monde jusqu'à nos jours- Traduit de l'anglais par AD . Joanne-Paulin, Paris , 1840.
   Abbé A. POUGEOIS – L'Abyssinie son histoire naturelle politique et religieuse depuis le temps les plus anciens jusqu'à la chute de Théodoros- J. Pougeois, Paris, 1868.
8. James BRUCE, Esq . – An interesting narrative of the travels into Abyssinia to discover the source of the Nile- Londre, 1800.
9. Ed.COMES et M. TAMISIER – Voyage en Abyssinie dans le pays des Gallas de Chaos et d'Ifat- L. Desessart, Paris,1938.
10. William JAMES – The Naval History of Great Britain – Richard Bentley, Londres, 1837.
11. M.TAMISIER - Yoyage en Arabie Heureuse – 2 tomes – L.Desessart, Paris, 1840.
12. Voyage dans l'Arabie Heureuse par l'Ocean Oriental et le déteroit de la mer Rouge fait par les Français pour la première fois dans les années 1708-1709-1710- Amesterdam-MDCCXVI.
13. Paul Emile BOTTA – Relation du Voyage dans l'Yemen – B . Duprat Paris 1841.
14. Voyage o la mer Rouge sur les côtes de l'Arabie par Eyles Yrwin- traduit par M.Parraud – 2 tomes – Briand, Paris, 1792.
15. Abbé DESFONTAINES – Relàtion de l'expédition de Moka en l'année 1737, Paris 1739 .

16. Dominique Froment – Du commerce des Européens avec les Indes par la mer Rouge et l'Egypte- Paris, An VIII.
17. Ch.ROUX – Les origines de l'expédition d'Egypte – Paris,1910 .
18. FROIDEVAUX- La oplitique coloniale de Napoléon Ier.
19. PRIESTLEY –France overseas though old regime- New York, 1930.

من محاور الأعداد القادمة

محور قضايا الترجمة والمصطلح:

- دور الترجمة في تدعيم اللغة العربية.
- الترجمة وحوار الثقافات.
- نظريات الترجمة المعاصرة.
- القضية الاصطلاحية وترجمة العلوم.
- ببليوغرافيا علم الترجمة.

الحوار بين الثقافة العربية والصينية (*)

صُورة الصين في الإعلام العربي

أ. عبدالله شقران (**)

تمهيد

لأجل إنجاز دراسة حول بلاد الصين في الإعلام العربي كان لابد من القيام بالمساعي التالية:

أولاً: الاتصال المباشر بشريحة للرأي العام العربي من خلال فئتين اثنتين:

أ- التوجه مُشافهَة ومن غير سابق إعداد إلى خليط من الموظفين والعمال والطلبة العرب، رجالاً ونساءً، بالسؤال للإجابة عمّا يعرفونه عن بلاد الصين وأهل الصين.

(*) المجلة العربية للثقافة، س19، ع 38، مارس (آذار) 2000، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ، ص ص 116-150.

(**) الأمين العام السابق لاتحاد إذاعات الدول العربية وخبير إعلامي بارز.

ب- توجيه استمارة مكتوبة مبسطة إلى طائفة من العرب العاملين في حقل الإعـــلام والاتصال، مع الطلب إليهم بالإجابة عنها، إن شاؤوا ذكرنا أسماءهم، وإن شاؤوا عدلنا عن إثباتها.

وكان فحو تلك الأسئلة مايلي:

1- بوصفكم عربياً بماذا يُوحي إليكم اسم الصين؟

2- ما هي الصين في تصوركم الشخصي؟

3- هل تشعرون بأنها بعيدة عن البلدان العربية جغرافيا وتاريخيا وثقافياً؟

4- هل تعلمون شيئا عن مميزات أهلها؟ وماذا تظنون عنهم؟

5- ما هي الصورة السياسية التي قد تكون لديكم بشأن الصين قديما وحديثا؟

ثانيا: الحصول على المتيسر من الصحف والمجلات العربية والمنشورات التي تنـــاولت خلال الفترة الحديثة جانبا أو أكثر من جوانب الحياة الصينية، والصينيـــين، وبـــلاد الصين، ولاسيما فيما يرجع إلى المجالات الحضارية والثقافية والأدبية والفنية.

ثالثا: الاطلاع على ما أمكن من المصادر والمراجع حول الصين لتكويـــن نظـــرات إعلامية مفيدة قدر الإمكان في هذا الموضوع بوجه عام.

خواطر عربية

تبين من عينه الفئة الأولى (أ) مايلي:

- إن أحد عشر شخصا ممن استجوبناهم، وهم ينتمون إلى بعض الجـــهات الـــتي توجد بها وحدات طبية صينية أشادوا أمامنا بالطب الصيني، فهم على ما يبـــدو، لا يعرفون بلاد الصين إلا من خلال مهارة أطبائها وخبرتهم، فقد أكد بعضـــهم أنهم مرتاحون كثيرا من استعمالات الإبر الصينية في تخفيـــف الألم والتخديـــر،

وكان أصحاب هذه الإجابة من الموظفين والعمال والطلبة العربي. لقد نوهوا بالشعب الصيني من خلال مهارة أطبائه ومحافظتهم على تقاليد أجدادهم في التطبيب، وقال لنا أحدهم:

- "لقد خف ألمي بهذه الطريقة العجيبة (الإبر)، وكنت قد جئت إليهم بعد إصابتي ببعض الحروقات في يدي ووجهي، فأمكنني هكذا الخضوع للعلاج دون ألم شديد".

وشرح لنا آخرون كيف أن أطباء صينيين في أحد مستشفيات المغرب قد غرسوا لهم إبرا في جهات مختلفة من ذات كل واحد منهم. فكانت مخدرا مدهشا قبل إجراء عمليات جراحية لهم.

وقالت سيدة من بينهم:

- "لقد غرسوا عدة إبر في جهات متعددة من ذاتي قبل عملية جراحية... غرسوها في ذقني ورقبتي وأذني... وبقيت مدة بعض ساعات أتخدر شيئا فشيئا... ويخيل إلي أني كنت واعية بما حولي... وأجروا لي عملية وأزالوا ورما خبيثا كان بين أحشائي".

وصاحت سيدة أخرى مؤيدة لما قالته هذه المرأة، ومضيفة أن أولائك الأطباء مؤدبون ومهذبون... إنهم، كما قالت، علماء وليسوا بسحرة!

وقال طالب من بيت تلك المجموعة:

- "لا اعتقد أن العلم الحديث يستطيع شرح أسرار تلك "الإبر" كوسيلة من وسائل التطبيب الصيني... ولكن، كيفما كان الحال، أنا ذهبت إليهم في مستشفى، ولكنهم في هذا المستشفى لا يستعملون "الإبر" إن "تطبيبهم عام".

وقد بدا لنا أن هذا الطالب العربي كان، شيئا ما، محيطا ببيانات عن هذا الموضوع في بلاده، ولكننا اكتفينا من تلك البيانات بأنه هو أيضا على نفس رأي العموم العربي حول

معرفتهم بالصين والصينيين، ذلك الرأي الذي يتجلى في الاتصال اليومي للمرضى العرب بعض أولائك الأطباء الصينيين في مستشفيات البلدان العربية[1] وهم جميعا، أي أولائك المرضى، يُضيفون أن تلك البلاد عظيمة المساحة، عريقة التاريخ الحضاري، وسُفراؤها الإضافيون هم أطباؤها.

وقالت لنا طالبة عندما فاجأناها بالسؤال عما تعرف عن بلاد الصين:

- "إن تلك البلاد هي السباقة إلى صناعة الحرير. إن الصين هي موطن الحرير ومصدر أجمل المصنوعات الحريرية المزخرفة أثوابا، وأقمشة، وجداريات، وسجاجيد".

وقالت لنا رفيقة لها كانت بجانبها:

- "مما لا شك فيه أن الصينيين ماهرون في تربية دودات القز وزراعة أشجار التوت، وأن نساءهم يُجدن التطريز على الحرير إجادة كبيرة بما في ذلك طرز الكتابة الصينية، لقد رأيت نماذج كثيرة منها".

وبناء على هذا النظر فهمنا أن الصين في رأي هاتين الطالبتين تعني لديهما الحرير، و"سبائك، الحرير، والمصنوعات الحريرية.

أما الطالب عبدالرحمن م. الذي يبدو أنه يتابع الأحداث السياسية عبر العالم فقد كان في إجابته الفورية، نوعا ما، مُطلعا على ما جريات الصين الحديثة، فذكرنا بـ"المسيرة الكبرى" لسنة 1949، وقال لنا إن سنة 1999 تُسجل حدثاً تاريخياً عظيماً وهو مرور خمسين سنة، في الفاتح من أكتوبر، على ميلاد جمهورية كونيه عظيمة الشأن: "جمهورية الصين الشعبية".

وقالت لنا طالبةٌ تدرس الفنون الجميلة ما نلخصه من خلال ما التقطناه من كلامها:

- "إني معجبة جداً ببدائع الخزف الصيني ومصنوعاته. إن لنا في بيتنا مجموعة من الصحون والزهريات المزخرفة الصينية كان والدي يقتني قطعها شيئاً فشيئاً كلما سافر إلى الخارج، ونحن نعتبره أعز ما نملك من التحف والأواني المزخرفة في البيت. إن خيال الفنان

الصانع الصيني المبدع لمثل تلك التحف خيالٌ خصب وغني، كما أن مهارة أصابعه قد لا تُضاهي".

وقال لنا أحد العمال (عباس ج.ع.):

- "إن بلاد الصين البعيدة فعلا عن بلدان العالم العربي مشرقا وخليجا ومغربا، والقريبة كل القرب من أفئدة العرب وعواطفهم ما أدركت تقدمها وتطورها صناعياً وزراعياً واجتماعياً في العصر الحديث إلا بفضل تفاني عمالها وفلاحيها تحت القيادة الحكيمة لزعمائها منذ "المسيرة الكبرى" لقائدها العظيم ماو تسي تونغ".

ويبدو من مثل هذه الإجابات وسواها أن أبناء العرب كهولا وشبانا، نساء ورجالا، قد أصبحوا في الوقت الحاضر واعين كل الوعي بواقع التيارات الجارية في مختلف أرجاء العالم.

أما عن الفئة الثانية التي وجهنا إلى أفرادها تلك الاستمارة المبسطة حول بلاد الصين بوجه عام، فقد استلمنا إجابات متنوعة كما وكيفا، منها الإجابات المطولة، ومنها الردود المختصرة، ونورد هنا نماذج منها:

وقد كان جواب أحد الإعلاميين الاتصاليين الكبار من مصر بهذا الخصوص يكاد يكون مُفصلا، قال لنا هذا الرجل الذي فضل عدم ذكر اسمه:

- "إن اسم بلاد الصين يوحي إليّ بحقائق، منها أنها البلاد الصديقة التي نعتز بها أيما اعتزاز في بلاد مصر التي ربطت علاقاتها الدبلوماسية بالصين، منذ أواخر العشرينات من القرن العشرين للميلاد.

وبالرغم من أن بلاد الصين بعيدة من الوجهة الجغرافية عن مصر فإن أولى البعثات التعليمية الصينية التي جاءت للدراسة في جامعة الأزهر الشريف بالقاهرة كانت في أول سنة من الثلاثينات الماضية. والطلبة الصينيون الذين تخرجوا من هذه الجامعة الإسلامية المصرية

غدوا رواداً لنشر اللغة العربية في عدد من الجامعات والمعاهد الصينية... وقد كان لمصر على الدوام تأييد مطلق لبلاد الصين ضدًّا على أعدائها أواخر الثلاثينات وبعدها...".

أما عن مميزات أهلها فإن هذا الإعلامي المصري يذكر ميزهم المثلى المتجلية دوماً في مجالات الكفاح الوطني والنضال من أجل إحقاق الحق ونشر العدالة بين الناس، وأشار في هذا الصدد إلى مواقف من التاريخ...

وعن الصورة التي لديه ولدى العديد من المصريين عن بلاد الصين فإنها، في نظره، تتمثل في صورة الشعب التواق دائماً إلى نشر أسس الوطنية الصحيحة" وزاد قائلاً ما نُوجزه هنا:

- "إننا في مصر نذكر جيداً الظروف التي سادت في بلاد الصين على إثر انتهاء الحرب العالمية الثانية... فيما بين السنة 1945 وسنة 1949 حيث قامت الشدائد أخذاً ورداً بين أنصار الماريشال تشيانغ كاي تشك، وأنصار الزعيم ماو تسي تونغ، هذا الزعيم الذي انتصر انتصاراً باهراً على خُصومه، وأسس جمهورية الصين الشعبية، وجدير بالإشارة أن هذه الجمهورية منذ أن ظهرت إلى الوجود وهي قائمة على نصرة الدول العربية ودعم الحق العربي، ويكفي أن يعلم أبناء العصر الحاضر أن جمهورية الصين الشعبية رفضت اعتراف إسرائيل بها أوائل الخمسينات، على ما أذكر، وهو موقف لن ننساه أبداً!".

وإجابة عن هذا السؤال: "هل تعلمون شيئاً عن ثقافتها وفُنونها؟" أشار رجل الإعلام والاتصال المصري في رسالته قائلاً إن بلاد الصين هي المهد الأصيل للثقافة والفنون الآسيوية، مُشيراً إلى أن هناك في الصين آلافا مؤلفة من المجموعات الفنية، ودور الثقافة، والمكتبات العمومية، والمتاحف الفنية... التي تزخر بها تلك البلاد طولاً وعرضاً، علاوة على الآلاف من قاعات عرض الأفلام السينمائية، والجرائد والصحف الوطنية والإقليمية، والكتب الصادرة عن المطابع العديدة.

واستلمنا إجابة عن تلك الاستمارة من الإعلامي التونسي المرموق السيد محمد مغربي[2] فقد قال في ردّه عن نفس الأسئلة:

- "الصين بلاد عملاقة ليس فقط من حيث عدد سكانها أو مساحتها الجغرافية، بل وأيضاً بحضارتها العريقة منذ آلاف السنين، وأيضاً بما تُحققه من نمو إقتصادي وعملي بفضل عبقرية أهلها. وهذا المزيج هو بصدد فتح كل الأبواب أمامها لتصبح من أكبر -إن لم أقل أكبر- القوات في العالم".

وقال كذلك عن الإجابة: "هل تشعرون بأنها بعيدة عن البلدان العربية جغرافياً وتاريخياً وثقافياً" بأنها فعلا بعيدة إلا أن هناك "صلات شعورية"، أي عاطفية، ولا سيما عند المثقفين في البلدان العربية.

وعن مميزات أهل الصين قال السيد محمد مغربي:

- "إن الإعجاب بأهل الصين يتمثل فيمايلي: 1) حُسن معاملة الغير، 2) التواضع، 3) حب الإطلاع في كل الميادين؛ 4) التضامن مع قضايا الحق؛ 5) القوة على العمل مهما كانت صعوبة الظروف".

وقال السيد محمد مغربي أيضاً بشأن الصورة السياسية وكذا بشأن إحاطة علمه بثقافتها وفنونها:

- "إن الصين بلاد معتزة بتاريخها، وقد ذاقت مر الاحتلالات، فجاءت سياستُها مُتماشية مع ما استنتجته من دروس التاريخ.

إنني، مع شديد الأسف، قليل المعرفة بثقافة بلاد الصين، ولكن معلوماتي عن فنونها أفضل نسبياً".

ومن جملة الأصدقاء رجال الإعلام والاتصال في العالم العربي الذين استفهمناهم عما يوحيه إليهم اسمُ بلاد الصين وعن مدى معرفتهم بها وبأهلها وسياستها ومترلة الثقافة فيها

كان الإعلامي المغربي الموفق السيد محمد بن-ددوش[3] الشهير في مختلف أجهزة الإعلام بالبلدان العربية.

لقد تفضل السيد بن ددوش بإجابة وافية حول النقاط المطروحة في استمارتنا وقال:

- "اسم الصين يُوحي إليّ -كمواطن عربي- ببلاد بعيدة جغرافياً، شاسعة الأطراف، كثيفة السكان، وذات تاريخ حافل بالحكمة والشجاعة والجدية، وهي الصفات التي مكنتها من أن تجتاز بسلام مراحل صعبة في تاريخها القديم والحديث حتى أصبحت دولة ذات وزن اقتصادي وسياسي ودبلوماسي في الساحة الدولية.

ومهما كانت الصين بعيدة عن العالم العربي، وخاصة بالنسبة لهذا الجزء الغربي من العالم العربي، فإنها تظل بالنسبة إلى البلد الذي وصل إليه الرحالة المغربي الشهير "ابن بطوطة"[4] حيث نقل في كتابه عن الرحلة "تُحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" بعض مظاهر الحياة التي عايشها في الصين خلال العصر الوسيط.

والصين بالنسبة إليّ وبالنسبة للعرب أيضاً بلدٌ غير مجهول، والسبب يرجع ولا شك للاهتمام الواسع الذي يوليه المثقفون العرب لرحلة ابن بطوطة وللدراسات الجامعية المتعددة والندوات الوطنية والدولية التي ساهمت كثيراً في تسليط الضوء على الرحالة العربي وعلى محتويات رحلته عبر الأمصار، ومن بينها الصين التي يظهر أنها أبعد نقطة وصل إليها الرحالة الطنجي، وبذلك ساهمت في تقريب العرب بصورة أكثر من الصين، كما ساهمت الرحلة بالمقابل في تقريب الصين والصينيين من العرب، وأستطيع القول بأن وصول ابن بطوطة للصين في القرون الغابرة أصبح معجزة للعرب والصينيين معاً، ونقطة التقاء مؤثرة وفاعلة في العلاقات العربية الصينية، وبالتالي فإن الصين بالنسبة للعرب قريبة ثقافياً وتاريخياً.

ومن حسن الحظ ارتبط المغرب كبلد عربي بعلاقات طيبة ومتينة ومستمرة بالصين منذ أن كان المغربُ من البلدان العربية السباقة إلى الاعتراف بجمهورية الصين الشعبية بمجرد

استرجاع استقلاله وأقام معها علاقات دبلوماسية بالرغم من الحصار الذي أبعدها فترة طويلة عن احتلال مقعدها الطبيعي في منظمة الأمم المتحدة.

وزاد في ترسيخ العلاقات، الزيارات المتبادلة على مستوى مسؤولين كبار في البلدان العربية (وزراء، ومثقفون، ورجال أعمال) وإذا أضفنا الصورة التي يكتسيها العالم الجديد والتي تجعل منه قرية صغيرة، فإنه يمكن القول بأن المسافات لم يعد لها أي تأثير سلبي على العلاقات بين البلدان".

ثم يزيد السيد محمد بن ددوش، الصحافي الكبير، مضيفاً إلى تلك البيانات القيمة ذكراً لرحلته كرجل إعلام واتصال عربي إلى بلاد الصين حيث أطلع على حضارتها الحاضرة وقال:

- "لقد سعدت شخصياً بزيارة الصين رفقة وزير أول مغربي في أوائل الثمانينات من القرن العشرين الميلادي، وكانت مناسبة للوقوف في عين المكان على بعض المعالم الحضارية الصينية العريقة وبعض مظاهر الحياة الشعبية هناك، وكان الانطباع الأول هو أنني وجدت نفسي أمام شعب يناضل ويكافح من أجل الحياة والاتقاء، شعب بسيط ووديع، أبناؤه هم ورثة كونوفيشيوس الحكيم وأولائك الذين بنوا جدار الصين العظيم، وطوروا الفنون في شتى المجالات.

ومما يبعث على الارتياح أن الصين رغم تشبثها بأصالتها وبتقاليدها العريقة، فإنها تواكب التطورات الحديثة التي يعرفها العالم، وتسعى للانفتاح الذي يميز السياسة الدولية عامة على أساس التعايش السلمي الضامن لكل استقرار وتقدم".

وكأنما العرب، ومن مختلف البلدان، يتبارون بكل محبة وتقدير في ذكر محامد بلاد الصين ومزايا أهلها، فتواترت إجاباتهم في هذا المضمار. ولهذا أخذت باهتمامنا إجابة سيدة من المثقفات العربية (صحافية فلسطينية مقيمة في الخارج) رداً على استمارتنا. لقد أبدت لنا، تفضلاً منها، بعض آرائها عما يوحي به اسم بلاد الصين إليها، وقالت:

- "من أعجب ما قرأته وسمعته عن بلاد الصين في الوقت الحاضر أن الرجال فيها أكثر عدداً من النساء بنسبة تبلغ نحو اثنتين في المائة على وجه التقريب، وهذا في نظري من طبيعته أن يجعل العنصر النسوي الصيني أقوى شأناً من العنصر الرجالي هناك. ونحن نعلم أيضاً عن نفس الطريق-أي عن طريق القراءة والاستماع- أن سكان البوادي الصينية أكثر عدداً من سكان الحواضر، وربما بنسبة قد تقترب من ثلاثة أرباع أو تزيد[5] فهذا ما يوحي إلي به اسم الصين".

وإجابة عما هي الصين في تصورها الشخصي وعن بعد الصين جغرافياً وتاريخياً وثقافياً، قالت هذه السيدة: "إن تصوري الشخصي عن الصين هو أنها أصبحت متقدمة اجتماعياً وتصنيعياً، وما علينا في هذا المجال إلا أن نتأمل أحوال المرأة الصينية، مثلا، مظهرا وربما حتى مخبراً ولو عبر أخبار الصحافة وصورها. إن المرأة الصينية، على ما يبدو، تساير المرأة الغربية لباسا وأناقة وتجميلا، وهذا ما قد يؤكد أنها ولو في المجتمع الشيوعي، قد عادت لها أو تعود لها-شيئاً فشيئا- أنوثتها الحقيقية بفضل انفتاح بلادها التي لم تبق بعيدة عن المجتمع الدولي".

وتزيد شرحاً وبياناً قائلة :

"أنا لا أعلم كثيراً عن العمق التاريخي والوضع الثقافي في الصين، ولكني أندهش أيضاً للأخبار الرائجة عن المستوى الاجتماعي هناك، ولاسيما فيما يتعلق بالحماية الاجتماعية، ومعاش الشيخوخة، والعجز الجسماني، وأحداث الشغل... وبناء على ما كنت قد قرأته فإن التقاعد في الصين للرجال يتم في سن الستين وللنساء في سن الخامسة والخمسين، بينما المرأة العاملة تناله في سن الخمسين... ويمكن التقاعد، على ما كنتُ قد قرأته في بحث منشور، أن يحصل على ما بين نسبة 75% ونسبة 100% من راتبه، طبقاً لمقاييس الأقدمية.

وقد ذكرت قصوري عما قد يكون بعلمي عن ثقافة الصينيين وفنونهم، ولكني أعلم أنهم أصبحوا منذ سنوات قريبة جداً، لا يشتغلون إلا خمسة أيام في الأسبوع ليُتاح لهم المزيد والاستزادة من الثقافة والتمتع بفنونها"[6].

تلك نماذج من خواطر للرأي العام العربي، ومن الآراء المتناثرة الصادرة عن بعض الزملاء الإعلاميين العرب، وهي خواطر استهدفنا فعلاً أن تكون شيئا ما مبسطة. أما الحقائق المعمقة فعلا فترد طائفةٌ منها استيفاء واقع المعرفة وكذا من بعض وسائل الإعلام الأخرى.

الصين والإعلام

تعتبر جمهورية الصين الشعبية اليوم من أنشط البلدان في المجال الإعلامي والاتصالي، وكلما كانت سفارة لهذه الجمهورية ببلد عربي إلا وبالقرب منها ممثليه لوكالة الصحافة والإعلام الصينية الشهيرة باسم "كسينهوا" Xinhua وتعتبر وكالة تابعة للدولة، وتتولى نقل أخبار البلدان العربية إلى الصين، ونقل أخبار الصين إلى البلدان العربية برقيات وريبورتاجات وصوراً.

والإذاعة الصينية الدولية تذيع بعديدٍ من اللغات ومن جملتها اللغة العربية، ولها مكتب بالقاهرة.

وتصدر الصين مجلات وصحفاً مصورة بلغات متعددة بينها اللغة العربية، كما تصدر كُتُبا أدبية وفكرية وعلمية حتى باللغة العربية[7].

بادر التلفزيون إلى استخدام الأقمار الاصطناعية لنقل برامجه عبر الفضاء منذ سنة 1991م حيث كان قد استأجر قناة على القمر الاصطناعي الآسيوي (ASIA-I) لنقلها إلى جهات معينة (هونغ كونغ، تايوان، ماكاو، جنوب شرق آسيا)، وسرعان ما أقر في سنة 1992 قناته الرابعة موجهة عبر الفضاء إلى بلدان العالم ومن بينها البلدان العربية.

فتحت الصين في سنة 1997 موقعاً على شبكة إنترنيت حيث لها اليوم نشاط إعلامي مكثف جداً جداً.

وعندما كنت مديراً للتلفزة المغربية (بالرباط والدار البيضاء)، كانت الوكالة الوطنية الصينية للأخبار (1971-1973) توافينا مرتين في الشهر-مباشرة من بكين- بأفلام قصيرة ذات طابع إعلامي وثقافي وسياحي علىمقاس 16 ميلليمترا، مصحوبة بالشروح المكتوبة (دوبشيت) باللغة الانجليزية، فكنا نترجم ونستثمر تلك الأفلام هي أيضاً في برامجنا، وكنا نحصل على أفلام 34 ميلليمتراً، وكادت جميعها تكون دوما من المنوعات الراقصة والسيرك والألعاب الرياضية الموسيقية الصينية، وكنت غاوي الحصول عليها من شتى المصادر على سبيل الإهداء والمجانية، وكانت في الغالب الأغلب عن طريق المصلحة الثقافية لسفارة جمهورية الصين الشعبية.

واهتماماً جاداً بالأفلام الصينية الفنية حاولنا في المغرب ربط علاقات تجارية لشرائها عن طريق باريس، واستقبلت مراراً لتلك الغاية في مكتبي بالرباط مندوبين صينيين اثنين كانا يأتيان المرة تلو المرة خصيصاً لتلك الغاية، إلا أن الروتين الإداري حال دون تحقيق ما كنا نسعى إلى إقامته، ومع ذلك بقيت الأفلام الصينية عن الألعاب الرياضية والسيرك والمنوعات الفنية تصل إلينا هدية وتبرعاً بين الفينة والفينة، فنذيعها على الشاشة الوطنية الصغيرة بكل ارتياح، وبالنظر إلى أنها كانت مرئية على أحسن وجه وبدون تعاليق مزعجة فإن النجاح كان على الدوام حليفاً لها.

وممكن أن ما كان لنا في هذا المجال محلياً ربما قد عرفته تلفزيونات عربية أخرى في تعاملها بصفة ما مع أفلام الصين.

التلفزيون الصيني

وبصرف النظر عن الإذاعة الصوتية القائمة بالذات في بلاد الصين كما في مختلف بلدان آسيا والشرق الأقصى منذ تاريخ قيامها في العالم، تجدر الإشارة إلى أن التلفزيون الصيني متقدم تقدماً ملحوظاً، وربما كان الصينيون أقوى سكان العالم مشاهدة لتلفزيون بلادهم على تعدد محطاته وقنواته.

ويوجد ببلاد الصين ما قوامه 3.125 محطة رسمية للتلفزيون منها 1.202 من المحطات لتلفزيون الكابل و 941 محطة للتعليم بواسطة التلفزيون، والتلفزيون الصيني-ويرمز إليه بالأحرف اللاتينية CCTV- لا يمتلك إلاّ مؤسسة إرسال واحدة لكنها تذيع بمجموعة من القنوات، علما، على سبيل المثال في هذا الصدد، بأن الشركات التلفزيونية الكبرى الثلاث في الولايات المتحدة (إن. بي. سي.) و (سي. بي. إس) و (إ. بي. سي.) التي لكل واحدة منها محطة إرسال لا تذيع كل منها إلا قناة واحدة، وهيئة الإذاعة البريطانية تمتلك محطة إرسال لبرنامجين، الأول والثاني.

والتلفزيون الصيني يذيع على أنظمة أرضية وبواسطة الأقمار الاصطناعية.

ويقولُ الصينيون إن هذه الشبكة الضخمة الممتدة في طول البلاد وعرضها، والمؤلفة من 3125 محطة تلفزيون تكلف غالباً، وتستدعي توفير رؤوس أموال عظيمة. وأكيد أن الأقاليم والمُقاطعات تُدعى إلى المشاركة المالية فيها حتما، وهذا فضلاً عن عديد المحطات التلفزيونية المحلية.

وتأتي مسألة البرامج الوطنية إنتاجاً والمواد المستوردة من الخارج، ففي سنة 1993 مثلاً قدمت تلك الشبكة من التلفزيون الإقليمية الصينية ما قوامه إجمالاً 4.000 ساعة من البرامج أسبوعياً، لكن هذه الساعات المديدة ليست من بينها سوى 800 ساعة من الإنتاج الوطني.

ويقول نفس المصدر الصيني الذي نعتمده في هذا المجال[8] إن ضآلة رؤوس الأموال، وصعوبة اقتناء الأفلام الجيدة تؤديان لا محالة إلى رداءة البرامج، وهذا ما حمل وزارة الإذاعة والسينما والتلفزيون الصينية على الوقوف وقفة حازمة لتحسين مستوى برامج التلفزيون وتقويتها، مع العلم بأن الجهود التي يبذلها-وقد بذلها فعلا- التلفزيون الصيني جديرة بالإشادة والتقدير.

وبالرغم من أن نشأة التلفزيون في الصين ترجع كمحاولة إلى سنة 1958، فإن الفترة المتراوحة بين مكمول الثمانينات ومنتصف التسعينات من القرن العشرين الميلادي هي التي

أرست قواعد نهضة حقيقية في مستوى الإنتاج الوطني الصيني للتلفزيون، من المسلسلات والسهريات والبرامج الموسمية والمتنوعة، وتجلت منافسة فعلية بين التلفزيون والسينما، وبدت تكاليف الإنتاج التلفزيوني رخيصة، ومدد الإنتاج سريعة وأقصر، مع الاكتفاء باستعمال الاجهزة والآلات الأقل ثقلاً وضخامة، فانحاز عدد موفور من المنتجين وفناني السينما والمسرح إلى التلفزيون.

وبعدما كان إنتاج المسلسلات الصينية متأرجحاً بين 5.000 مسلسل و 7.000 مسلسل سنوياً حتى سنة 1995 طمح التلفزيون الصيني في رفع هذه الوفرة إلى 10.000 مسلسل في السنة، إنطلاقاً من سنة 1996.

لكن ما هو رأي جمهور المشاهدين إزاء قيمة هذه المنتوجات الفنية التلفزيونية؟-إن الجواب في هذا الصدد، بحسب ما أثبته محرر كتيب "نهضة تامة للتلفزيون الصيني" هو المثل الذي يقول: "إن إرضاء رغبات جميع الناس غاية لا تُدرك". فهناك الجيد الممتاز، وهناك ما قد لا يرقى إلى هذه الدرجة. وهنا تجلى، مرة أخرى، حزم الوزارة الصينية المعنية التي اتخذت قراراً بتخصيص ركن للمسرح الرفيع في التلفزيون لتقديم الإنتاج الوطني المتميز أسبوعياً.

إن البرامج التلفزيونية الصينية موجودة منذ بضعة أعوام عبر قنوات شركات الكابل في الولايات المتحدة حيث يشاهدها الصينيون المقيمون هناك، والعملية في هذا الصدد تجارية.

لكن ما أقدم عليه تلفزيون جمهورية الصين الشعبية في سنة 1996 أمرٌ جدير بالتنويه. ففي فاتح أبريل 1996 استأجر أربعة أجهزة إعادة إرسال على ثلاثة أقمار اصطناعية تابعة لشركة بان أمريكان، وهو تدبيرٌ قيمٌ أتاح نقل برامج القناة التلفزيونية الصينية الدولية إلى أكبر جزء من المعمورة. وإنطلاقاً من فاتح يوليو وفاتح أكتوبر لنفس السنة أمكن التلفزيون الوطني الصيني الشروعُ في نقل قناته التلفزيونية المخصصة للمسرح وللموسيقى إلى بقية أجزاء العالم.

وبصفة هذا التلفزيون تلفزيون دولة فإنه يمارس علاقات مع أزيد من 250 مؤسسة تلفزيونية في أكثر من 130 من البلدان والأقطار.

الاتصال بالتلفزيون العربي

إن إمكانية التعاون التلفزيوني بين الصين والبلدان العربية متوافرةٌ في ميدان نقل المسلسلات الصينية إلى اللغة العربية، ما في ذلك شكٌ أبدا.

لقد دخل الإنتاج التلفزيوني المجال العالمي فعلاً، وأصبح بالتالي مُباحاً للاستغلال التجاري مع العرب كما مع سواهم في العالم... ففي سنة 1994 و 1995 باعت الصين أربعة آلاف من الساعات البرنامجية إلى تلفزيونات أخرى، وحصلت من وراء هذه الصفقة على ستة ملايين من الدولارات الأمريكية[9]، وأحدث مسلسلها المطول: "قصة الممالك الثلاث" ضجة مدهشة في تلفزيون تايلاند وتلفزيون اليابان، إلى درجة أن المشاهدين هنا وهناك طالبوا بإعادة عرض حلقاته.

وهنا لابد من إبراز مسألة اللغة، لغة الحوار والتشخيص، وهذه المسألة ليست اليوم مُعضلة شاقة على الجهات صاحبة الإنتاج، وبالرغم من الخصوصية الآسيوية للمشاهدين في التايلاند واليابان، فلا شك أن تلك المواد التلفزيونية قد تم نقلها إلى لغة التفاهم الموسع هناك. وكيفما كان الأمر فالمعروف أن اللغة الانجليزية واسطة متعددة في هذا النقل، كما يحدث في المسلسلات العديدة التي تنقل اليوم من اللغات العربية، وقد تكون هناك محاولات أو تجارب أو أعمال قد تمت أو في طريق الإنجاز من أجل جعل البرامج والمسلسلات والأفلام الصينية مواد معتمدة في التلفزيون العربي مشرقا، وخليجيا، ومغربا، فسوق العالم العربي سوق عريض وفسيح للمواد التلفزيونية المدبلجة حواراً وتشخيصاً، وليس فقط بمجرد ترجمة كتابية تحتية. ومعامل الدبلجة باللغة العربية جادة كل الجد في لبنان وسواها، وتحقق أرباحاً مادية وأدبية لمختلف الجهات، وأكيد أنها مفتوحة أمام الإنتاج الصيني.

وفي هذا المقام يجدر بالذكر أن سوقاً للتلفزيون تقام سنوياً في مدينة شانغهاي الصينية، وانعقادها مناسبة قيمة ووجيهة للمبادلات في التكنولوجيا، والخبرة والمستجدات، كما أنها بالأولوية سوق لبيع الأفلام والبرامج التلفزيونية واقتنائها، وقد أصبحت أكبر سوق للمسلسلات في آسيا والعرب المتعودون على مهرجانات مدينة "كان" الفرنسية للتلفزيون، والمولتيميديا، والموسيقى، والسينما أولى بهم التعود جماعة على سوق شنغهاي السنوية.

السينما الصينية والعالم العربي

تسلك جمهورية الصين الشعبية سياسة ثقافية حكيمة مع العديد من الدول العربية فيما يتعلق بترويج أفلامها السينمائية عبر التظاهرات السينمائية المحلية في البلدان العربية كلما طلب منها ذلك بصفة نظامية.

ولو أردنا أن نتتبع وأن نتفحص ونحلل جميع ما كتبته الصحافة العربية من المقالات والتعليقات عن السينما الصينية، وعن الأفلام الصينية-الروائية والوثائقية- التي تم عرضها في المهرجانات العربية لأخذ الكلام منا مساحة كبيرة، وخلاصتُها الإعجاب الصريح حول الحاضر والمستقبل لهذه السينما.

وقد كان من حظ كاتب هذه السطور أن تتبع في موسمين[10] عرض أفلام صينية، كانت مرفقة في غالبيتها بشروح كتابية تحتية، ومنها مثلاً: "امرأة البحيرة المعطرة"، و "موت الحسناء"، و "نجوم الألعاب البهلوانية"، و"هلال القمر"، وضفيرة طويلة متحمسة"، و "حرب الأفيون" و "موسيقار الشعب سيان سينغ هاي"، و "ضابط البوليس في سنة التنين"، و "قصة بنت وحيدة". . . ومن الأفلام الوثائقية-أو التسجيلية- التي قدمت إلى العموم العربي أيضاً فيلم: "هونغ كونغ الصينية"، وفيلم: "شالتو جياو"، وفيلم: "الصين". وقد يكون من غير المحتمل الإقدام على تلخيص وقائع أفلام صينية كثيرة، وإنما نشير إلى بعضها، على سبيل الاستئناس.

إن شريط "إمرأة البحيرة المعطرة" يروي قصة صاحبة معصرة للزيت تقع في ضفة البحيرة الجميلة المسماة (كسيانغوم) وهي (البحيرة المعطرة). وتسمى هذه المرأة كسيان إرساو، وهي امرأةٌ ذكية وشغيلةٌ تقاسي المتاعب في العمل. إنها متزوجةٌ من رجل سكير عربيد، ولهما ولدٌ سيئ الأخلاق... وتنجح المرأة في عملها بفضل شركة يابانية تشترك معها في مشروعها، فيزداد حب السكان لها... على أن الوحدة التي تُقاسيها هذه المرأة من الوجهة العاطفية تحملها على اتخاذ عشيق بصفة سرية... وهناك في نفس البلدة فتاة فقيرة فقراً مدقعاً... فتحتال تلك المرأة لتزويجها من ولدها. وبالرغم من أن هذه الفتاة تهوى رجلاً آخر، فإن فقرها يدفعها إلى قبول ذلك الولد، لكن على مضض...

وتجري أحداث الشريط، وتكتشف الفتاة أن حماتها امرأة خائنة، ولكن هذه الحماة تكاشفها بأنها لا تهوى الرجل السكير الذي ارتبطت به، ولذلك تقرر الفتاة الانفكاك من الولد المقترح عليها زوجاً حتى لا تسير في المستقبل سيرة حماتها، وبالتالي تقرر الزواج ممن تحب!

كان هذا الفيلم قد اقتسم مع فيلم من تايوان جائزة "الدب الذهبي" في مهرجان برلين لسنة 1993، كما نال هذا الفيلم في نفس المهرجان جائزة لجنة التحكيم، والجائزة الشرفية للمهرجان.

أما عن شريط "موت الحسناء" فإنه مستقى من ماضي التاريخ الصيني قبل نحو ثلاثمائة عام أيام الأسياد والإقطاع لتلك البلاد...

ويتلخص جوهر الشريط في كون السيد إيشان بايي يستخدم وصيفة شابة لرعاية ابنته المسامة ماريام. لكن هذه الخادمة التي كانت تسمع عن سيدها الشابة هذه أنها جميلة جمال الورود والزهور تندهش عندما تجدها، في نفس المساء، أبشع من الشيطان!

وفعلاً فقد حدث قبل ذلك التاريخ بسنتين أن السيد إيشان-والد هذه الفتاة- مرض مرضاً أشرف فيه على الموت، ففكر في أن يهبها ثروته، الأمر الذي تسبب لها في مأساة،

لأن امرأة متشحة بالسواد قررت أن تشوه وجه الحسناء ماريام حتى تحول دون زواجها من الولد صيزار ابن التاجر يونوسي، وحتى لا تنال السعادة معه بثروته وثروة والدها الموروثة، حسداً وبغضاً... وتتوالى أحداث الشريط في غرابةٍ وشوق...

وفيما يرجع إلى شريط "هلال القمر" تظهر فيه الفتاة الصغيرة هان يورونغ التي عندما توفي أبوها ظلت في كنف والدتها التي تزوجت ثانية من رجل طيب القلب محب للعمل. إلا أن السعادة لا تدوم... فقد توفي هذا الزوج الثاني في الوقت الذي دخلت فيه الفتاة الصغيرة إلى المدرسة للتعلم... وأثقل الفقر بحمله على الأم البئيسة، ولذلك فإنها، لمواجهة تكاليف الحياة، أصبحت مومسا تمارس حرفة البغاء.

ولا ترضى الفتاة بسيرة أمها، فتقرر الاشتغال في المدرسة خادمة مقابل متابعة تعلمها فيها... وتمضي الأيام والليالي، وتنهي الفتاة تعلمها... وتتخرج... ولكنها لا تجد عملاً تزاوله... وتضيق بها الدنيا بما رحبت... ويتعرف عليها شاب -متزوج- ويستغل براءتها، فيغدر بها، ثم ينصرف عنها، وتعثر على شغل كمضيفة استقبال في أحد المطاعم، لكنها تضيق ذرعاً بمغازلة الزبناء إياها بصفة متواترة لا تعرف سكونا... فتضطر والحالة هذه إلى التخلي عن شغلها هذا. وتزداد فهما وإدراكاً لقساوة الحياة... وتحاول الفهم جيداً... وينتهي بها القدر إلى ما آلت إليها أمها من قبل: بغية!

أما فيلم "ضفيرة طويلة متحمسة" فإنه عن شاب برتغالي يقيم في مقاطعة ماكاو، الأرض الصينية التي كان البرتغاليون يحتلونها (حتى آخر سنة 1999). فهذا الشاب التقى بفتاة صينية اسمها "الينغ" بجانب بئر للماء العذب، فمال إليها وهام بها حباً لاسيما وقد رأها من قبل وهي تؤدي رقصة رائعة يوم أحد الأعياد. وتتوالى أحداث الفيلم عن قصة الحب المثيرة التي ربطت بينهما متجاوزة قيود الجنسية والقومية والحسب والنسب، والنظام العائلي... وكلها قيود تغلبا عليها الواحدة تلو الأخرى...

وإشارة إلى شريط "ضابط البوليس في سنة التنين"، نذكر أن المعروف في بلاد الصين أن سنة التنين تعني سنة مباركة، لكن ضابط البوليس في هذه القصة السينمائية ربما كانت

هذه السنة على غير المؤمل منها بالنسبة إليه... فقد كان هذا الضابط ألقى القبض على عصابة من المجرمين وأدخل أفرادها السجن... لكنهم لاذوا بالفرار من داخل السجن مبيتين العزم على الانتقام من ذلك الضابط الذي كانت زوجته قد تخلت عنه نظراً لإفراطه في العمل ليلاً ونهاراً، متغافلاً حتى عن واجباته العائلية.

وتجري أحداث الشريط بين المطاردة والإخلاص لتنتهي بفوز الضابط، وتغلب الحق على الجريمة.

أما شريط "حرب الأفيون" فإنه من أهم الأشرطة التاريخية في بلاد الصين، كما أنه قصة تروي النضال الذي قام به الصينيون في القرن التاسع عشر للميلاد من أجل القضاء على آفة الأفيون، وأيضاً على الاستعمار البريطاني... فقد كانت حرب الأفيون سببا في احتلال هونغ كونغ أمداً مديداً.

إن تلك النماذج العابرة من الأفلام الصينية التي تم عرضها في بلدان عربية داخل نطاق التعاون الثقافي بين الطرفين الصيني والعربي إنما سقناها على سبيل المثال والاستئناس والإطلاع.

وفي سنة 1993 كانت الصين قد نالت أكبر الجوائز العالمية في مهرجانات السينما، في مدينة "كان" الفرنسية، كما في مدينة البندقية الإيطالية، وفي برلين كما في طوكيو والقاهرة، خلال عامين اثنين كبداية، فقال عنها الكاتب العربي محمود قاسم[11] : "إن الصين لم تعد تهتم بصناعة أفلام حول الإيديولوجيات، ولا بتقديم سينما تخدم أهدافاً سياسية فقط، بل أصبح على الفنان الصيني أن يعبر عن ذاته، ليقدم هذه الذات إلى العالم"، وأكد إذ ذلك أن الصين أصبحت ثالث دولة تنتج عدداً من الأفلام سنوياً بعد الهند والولايات المتحدة الامريكية، مضيفاً أن المعدل السنوي لإنتاج الأفلام الجديدة هناك مائتان أو أكثر، كما أن عدد مقاعد الصالات السينمائية يبلغ سنوياً سبعة وعشرين مليارا من المقاعد المشغولة بالمشاهدين في تلك البلاد التي تعتبر بلاد المليار ونيف نسمة[12]!

وكانت المجلة العربية التي أوردت هذه الحقائق قد ذكرت في أحد أعدادها السابقة من سنة 1982م عن السينما في الصين أن هذه البلاد هي بمثابة عملاق يبحث عن أفلام، ولكن ها هي في ظرف إحدى عشرة سنة،أي في سنة 1993 تغيرت الرؤية فيها رأسا على عقب، فأصبحت في مقدمة الصناعات السينمائية في العالم، مع أخذ الوقائع التالية في العلم:

1-في سنة 1898، أي بعد اختراع السينماتوغراف بعامٍ واحدٍ، جرى أول عرض سينمائي بالصين.

2- في عام 1905 تم عرض بعض اللقطات الصينية المصورة سينمائياً.

3- في عام 1913 تم إنتاج أول فيلم روائي صيني تحت عنوان: "ثُنائي جميل"، وذلك في نفس الوقت الذي قامت فيه الهند بإنتاجها السينمائي الأول.

4- في عام 1931 تم إنشاء استوديو للسينما في شانغهاي، وأنتج عدداً من الأفلام التي أصبحت الآن كلاسيكية، مثل: فيلم "ملائكة الشارع"، عن الفقراء في شوارع بيكين، وفيلم "مفترق الطرق".

5- في عام 1949 تم إخراج الفيلم الصيني الشهير "سان ماو.. المتشرد الصغير".

6- حتى عام 1977 لم تكن أفلام الصين المنتجة محلياً ووطنياً زادت على ستمائة فيلم.

7- في عام 1979 أنتجت الصين 119 فيلماً.

8- في عام 1992 أنتجت الصين 220 فيلماً[13].

وغني عن البيان أن ثروة بهذه الضخامة وما بلغته من بعيد الشأو وحتى الآن، أي حتى آخر سنة قبل دخول الألفية الثالثة، من الصعب الإتيان على تحليل روائعها، ولذلك فإن الصحافة العربية ووسائل الإعلام المرئي والمسموع في العالم العربي تُشيد في أكثر من مناسبة بما عليه هذه الصناعة السينمائية من نشاط مكثف وجيه.

ونشرت الجريدة العربية الدولية "الشرق الأوسط" في عددها 7476 المؤرخ في 18 مايو 1999 (ص.22) العنوان التالي: "السينما الصينية تتصدر برامج مهرجان دمشق" علماً بأن الدورة الحادية عشرة لهذا المهرجان مقررة فيما بين 30 أكتوبر و 6 نوفمبر 1999، ومن أهم أنشطة هذا المهرجان إقامة تظاهرة باسم: "الموجة الجديدة في السينما الصينية".

وبالرغم من هذه الضخامة المميزة للسينما الصينية فقد قيل إن عدد المخرجين والفنانين الصينيين المتخصصين على أعلى مستوى عددٌ محدود بالنسبة لوفرة الكفاءات الوطنية الصينية العالية في شتى مجالات الفكر والصناعة والإبداع، حتى لكأن هذه المجموعة السينمائية المتخصصة تكاد تشكل عائلة واحدة متماسكة فيما بين أفرادها!

ونختم هذه التأملات بالإشارة اللبقة التي سجلها الكاتب العربي المذكور على صفحات مجلة "العربي" في عددها المومى إليه حيث أكد مايلي: "يمكن أن نقول إننا في عصر نجمات السينما الصينية، على غرار العصر الذهبي لنجمات السينما الهوليودية في الأربعينات، وقد آن الوقت ليتعرف الناس في العالم على نجمات صينيات، يتسمن برقة بادية، ولهن ابتسامات جذابة، ولقوامهن رشاقة ملحوظة، ومنهن: جونج لي، وشو شنج لي، ثم تو هواي كينج"[14].

•

إسلام الصين في الإعلام العربي

هاجت وسائل الإعلام العربي فيما بين سنة 1966 و سنة 1976 هيجاناً شديداً في مختلف البلدان العربية المسلمة إلى درجة أن قاريء الصحف العربي ما كان في غالب الأحيان يفتح جريدة أو مجلة إلا وتقابله على صفحاتها تعليقات استنكارية ضد أخبار القمع التي سلطته الحركة الضبابية المؤسفة التي عرفتها الصين خلال تلك الفترة تحت اسم "الثورة الثقافية الكبرى" وكانت قد ألغت حينذاك سياسة حرية الاعتقاد الديني، خلافاً للتقاليد التسامحية التي درجت عليها بلاد الصين منذ مئات السنين، وخلافاً أيضاً لما يسمى "البرنامج

المشترك" الذي أجازه المؤتمر الاستشائي الأول للشعب الصيني في شهر سبتمبر من السنة التاريخية 1949.

على أن غيوم فترة 1966-1976 سرعان ما انقشعت، فأسفرت عن الدستور الصيني الجديد الذي أجازه المجلس الوطني لنواب الشعب سنة 1982، وقد نص على مايلي:

"لمواطني جمهورية الصين الشعبية حرية الاعتقاد الديني.

ولا يجوز لأي من أجهز الدولة أو المنظمات الاجتماعية أو الأفراد إرغام أي مواطن على الاعتقاد أو عدم الاعتقاد بأي دين، ولا يجوز لها التعصب ضد أي مواطن يعتقد أو لا يعتقد بأي دين.

والدولة تحمي النشاطات الدينية الطبيعية، ولا يجوز لأي شخص استغلال الدين لمباشرة نشاطات تخل بالنظام العام، أو تضر بصحة المواطنين، أو تعوق النظام التعليمي للدولة.

والهيئات الدينية والشؤون الدينية لا تخضع لأية سيطرة أجنبية".

وتذكر بعض المنشورات الرسمية الصادرة عن الدولة الصينية أن الإسلام-وهو إحدى الديانات المرموقة والمحترمة في الصين- قد دخل البلاد الصينية خلال القرن السابع الميلادي، و"يدين به معظم أبناء قوميات هوي، وويغور، وقازاق، وأوزبك، وقرغز، وطاجيك، والتتر، ودونغ شيانغ، وباو أن، وسالار..إلخ، ويبلغ عدد المسلمين بالصين حوالي 18 مليوناً.."[15].

وفي أعقاب حركة "الثورة الثقافية الكبرى"-وإلى الآن- اهتمت الصحافة العربية اهتماماً ملحوظاً، في جرائدها اليومية والأسبوعية، وكذا في مجلاتها الثقافية الدورية، بالوضع الذي عليه الإسلام والمسلمون في الصين، سواء على شكل استطلاعات مصورة، أو على شكل دراسات معمقة، مُستقاة في الغالب الأغلب من الوسط المسلم هناك.

وإذا كانت الجرائد العربية التي تناولت بين الحين والآخر هذا الموضوع عديدة ومتفرقة، فإن تركيزها أنصب بالخصوص على مواد للمجلات العربية الثقافية.

ونكتفي في هذا المقام بالإشارة إلى بعض الدراسات القيمة التي بين أيدينا وحصلنا عليها، بحثاً وتنقيبا، من خلال مراجعة العديد من الصحف العربية الصادرة هنا وهناك من أرجاء العالم العربي.

- "الله في الصين". إنه استطلاع مصور كبير، مدعوم بالحقائق التاريخية، والوقائع المعيشية، كانت مجلة "العربي" الصادرة في الكويت قد أصدرته في عددها لشهر نوفمبر 1980، وقد عنونته في أعلاه هكذا: "أول مجلة في العالم تذهب إلى مسلمي الصين".

إن هذا الاستطلاع بقلم فهمي هويدي وتصوير أوسكار متري، يكاد يشكل كتابا في حد ذاته في ذلك العدد من المجلة التي أعلنت في آخرها أن عددها القادم سيشتمل على بحث آخر بعنوان:

- "مسلموا الصين، من التحرير إلى الثورة الثقافية، مروراً بالقفزة الكبرى".

ونبقى مع تحليل استطلاع "الله في الصين"[16]، علماً بأن الله سبحانه وتعالى في كل مكان موجود "وهو معكم أينما كنتم".

ولكن الكاتب المقتدر فهمي هويدي أراد لاستطلاعه ذلك العنوان. إنه بادىء ذي بدء، يبدي تأملات حول ما كانت عليه الحياة الصينية في محيطها حتى سنة 1980، ويروي وصوله وصاحبه المصور بالطائرة إلى مدينة كانتون، تماماً كما كان شأن المسافرين والتجار منذ مئات السنين (لنتذكر قصة السندباد البحري مثلا)، ويؤكد هذا الصحافي أن مدينة كانتون تسمى أيضاً خانقو وينطقها أهل الصين "كوانجو"، بينما الرحالة المغربي ابن بطوطة سماها قديما "صين الصين".. وقد سبق القول في هذا المجال.

يصف الصحافي العربي المظهر الذي تبدى لهما عن مدينة كانتون وأهلها وما هناك من حركة ونشاط، في مشمول الاطمئنان، ويقول عرضا: "أصابنا هدوء مطار كانتون مع بساطة الناس فيه وابتسامته، ووداعتهم، بشعور عميق بالسكينة والأمان!".

ثم كان وصولهما إلى العاصمة بكين. ويحاول وهو يتأمل بلاد الصين من الطائرة أن يصف ما يختلج في نفسيته من مشاعر الحبور، ويردد ما يعلمه من المعلومات المتناثرة، كما يردد في دخيلته أن الملف الذي قدما من أجله هو ملف مسلمي الصين، ويكرر أن مسلمي الصين هم إنما بمثابة "قطرة في ذلك البحر المترامي الشطآن".

ويأبى، استطراداً، وقبل توغله في استطلاعه، إلا المبادرة بالإخبار عما يعلمه من اهتمام الصينيين المعاصرين بالإنتاج الإسلامي المكتوب فكرياً وسياسياً، فيذكر أنهم إذ ذك- في سنة 1980- قد أخذوا ينقلون إلى لغتهم أمهات المراجع العربية العصرية، ومنها على سبيل المثال، كتب أحمد أمين: "فجر الإسلام"، و"ضحى الإسلام"، و"ظهر الإسلام"، وكتب حسن إبراهيم حسن حول الإسلام السياسي والاقتصادي والاجتماعي، كما ينطلق هذا الكتاب العربي صاحب الاستطلاع من جهة أخرى في المقارنة بين وضع الاتحاد السوفيتي الذي كان ما يزال قائماً حينذاك، وجمهورية الصين الشعبية في موضوع الاهتمامات الإسلامية، ويتحدث عرضا، عن مفاجأة فنية قابلتهما-هو والمصور- من أول يوم، وهي مسرحية كان الناس هناك يتحدثون عنها كثيراً، مسرحية "حكايات على طريق الحرير"، وجوهرها يرمي إلى حسن العشرة بين فصائل الناس في الصين... ثم يدخل هذا الصحافي العربي في صميم استطلاعه فيورد المعلومات المتوفرة عن علاقات الصين بالعرب قبل الإسلام، ويقول إن بلاد العرب في السجلات الصينية القديمة هي تلك البلاد غربي إيران، أي غربي فارس.

ويقول كذلك اعتماداً على المراجع والمعلومات التي جمعها لأجل استطلاعه هذا إن اسم المسلمين في المراجع الصينية القديمة هو "تاشيش"، أي "تاجيك" تطويراً لكلمة فارسية هي "تازي" التي أُطلقت على عرب قبيلة طي، على اعتبار أن طي هي بلدان العرب في

عرف أهل فارس قديماً. والأمويون، كما يقول، يسمون عند الصينيين "بين تاشـــي"، أي العرب ذوي الملابس البيضاء، بينما العباسيون هم "خي تاشي"، أي العرب المرتدين الملابس السوداء.

والمسلمون، عربا كانوا أو فرساً، يسمون عندهم "هوي" لأن أول بعثـــة إسـلامية استقرت قديماً بالصين قد أقامت بجوار جماعة "هوي شوي" الصينية، فانتسبت إليهم مـــن حيث الاصطلاح الإسمي.

ويستمر الصحافي العربي فهمي هويدي في بسط ما أمكنه من المعلومات التاريخيـــة واللغوية والتحليلية تدليلا على العلاقات الأصلية بين العرب والصين، والصين والعـــرب، ويقول أن العرب حتى قبل الإسلام كانوا يعرفون الصين أو يسمعون بها بدليل قول النـــبي محمد (ص) :"أطلبوا العلم ولو في الصين"[17].

وتتلو هذه الإشارة بيانات تاريخية مفيدة جداً عن اتصالات ملوك الصين وأســرهم بالخلافة الإسلامية، ويبين كيف استقرت التجمعات العربيـــة الأولى في مينـــاء كـــانتون (خانقو)، وفي ميناء تسي تون (حديقة الزيتون في اصطلاح ابن بطوطة)، وهـــي المســماة تشيوانتشو، حتى بلغت أعداهم 10 آلاف عربي في كل ميناء منهما خلال القـــرن العاشـــر الميلادي. وقد صرف أغنياء العرب أموالاً كثيرة لتعمير ميناء تسي تون حتى كان من بـــين هؤلاء رئيسي (عربي) لدوائر التجارة والملاحة والتجارة الخارجية طيلة 30 عاماً !

وأبان الاستطلاع عن مكتشفات أثرية تؤكد تلك البيانات، مع إشارات إلى تأثـــير الحضارة الصينية في العرب (صناعة الورق) وتأثير الحضارة العربية في الصينيين (علوم الطب والرياضيات والفلك). إن المسلمين الأولين-والأساسيين- كانوا من العرب والفرس: مـــن بقايا جيش قتيبة، والجيش الذي أوفده الخليفة المنصور لإنقاذ عرش إمـــبراطور الصـــين في وقته، وكذا من المسلمين العرب والفرس والأتراك-جميعا-الذين أرغمهم المغـــول علـــى الذهاب بمعية جيوشهم إلى الصين.

وهناك في هذا الاستطلاع الإعلامي العربي الهام بيانات عن وجهاء العلماء والمفكرين المسلمين الذين بفضل مميزاقم الشخصية أدركوا أعلى المراتب والمسؤوليات في الصين.

وإلى هذا الحد لم نصل إلى نحو منتصف هذا الاستطلاع..

وهناك مقالات ودراسات صحافية أخرى تبيانا وتوضيحا للصين ومقامها في الإعلام العربي، ومنها كذلك:

في بيوت مسلمي الصين

إن نفس الصحافي قد أنجز، مصحوباً بنفس المصور، استطلاعاً إعلامياً آخر، في عدد شهر يناير 1981 من سلسلة أعداد تلك المجلة "العربي" حول الحياة الخصوصية لأولائك المسلمين، عقائدياً وتصرفاً اجتماعياً.

إن أولائك المسلمين، كما يقول الصحافي، سنيون في غالبتهم الغالبة، على مذهب الإمام أبي حنيفة، لكن مع تأثر ظاهر وبصمات متجلية للمذهب الشيعي.

وبالرغم من المحيط الشيوعي الذي يوجدون فيه فإن أمارات للصوفية الفارسية القديمة مسيطرة عليهم شيئاً ما. وخصوصاً بالنسبة للجيل المتقدم سنا (القُدامي). وهناك طبقة من المسلمين المحدثين (المجددين) الذين يقاومون زيارة الأضرحة وإقامة المواسم حولها، وارتداء ثياب الحداد، والتدخين... وهم يصومون رمضان اعتماداً على رؤية الهلال وليس بحسب التقويم الصيني.

ومن أولائك المسلمين من يتلون القرآن الكريم بصوت منخفض وهم أنصار الطريقة الخوفية، ومن يتلونه جهراً وهم أنصار الطريقة الجهرية.

ويستمر هذا الصحافي العربي في تفصيل ملاحظاته عن الدقائق والتصرفات الدينية التي يمارسها المسلمون الصينيون بحسب كل بلدة بلدة ومنطقة منطقه، كما يذكر الأسماء التي

يختارونها عند الولادة لأبنائهم وبناتهم مع تقريبها مع اللغة الصينية: إن اسم محمد هو "مو" واسم يحي هو "يي" واسم نصر الدين هو "نا".

وقد عقد فصلاً عن الزواج، وآخر عن الوفاة وما هناك من التقاليد التي تُراعي في كل منهما، كما عقد فصلاً ضافياً عن المطاعم الإسلامية، وأهميتها، وأشار إلى أن تحريم أكل لحم الخنزير ميز المسلمين هناك وحافظ لهم على هويتهم، وفصل الصحافي قومياتهم في نطاق القوميات الصينية، وحصرها في عشر قوميات مسلمة، منها: أبناء قومية "هوي" وهو الشعب الذي ينتمي إلى أصول عربي وفارسية، وأبناء قومية أويغور أو "الويغوريون" هم ذوو الأصول التركية، والقومية الثالثة هم القازاق.. والقوميات الباقية الأخرى أعدادها قليلة. وأبناء قومية هي منتشرون في أنحاء الصين في الجنوب والوسط والشمال ولاسيما في مقاطعات: نينج شاه، ويونان، وخنان، وقانصوه، أما الباقون فجميعهم في مناطق الغرب.

وهناك مقاطعة ظلت أمداً مديداً منغلقة على نفسها وهي مقاطعة "سينكيانغ". إنه مجتمع مسلم شديد الوضوح، لا نميزه-في الشكل- عن أي بلد إسلامي.. هذا ما قاله الصحافي فهمي هويدي في دراسته هذه!

الإسلام والصين : صفحات من تاريخ غائب

هذه دراسة أخرى حول الصين في الإعلام العربي، نشرتها مجلة "رسالة الجهاد" الصادرة في الجماهيرية الليبية عن مركز دراسات العالم الإسلامي، في عددها 104 (السنة العاشرة)، نوفمبر 1991.

وإذا كانت البيانات الرسمية الصينية تحصي عدد المسلمين بالصين في 18 مليونا، فإن هذه المجلة تقدر عددهم بخمسين مليوناً !

وهذا البحث المنشور في هذه المجلة باللغة العربية مترجم عن أصله في اللغة الفرنسية، واسم كاتبته كيكو ناشيميتا.

وهنا شرح عن كيفية دخول المسلمين إلى الصين واستقرارهم بين ربوعها عبر التاريخ. إنه شرح متسلسل ومفصل. وعندما يصل البحث إلى حكم المغول في الصين يحاول تبيان الظروف القاسية التي استمرت أعواما، إلا أن هذا الحكم المغولي، كما تقول الكاتبة، اعتمد على مقومات الحضارة الإسلامية ومهارة خيرة المهندسين والمفكرين المسلمين.

المسلمون في الصين . . . من هم ؟

بحث قيم نشرته "المجلة العربية" الصادرة بالمملكة العربية السعودية في عددها لشهري فبراير/مارس 1993 بقلم وجيه الشرجي، من سوريا.

لقد أشار الكاتب، صاحب هذا المقال حول المسلمين في الصين، إلى أن تاريخ 25 أغسطس من عام 651 للميلاد هو تاريخ الوصول إلى شيان، عاصمة الصين، لرسول من قبَل خليفة المسلمين عثمان بن عفان رضي الله عنه. وقابل هذا المبعوث، كما يقول الكاتب، إمبراطور البلاد في زمانه قاو تسونغ، وأطلعه على مبادئ الشريعة الإسلامية، وأحاطه بواقع جزيرة العرب وأهلها.

وذكر هذا الصحافي، من جهة أخرى، أن الفترة المتخللة بين عام 651 وعام 1279 للميلاد تعتبر هي المرحلة التي سجلت دخول الإسلام وانتشاره هناك.

وقال إنه الإسلام أصبح عقيدة مشتركة لدى عشر أقليات من بين الست والخمسين "إثنية" صينية، وذكرها بالرسم العربي الذي ارتاه، ونرى فيما يخصنا نحن–من قبيل الإضافة– أن نستعمل كذلك الرسم اللاتيني، تقريباً للنطق، وهي: هوي Hui، والويقور Uygur ، والقازاق Kazak، والكيرغيز Kirgiz، والتتار Tatar، والأوزبك Uzbek، والطاجيك Tazik، ودونقشيانغ Dongxiang، وسالار Salar، وباوان Bao'an.

على أن هذا المقال الذي يحاول فيه الكاتب وجيه الشربجي إلقاء أضواء على جانب ما من الحياة الصين وعمرانها وتاريخها وأهلها مخصص في جوهره لتبيان الأهمية التي تكتسيها المساجد في الصين والدور الذي تقوم به عقيدة ومجتمعاً، ويقول بأن عدد المساجد في بلاد الصين يبلغ أكثر من 23 ألف مسجد[18]، ويذكر أن أشهرها مسجدان أثريان عظيمان فيقول:

- جامع تونغشنين: يمثل المسلمون في منطقة تونغشنين 080% من مجموع سكانها، ويوجد فيها أكثر من ثلاثمائة مسجد. وجامع تونغشنين هو الأكبر والأقدم.

- مسجد هوايشنغ: إن مسجد هوايشنغ أو "مسجد المنارة" من المساجد التي تم بناؤها على أيدي الجاليات العربية الإسلامية الآتية من بلدان الخليج العربي فيما بين سنة 618 وسنة 907 للميلاد إذ توارد عددٌ كبيرٌ من التجار العرب إلى مدينة قوانشغو، إحدى المدن الساحلية في الصين، فاستوطنوها، وبنوا المساجد لأداء الصلاة، اسم "هوايشنغ" المطلق على ذلك المسجد التاريخي معناه "الحنين إلى النبي".

ويذكر الكتاب بيانات عن نشر المعارف الدينية والتفقه في الدين هناك حيث المواعظ يُلقيها العلماء باللغة الصينية تعميما لها، أما خطب صلاة يوم الجمعة فتلقى عادة باللغة العربية لغة القرآن الكريم.

جامعات إسلامية في الصين

بحث في مجلة "الوعي الإسلامي" الصادرة في الكويت، بعددها رقم 359 المؤرخ في شهر ديسمبر 1995، بقلم محمود بيومي. وتتمثل الأركان التي يشتمل عليها هذا البحث فيما يلي:

- رُواد التعليم الإسلامي.
- عودة الوعي الإسلامي.

- التخصص في العلوم الإسلامية.
- تجديد الفكر الإسلامي.
- المدارس الإسلامية الحديثة.
- جامعة إسلامية.
- معهد أورمجي الإسلامي.

أثبت الكاتب في هذا البحث جوانب قيمة من الحياة العملية الإسلامية في الصين، مقرونة بذكر أسماء عدد من العلماء المسلمين الصينيين الأجلاء الذين اهتدوا إلى جمع الكتب والمراجع الإسلامية وتحقيقها وترجمتها إلى الصينية ونشرها، مع العمل على تنقية الدين الإسلامي الحنيف من الشوائب التي علقت به، فضلاً عن جهودهم في تعليم اللغة العربية وترويجها على أوسع نطاق، وأشار إلى جهود هؤلاء الباحثين، ومن جملتهم وفي مقدمتهم: الشيخ محمود يوسف هواين، والشيخ محمد تواضع بانج شي تشيان، والشيخ صالح أن شيوي، رئيس الجمعية الإسلامية، ومدير المعهد الإسلامي في بكين. ويضاف إلى هؤلاء الأفاضل ثلاثة من الرواد هم: الشيخ هو دنج تشو، والشيخ وانج داي يوي، والشيخ تشانج تشونج. وقال من جهة أخرى أن الشيخ هونج تشو يُعتبر شيخ المشايخ وأستاذ الأساتذة، لأنه أول من دعا إلى التعليم الإسلامي في المساجد. لقد قام رحمه الله بتصحيح المفاهيم الإسلامية من الأخطاء التي علقت بها، وعاش من 1522 إلى 1597 للميلاد. وكان قد درس علوم الدين الإسلامي على يد أستاذه الشيخ قادو. ويرى الشيخ محمود يوسف هواين- يقول الكاتب- أن المدارس المسجدية التي أسسها الشيخ هودنج تشوي كانت بمثابة جامعات إسلامية في الصين على غرار جامعة القرويين وجامعة الأزهر، وجامعة الزيتونة، حيث كانت المساجد جوامع وجامعات.

ويقول الكاتب الصحافي محرر هذه المعلومات عن "جامعات إسلامية في الصين" إن دراسة علم واحد من علوم الإسلام كانت تستغرق فترة تتراوح بين 5 سنين و 12 سنة من أجل التعمق والتخصص.

ومن العلماء الصينيين الذين تخرجوا من تلك المدارس ذكر الكاتب أسماء: الشيخ يانج تاي خنع، والشيخ ماليانج جيون، والشيخ لان يوه جيون..

ويجري التفكير اليوم، بحسب قول صاحب هذا البحث، حول دراسة إمكانيات تحويل بعض المدارس الإسلامية الحالية إلى جامعات.

وختم مقالته هذه بالحديث الموسع عن "معهد أورمجي الإسلامي" مشيراً في هذا الصدد إلى أن المنطقة التي تعرف باسم شينكيانج–من أكبر المناطق الإسلامية– هي تركستان الشرقية قديما، وقد قامت بها أول جامعة إسلامية في العالم منذ عام 94 للهجرة.. وهذه المنطقة تشهد حالياً صحوة إسلامية ملحوظة بالتقدير.. وقال إن التقرير الذي أعده الشيخ محمد صالح، مدير المعهد الإسلامي في أورمجي، قد تضمن أن عدد المسلمين في شينكيانج قد بلغ ما قوامه 7 ملايين و 479 نسمة، وكلهم من أهل السُنة، وأن عدد المساجد هناك 16 ألف مسجد!!

الصين تحتضن مائة مليون مسلم ومائة ألف مسجد

إن هذا الاستطلاع الصحافي الذي نشرته مجلة "الوعي الإسلامي" في عددها 371 في تاريخ شهري نوفمبر وديسمبر 1996 تجاوز في إحصائه ما قد أطلعنا عليه من قبل في هذه الدراسة، وقد أعده كاتبه الفاضل طارق البكري. وقال بعد مطلعه: "المصادر الصينية ترجع الاتصال بين الصين والمسلمين إلى عهد أسرة تانج التي حكمت الصين بين عامي 618 و 906 للميلاد".

وصف هذا الإعلامي في دراسته بهذه المجلة الاستقبال الطيب الذي استقبل الصينيون به–سلطات وعامة– هذه الدعوة الجديدة التي جاء بها أولائك العرب إلى الصين. وفسحوا لهم مجال الإقامة في حرية ورغد؛ وبين الكاتب الطريقة المسالمة التي استقر عليها المسلمون الأوائل في الصين. وقال إن بعض المصادر التاريخية "ترجع أن الإسلام دخل إلى الصين

بواسطة تجار البحر (العرب) الذين نزلوا موانئها"، كما أشار تاريخيا من جهة أخرى إلى الحملة الفتوحية القديمة التي قادها إلى آسيا والشرق الأقصى قتيبة بن مسلم الباهلي، وإلى خراسان في خلافة الوليد بن عبدالملك الأموي (705-715 ميلادية) حيث بلغت تلك الحملة تخوم الصين بعدما عبرت نهر جيحون، وتم لها فتح بخارى وسمرقند. لكن ملك الصين لذلك الزمن كان أكثر حكمة ودهاء ودبلوماسية فأرسل إليهم الهدايا، وطلب منهم وفدا ليعرفه بالغاية التي يسعى إليها قتيبة ورجاله... وقد سبق لنا القول في استطلاع سالف من هذه الاستطلاعات الإعلامية العربية التي نحاول تحليلها في نطاق "الصين في الإعلام العربي" أن جنودا من بقايا جيش قتيبة استحلوا المقام المسالم (وربما التجاري) في الصين انتقالا من تخومها إلى داخلها فزادوا في حجم العرب المسلمين هناك.

وأورد هذا الصحافي النابه بعض ما سجله الرحالة ماركو بولو عن العلاقة بين الصين والعرب، وما سجله الرحالة ابن بطوطة مما هو مدون ومعروف في رحلته الشهيرة.

ونقتطف من بيانات الكاتب الصحافي عن حالة المسلمين في الصين والفهم العام عن الإسلام هناك قوله: "بالرغم من الحماس الكبير الذي يبديه المسلمون الصينيون في تعلم اللغة العربية لدراسة القرآن الكريم ولمعرفة أحكام دينهم، إلا أن نسبة كبيرة منهم لا يعرفون من الإسلام إلا أنه عدم أكل لحم الخنزير... أو التخلي عن الذهاب إلى المسجد"، كما نقتطف قوله الآخر ختاما: "إنهم ليسوا في حاجة إلى بناء مساجد جديدة بقدر ما حاجتهم إلى أئمة وعلماء لتولي المساجد الموجودة حاليا، وكذلك فهم في أشد الحاجة إلى مدارس إسلامية، بعيدا عن المعتقدات الدخيلة التي انتشرت بينهم".

الصين والثقافة العربية إعلاميا

وقفنا على السينما في الحياة الصينية المعاصرة كما يتجلى من خلال وسائل الإعلام والروابط القائمة بين الصين وعدد من الدول العربية مظهرا من المظاهر الثقافية، ويهمنا أن

نواصل التأمل في هذه الروابط المتينة من خلال بعض المؤلفات والمترجمات بين الطرفين كمظهر آخر من المظاهر الملموسة في ميدان الإبداع الأدبي والفكري.

هناك كتاب اسمه باللغة الصينية "تشو-فان تشي" ومعناه "وصف الشعوب الأجنبية"، ومؤلفه صيني من أهل القرون الوسطى-القرن الثالث عشر- واسمه "تشو جوكوا" وكان في حياته يشتغل في "ميناء زيتون" (تسوان-تشو) حيث كان مسؤولا عن مراقبة التجارة البحرية الواردة والصادرة، لكنه كانت له هواية هي التقاط أخبار العالم الخارجي من التجار الأجانب الذين يأتون إلى ذلك الميناء. وكان أولائك التجار من مختلف البلدان، ومنهم كان تجار عرب.

فهذا الكتاب تمت ترجمته إلى اللغة الإنجليزية في سنة 1911، نقله إليها رجلان انجليزيان مع هوامش مفصلة هما ك. فردرك هيرث وزميله و.وريكل، وطبع في مدينة بطرسبورغ (لينغراد).

وحدث في سنة 1986 أن اهتم الدكتور نقولا زيادة بتحليل هذا الكتاب في اللغة العربية كأثر من الآثار الأدبية التي لها ارتباط بالعلاقات الصينية العربية، ونشر عمله الإعلامي الثقافي هذا في مجلة "العربي" التي تصدر في الكويت[19].

وننقل بكل مودة واستفادة عن الدكتور زيادة الإشارات التي وردت في كتاب المؤلف الصيني عن البلدان العربية تنويراً لأهل زمانه ومواطنيه الذين كان الاهتمام والفضول العلمي يدفعانهم إلى معرفة المجهول.

وهكذا عندما ينتقل ذلك المؤلف إلى ذكر تلك البلدان العربية "يعدد الموانيء والمدن المهمة، وهي صحار، وعُمان، ومخا، وبغداد، والموصل، ومصر، والإسكندرية، ويشير إلى المغرب الأقصى.." ويذكر ذلك المؤلف كذلك اسم مرباط (في الجنوب العربي)، ويتحدث عن بيوتها المكونة من خمسة أدوار، كما يؤميء إلى نشاط التجارة بين عُمان والبصرة "ويتحدث عن قوة العرب ونشاطهم" أما عن أصناف البضائع التي كان أولئك التجار

العرب ينقلونها إلى الصين من الموانئ العربية في الخليج العربي وخليج عُمان والبحر الأحمر "ولكنها أصلاً آتية من الداخل أو من بلاد بعيدة، مثل المرجان المحمول من البحر المتوسط، والبلور الذي كان يصنع-حسب روايته- في بغداد والشام" ويقول إن ذلك البلور كان جيداً وأنقى وأنصع إذ ذاك من البلور المحلي في الصين!

ويشير المؤلف، من جهة أخرى، إلى بلدان العرب وديار الإسلام والمسلمين باسم "تا-شي" وإن كان في بعض المواقف من كتابه يستعمل هذه التسمية للجاليات العربية والإسلامية المقيمة حينئذ في جاوة وسومطرة، ويقول عن ديار العرب والمسلمين في هذا المجال "إنها بعيدة عن الصين مسافة كبيرة"!

على أننا في صدد الإلماع إلى هذا الكتاب الصيني القديم حول جوانب من الحياة العربية الإسلامية إنما أردنا التأكيد مرة أخرى على وجود علاقات ثقافية عريقة بين العرب والصين. هذه العلاقات التي ازدادت في القرن العشرين الميلادي-الذي نودعه- قوة ومتانة على مختلف المستويات، ومن جملتها مستوى تعريف الصينيين بالأدب العربي وروائعه، وهذا نوع مقابل ولكنه ذو مقام ملحوظ إعلامياً بين الطرفين، وهذا كذلك ما نشرته كدراسة تعريفية قيمة وكرافد جاد من روافد الإعلام العربي ومترلة الصين من خلاله-المجلة الكويتية "العربي" في عدد آخر[20].

وكانت تلك الدراسة الصحافية بقلم العالم الصيني المعاصر تشو كاي، الأستاذ في معهد اللغات الأجنبية بيكين. إن كتابة هذه الدراسة الإعلامية التي تحمل عنوان: "الأدب العربي في الصين لم تبدأ إلا في العصر الحديث" ويتجلى من خلالها أن المصنفات العربية التي تمت ترجمتها إلى اللغة الصينية ترجمة جدية لم تر النور إلا إنطلاقا من العشرينات من القرن العشرين الميلادي، تارة نقلاً عن الترجمة الإنجليزية، وتارة مباشرة عن أصلها في اللغة العربية.

ويمكن فصل فترة تلك الحركة وتطورها إلى مرحلتين: 1) قبل قيام جمهورية الصين الشعبية، و 2) بعد قيامها في آخر الأربعينات. وهذا ما نثبته على سبيل التوبيب والتبسيط:

أولاً: قبل قيام جمهورية الصين الشعبية سنة 1949

- جزءان من كتاب "ألف ليلة وليلة" صدرا عن دار الطبع للشؤون التجارية بمدينة شانغهاي، سنة 1924، واعتمادا على التجربة الإنجليزية.
- أربعة أجزاء من نفس الكتابة سنة 1930.
- ستة أجزاء من "ألف ليلة وليلة" مُترجمة مباشرة عن أصلها في اللغة العربية، بقلم المستعرب الصيني المعروف ناشيون، صدرت خمسة منها في الأربعينيات.
- كتاب "النبي" لجبران خليل جبران، مترجمة من اللغة الإنجليزية سنة 1933 بقلم الأديبة المشهورة بين شين.

ثانياً : بعد قيام جمهورية الصين الشعبية

- مجموعة شعرية عربية مترجمة إلى اللغة الصينية مباشرة عن أصولها، وتحتوي على 36 قصيدة لشعراء من مصر والعراق وسوريا والأردن ولبنان وفلسطين، أصدرتها في سنة 1958م دار الترجمات التي أصبحت تسمى مجلة الآداب العالمية.
- دواوين شعر لكل بلد على حدة من بلدان: السودان، والجزائر، والمغرب، وتونس، ومصر، وفلسطين، أصدرتها دور نشر أخرى.
- مجموعتان من القصص العربية نشرتها باللغة الصينية دار النشر للكتاب، ودار النشر للأدب.
- كتاب "الأيام" لطه حسين، الجزء الأول، والجزء الثاني، بقلم المستعرب السالف ذكره ناشيون.
- ترجمة ثلاثة أجزاء من "ألف ليلة وليلة" من الأجزاء الخمسة لطبعة قديمة صادرة عن مكتبة الرسولي ببيروت.
- كتاب "كليلة ودمنة" نشرتها باللغة الصينية دار النشر للأدب الشعبي عام 1959.

ذلك حتى أواخر الخمسينات ما أمكننا إجمال ذكره اعتمادا على الدراسة الإعلامية القيمة للأستاذ تشو كاي حتى إذا وصل إلى أواخر السبعينات تجلت لنا حينئذ فورة عامة من مترجمات الكتب والنصوص العربية إلى اللغة الصينية،ومنه مثالا وليس حصرا مجموعة "وادي الدماء" وهي 20 قصة قصيرة من إبداعات يوسف السباعي، وإحسان عبدالقدوس، ويوسف إدريس، ورشاد أبو شاور، وتوفيق يوسف العواد، وحنا مينة، وزكريا ثامر، ومجموعة أخرى من قصص محمود تيمور، وثالثة لميخائيل نعيمة.. ثم رواية "يوميات نائب في الأرياف" لتوفيق الحكيم، و"الأرض" لعبدالعرحمن الشرقاوي، و"العمر لحظة" ليوسف السباعي، و"عنتر بطل العرب وفارس الصحراء" لعمر أبو النصر، و "17 رمضان"، و"غادة كربلاء" لجرجي زيدان، وكتاب "الأدب العربي المعاصر في مصر" لشوق ضيف.

ويقول الأستاذ تشو كاي-وكالمه في مطلع الثمانينات- إن عدد المترجمين والباحثين المهتمين باللغة العربية وآدابها وترجمة بدائعها إلى اللغة الصينية قد بلغ أكثر من مائة متخصص.

وجدير بالذكر في هذا الصدد أن أول ترجمة كاملة في الصين وباللغة الصينية للقرآن الكريم هي التي أنجزها العالم الأستاذ محمد مكين ما جيان في جامعة بكين.

وقد سبقت الإشارة في جهة أخرى من عرضنا هذا حول "الصين في الإعلام العربي" إلى ترجمة كتب أحمد أمين وحسن إبراهيم حسن باللغة الصينية.

وما دمنا بصدد الأثر الحميد الناتج دوما عن ترجمة الإبداعات الأدبية من لغة إلى لغة أو إلى لغات أخرى كنشاط ثقافي مرموق بين الشعوب والأمم يجدر بنا أن ننوه ونشيد، على كاهل التقدير العميق، بالجهود التي تقوم بها دار النشر باللغات الأجنبية في بكين، فقد أتحفت القراء في العالم العربي بنماذج من روائع الأدب الصيني، ومنها، مثلا، الرواية الكلاسيكية الكبرى، "حلم القصور الحمراء" التي صدرت في مجلدين، للكاتب الصيني الكبير تساو شيويه تشين (في منتصف القرن الثامن عشر)، وقد صدرت طبعتها الأولى باللغة العربية سنة 1992. وهذه الدار الصينية النشيطة هي التي أخرجت للعموم في نطاق

نفس المسار التحف التالية: "قصص لوشبون المختارة"، و "طلوع الشمس"، و"عاصفة رعدية"، و "من إمبراطور إلى مواطن"-في مجلدين-، و"الأسرة"، و"الجمل شيانغ تسي"، و"ديدان القز الربيعية"، وقصص أخرى، و "أبناء التنين"، و"دروس في الحب"، و"عاشق البشم"، و"مطلع الربيع"، و"مدينة الحدود"، و"حكايات من بكين"..إلخ.

وقد كنا في أواخر الخمسينات 1959 قد طالعنا بالشوق والاستمتاع سلسلة "حكايات شعبية من الصين"، وكانت رائجة في عدد من البلدان العربية، وهذا مع العلم بأن دور النشر والمطابع العربية ولاسيما في المشرق العربي، قد حدبت في نطاق نشر المختارات الأدبية الصادرة عنها، على ترجمة نماذج وجيهة من الأدب الصيني المميز. ولن ننسى في هذا الصدد القصة القصيرة "الدواء" لعميد الأدب الصيني الحديث لوسن، وقد صدرت في مجموعة قصص الأدب الآسيوي خلال الستينات تحت عنوان: "عناق الأيدي" نقلها إلى اللغة العربية محمد البخاري.

وكانت "دار المعارف المصرية" في القاهرة قد تولت، أواسط الخمسينات من القرن العشرين الميلادي، الترجمة والنشر باللغة العربية لسلسلة ممتعة تحمل عنوان: "قصص وأساطير من الصين" وأصدرتها بطباعة أنيقة في تسعة كتب، كل كتاب منها يحتوي على ما بين نصين اثنين وثلاثة نصوص. وقد تمت هذه الترجمة اعتمادا على اللغة الفرنسية بتصريح من "دار ناتان للطباعة والنشر" في باريس.

وهناك نماذج أخرى للأدب القصصي والروائي الصيني تم نقلها قديما وحديثاً إلى اللغة العربية في نطاق التيارات الثقافية الخيرة القائمة بين الصين والبلدان العربية.

وختاماً لهذا العرض الذي أنجزناه حول "الصين في الإعلام العربي"، نذكر أن جمهورية الصين الشعبية قد أبرمت إتفاقيات للتعاون الثقافي والإعلامي وبرامج تنفيذية لهذا التعاون مع العديد من الدول العربية منذ الخمسينات حتى التسعينات من القرن العشرين الميلادي: مصر في 1956، سوريا في 1956 أيضاً، العراق في 1959، الجزائر في 1963، اليمن (العربية) في 1964، اليمن (الديمقراطية) في 1982، موريتانيا في 1967، السودان في 1970، تونس في 1979،

الأردن في 1979 أيضاً، عُمان في 1981، الكويت في 1982، المغرب في 1982 أيضاً، ليبيـــا في 1985، البحرين في 1991، لبنان في 1992..

ومَعلومٌ أن اتفاقيات التعاون الثقافي والإعلامي هـــي غـــير اتفاقيـــات الاعـــتراف الدبلوماسي وربط العلاقات الدبلوماسية.

الهوامش

(1) بالنسبة للمغرب حيث أجرينا اتصالاً مع الجمهور توجد اليوم هناك (سنة 1999) بعثات طبية صينية بأعداد موفورة وتخصصات مدققة: (1) في مدينة الحُسيمة 13 طبيباً للطب العام والطب النسائي والطب الداخلي، وأمرا القلب؛ و (2) بمدينة شفشاون 12 طبيباً للطب العام؛ و (3) بمدينة مكناس 10 أطباء من الصين في أمراض العظام، والحريق.. مع استخدام الوخز بالإبر (طبيب واحد لهذا التخصص)؛ و (4) بمدينة تازة 14 طبيباً في الطب العام؛ و (5) بمدينة فكيك 8 أطباء في الطب العام؛ و (8) بمدينة سطات 12 في الطب العام؛ و (9) بمدينة أسفي 4 في تخصصات مختلفة؛ و (10) بمدينة مراكش 6 في الحريق والعظام؛ و (11) بمدينة أزيلال 10 في الطاب العام؛ و (12) بمدينة أكادير 6 في الطب العام.

(2) كان فيما سبق مديراً للتلفزة التونسية، ثم مديراً للإعلام في مكتب الأمين العام لجامعة الدول العربية، كما تقلد منصب الأمين العام للمجلس الأعلى للإعلام والاتصال بالجمهورية التونسية لسنوات عديدة.

(3) كان السيد محمد بن ددوش لمدى أعوام مديدة مديراً للإذاعة المغربية بالرباط، واشتهر بخبرته الواسعة كصحافي مطلع زار في ميدان العمل مختلف أنحاء العالم. وله بحوث واستطلاعات كثيرة في هذا المجال ويعتبر في المغرب من أكبر رجال الصحافة السمعية البصرية والمكتوبة.

(4) أبو عبدالله محمد "إبن بطوطة" ولد في طنجه من المغرب سنة 1304 للميلاد، وساقه حبه شاباً للأسفار والرحلات إلى مختلف بلدان العالم إذ ذاك، ومن جملتها بلاد الصين.. وقد تُوفي سنة 1377.

وصف ابن بطوطة بلاد الصين وأحوال أهلها وصفاً دقيقاً وأمينا، كما وصف معاملات هؤلاء فيما بينهم، وخصوصياتهم.. وحكي في رحلته عن بلاد الصين المغامرات التي تعرض هو لها أو اعترضته، وقال عن بلاد الصين إذ ذاك إنها إقليم متسع، كثيرُ الخيرات والفواكه، والزرع، والذهب، والفضة، ولا يضاهيه في ذلك إقليم من أقاليم الأرض.. وابن بطوطة يطلق على جهات من الصين أسماء كانت رائجة من قبل، فمثلا "صين الصين" ويعني هنا كانتون الحالية، و "خان بالبق" هي بكين، و"بلاد الخطاء" هي الصين الشمالية؛ وقال كذلك إن الحرير عند أهل الصين كثيراً جداً.

(5) من دون أن ندخل إقليم تايوان وقطاعي هونغ كونغ وماكاو في الحساب، بلغ عدد سكان الصين في سنة 1995م ما إحصاؤه: 1.211.210.000، بينهم-اعتمادا على ما بأيدينا من البيانات- نسبة 85.7 في المائة من سكان البوادي، ونسبة 26.15 في المائة من سكان المدن والحواضر (كتاب "الصين" الطبعة الثانية باللغة الفرنسية لسنة 1997، الصادر عن مطبوعات "النجم الجديد، في بكين، ص .ص. 43 و 44 .

(6) إن السيدة صاحبة هذه الإجابة فضلاً عن ثقافتها فإنها من الصحافيات العربيات المميزات، ولو أنها مقلة في كتابتها.

(7) ينظر في هذا المجال بصفة عامة الكراس الصادر عن مطبوعات النجم الجديد، سنة 1998م ببكين، ويحمل في اللغة الفرنسية العنوان التالي: Les Organes de Communications avee L'extérieur de la Chine

(8) كُتيب "نهضة تامة للتلفزيون الصيني" الصادر سنة 1996 عن دار النجم الجديد، في بكين، النص الفرنسي.

(9) كتيب "نهضة تامة للتلفزيون الصيني"، ص 19، من النص الفرنسي.

(10) موسم 1993 وموسم 1997 بالمغرب (قاعة الفن السابع بالرباط).

(11) مجلة "العربي"، الصادرة في الكويت، عدد أكتوبر 1993.

(12) كما أشرنا من قبل، في نهاية سنة 1995 بلغ عدد سكان الصين 1.211.210.000 (خارج إقليم تايوان وقطاعي هونغ كونغ وماكاو). راجع كتاب "الصين" الصادر سنة 1997 عن دار "النجم الجديد" في بكين.

(13) نفس المصدر الإعلامي "العربي"، عدد أكتوبر 1993.

(14) مجلة "العربي" عدد أكتوبر، ص 119.

(15) كتيب "الأديان وحرية الاعتقاد الديني في الصين"، ص11، مطبوعات دار النجم الجديد في بكين، باللغة العربية.

(16) ونعمل ما أمكن من الاختصار في تحليل هذه الدراسات الثمينة فعلاً بالاطلاع والتأمل.

(17) قيل إن هذا الحديث ضعيف ومشكوك فيه، ولكنه على كل حالٍ قولٌ قديم له دلالته.

(18) تذكر البيانات الرسمية لدولة الصين في سنة 1997 أن عدد المساجد في الصين أكثر من 30 ألف مسجد (أنظر صفحة 11 من كتيب "الأديان وحرية الاعتقاد الديني في الصين").

(19) مجلة "العربي" نوفمبر 1986، صفحات 190، 191، 192، 193.

المراجع

أولاً : مجلات عربية.

- "العربي": مجلة شهرية، تصدر عن وزارة الإعلام بدولة الكويت، الأعداد، أغسطس1963، ديسمبر 1976، يناير 1977، سبتمبر 1977، نوفمبر 1978، يناير 1981، فبراير 1983، نوفمبر 1986، يوليو 1988، أكتوبر 1993.
- "الهلال": مجلة شهرية تصدر عن دار الهلال، بالقاهرة، عدد يونيو 1980.
- "رسالة الجهاد": مجلة شهرية، تصدر عن الجماهيرية العربية لليبية الشعبية الإشتراكية، وتوزع من مالطا، صندوق بريد P.O. Box : 03 Paola ، عدد نوفمبر 1991.
- "الوعي الإسلامي": مجلة شهرية تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت، عدد ديسمبر 1995، وعدد نوفمبر 1996.
- "المجلة": مجلة أسبوعية تصدر عن الشركة السعودية للأبحاث والنشر، صندوق بريد 4556، جدة، عدد 18 فبراير 1995.
- "المجلة العربية" : مجلة شهرية تصدر في الرياض.
- "الحوادث": مجلة إخبارية أسبوعية تصدر عن شركة الحوادث.
- "مجلة الشرق الأوسط" أسبوعية مصورة، جدة.
- "الصين اليوم": مجلة شهرية تصدر من بكين عن جمعية الرعاية الاجتماعية، أعداد متفرقة باللغة العربية.

ثانياً : مجلات باللغة الفرنسية.

1- L'EXPREESS-Hebdomadaire-Paris, No 15 Janvier 1987 et No 29 Juillet 1993 (Numéro spécial: Chine)

2- Jeune Afrique – Hébdomadaire-Paris.

No 1680 (20-26 Mars 1993)
No 1724 (20-26 Janvier 1994)
No 1749 (14-20 Juillet 1994)
No 1750 (21-27 Juillet 1994)
No 1759 (22-28 September 1994)
No 1766 (10-16 November 1994)
No 1767 (17-23 November 1994)

No 1788 (13-19 Avril 1995)

3- Le Nouvel Observateur-Hebdomadaire-Paris No 1157 (9-15 Janvier 1987).

4- Courrier International –Paris No 442 (22-28 Avril 1999)

ثالثاً: كتب وإبداعات باللغة العربية.

1- كتاب: "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، مجلدان، ابن بطوطة، تحقيق علـــي المنتصـــر الكتاني، إصدار مؤسسة الرسالة، بيروت.

2- كتاب : "الروائع"، تأليف فؤاد أفرام البستاني، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، أعداد 4، 5، 6.

3- كتيب: "الأديان وحرية الاعتقاد في الصين"، دار النجم الجديد، بكين.

4- كتيب: "تعزيز البنية الأساسية للنقل والاتصالات والطاقة في الصين"، مطبوعات دار النجم الجديد، بكين.

5- كتيب: "المؤتمر الوطني الخامس عشر للحزب الشيوعي الصيني"، مطبوعات دار النجم الجديد، بكين.

6- كتيب: "التراث الثقافي والطبيعي العالمي في الصين"، مطبوعات دار النجم الجديد، بكين.

7- مجموعة: "قصص وأساطير من الصين" (تسعة كتب، منشورات دار المعارف بمصر، القاهرة.

8- مجموعة: "حكايات شعبية من الصين"، مطبوعات دار النشر باللغات الأجنبية، بكين.

9- "عناق الأيدي"، قصص من الأدب الآسيوي، ترجمة محمد البخاري، مطبوعات "كتب ثقافية"، القاهرة.

10- رواية "حلم القصور الحمراء"، تساو شيويه تشين، دار النشر باللغات الاجنبية، بكين.

رابعاً : كتب باللغة الفرنسية.

1- Histoire générale de la Chine, par Hian Bozan, Shao Xunzhen et Hu Hua, Editions en Langues étrangères-Pékin 1997.

2- Chine, par Qin Shi , Nouvelle Etoitle-Pékin 1997.

3- Le Tourisme en Chine, par Li Hairui, chine Intercontinental press. Pékin 1998.

4- La Chine, par peter Scchit, Ulla et Johannes Küehler La Bibliothèque des Arts-Lausanne-Paris.

5- Chine : Faits et Chiffers, 1998, Nouvelle Etoile-Pékin.

6- Les Organes de Communications avec l'Extérieur de la Chine, Nouvelle Etoile –Pékin 1998 .

7- Plein essor de la Télévision Chinois, Nouvelle Etoile , 1998 .

8- Encyclopaedia Universalis : Etudes et Article sur la Chine, volu,e 5-Edition 1990 France et additifs 1995 et 1998.

اليهود وألف ليلة وليلة

تأليف: جمال البدري
دار الحكمة-بغداد 1998
قراءة وعرض: د. سعاد محمد خضر

أضع بين يدي القارئ الكريم عرضاً نقدياً لكتاب يتحدث عن نفسه: منْ غلافه إلى إهدائه، ومِن إلفه إلى يائه، يسير الكتاب حثيثا في تشويه التاريخ العربي الإسلامي في حِقْبَة مِنْ أخصب عصوره الحضارية العظيمة ويعمل على خلخلة الإيمان بَرموزه وموروثه وأدبه قديماً وحديثاً...

ويحمل الكتاب عنوان "اليهود وألف ليلة وليلة" للكاتب جمال البدري. وحيث يوحي العنوان بألف تساؤل وتساؤل في نفس القارئ. يجيء المتن بعد ذلك مجيبا في إدعاء واضح بتأكيده رأيا خطيراً مَؤداه أن اليهود هم الذين ابتدعوا حكايات "ألف ليلة وليلة"..

أنه يقدم المعلومة-الصدمة الواحدة تلو الأُخرى مستخدما أسلوب الحرب النفسية عندما يؤكد أن مؤلف الليالي ".. ليس عربيا ولا ملسما، بل اتخذ العروبة والإسلام والآداب الشرقية وسيلة لغايات أخرى (ص9)، بل أنه حتى يشكك في عروبة العنوان "الف ليلة وليلة".

أنه يحاول المستحيل في سبيل التأكيد على أن "ألف ليلة وليلة" ليست سوى برنامج رمزي كان اليهود قد قاموا بإعداده رغم أنف العرب المتخلفين وغير الأذكياء في نظره لكي يحافظوا على مقومات الماضي اليهودي الموروث وتعميمه بحيث تبقى الأسطورة اليهودية ماثلة للأذهان، وبحيث يقوم عرب اليوم الغارقون في بحور التخلف والجهل باحتضان الاسطورة والإيمان بها لدرجة زعزعة وخلخلة إيمانه بموروثه الحضاري ورموزه التاريخية، لأن كل ذلك وهم ولأن اليهود هم الذين قاموا باصطناع كل ذلك الموروث انتظاراً لليوم الذي يعودون فيه للفردوس المفقود، ويستعيدون حكم وسُلطان "شعب الله المختار"؛ ومبررين بذلك إدعاءهم بالحق في الأرض وفي التاريخ... وأقول ادعاءهم لأن عملية زرعهم على أرض فلسطين كان توظيفا للفعل الامبريالي الذي كان يسعى آنذاك للهيمنة المطلقة على ثروات العالم العربي، وللحفاظ الدائم على تلك الهيمنة.

لقد ظل الفعل الامبريالي يسعى لإنجاز ذلك عبر القيام بانجاز مهمتين اساسيتين متوازيتين: الحفاظ على ديمومة التجزئة على حدة حتى تفقد إمكانية الحصول على القدرة الموضوعية الذاتية على تشكيل القاعدة الأساسية لنموها وتطورها محتفظة هكذا بجوهر التخلف الذي مازال يتفاقم مع الاسف... أما المهمة الثانية والمتمة لها والتي تضمن ديمومة ذلك الوضع هو إنشاء دولة إسرائيل وزرعها في قلب العالم العربي. يقول الكولونيل تشارلز هنرى تشرشل الضابط السابق في قوات الحلفاء التي حاربت محمد علي حاكم مصر، والذي أصبح بعد ذلك قنصلا في دمشق يقول:

"... أن فلسطين في العقل الإمبريالي، وكما هي فعلا الصلة الجغرافية بين الشرق والغرب، ورأس الجسر بين ثلاث قارات وعقدة الدفاع العسكرى عن الامبراطورية، بل المنطقة الضرورية للدفاع عن طريق السويس، والطريق إلى الهند وعن آبار النفط في الموصل.."[*].

ومن الطبيعي إذن أن يواكب ذلك المخطط إعلام مدروس يهدف استراتيجيا إلى تحقيق الفعل الامبريالي. ولم يوفر الاسرائيليون والإعلام الصهيوني جهدا لتحقيق وتقوية ومواصلة ذلك الفعل بانتهاج سياسة إعلامية تعمل عبر نشر المعلومات الخاطئة والكاذبة على تشويه الماضي والحاضر ضاربة على الوتر الحساس في كل مجتمع عربي على حدة. ويأتي الكتاب الذي نحن بصدده الآن ليساهم بدوره في إعطاء زخم لمثل ذلك الإعلام الموتور ومقدما لهم مساعدة مجانية تبريرية.

ولنعد إلى الكتاب العتيد. إنه بعد أن يقدم معلومته-الصدمة الخطيرة في بداية الكتاب حول الليالي الألف، يتركها مؤقتا ليستعرض لنا تاريخ الوجود اليهودي في العراق منذ تم أسرهم على يد "سنحاريب" الملك الآشوري حيث أن الأسرى استوطنوا منطقة القوش واعتنقوا المسيحية واختلطوا بالاقوام الموجودة آنذاك. ومن ثم يصل إلى مرحلة السبى البابلي على يد "بنو خد نصر" الملك البابلي الشهير الذي أحرق أو رشليم وأحضرهم مشيا على الاقدام من أورشليم إلى بابل. ويقرر الكاتب بأن اليهود منذ ذلك العهد ظلوا ينتظرون منقذا ياتي لينقذهم ويساعدهم. وانهم ظلوا على تلك الحال حتى سقوط بابل على يد الملك كورش والفرس الاخمينيين حيث أعادهم إلى أورشليم. ويدعى أن اليهود قد تمتعوا برعاية ومعاملة أرقى في ظل الفرس، ولذلك مغزاة الذي يرمى إليه الكاتب بين السطور. وأن تلك المكانة قد حظوا بها بعد زواج "استير" اليهودية من الملك الفارسي.

أن الفصل الأول كله محاولة لتهدئة وتهيئة الأذهان لتقبل آرائه الغربية بشأن الليالي الألف-وما إيراده لتاريخ اليهود القديم وتهويدهم التراث المصري القديم والبابلي والهندي والفارسي إلا لتكريس تلك التهيئة للاذهان... إنه بعد إيراده للوجود اليهودي القديم أثناء

(*) د. عمر فووخ، التبشير والاستعمار. المكتبة العصرية صيدا، 1964، ص 182.

السبي البابلي الشهير ينتقل فجأة وبدون مقدمات في نهاية الفصل الأول إلى النتاج الفكري في العصر العباسي المتأخر تاركا تلك الفجوة الزمنية الكبيرة منذ سقوط بابل وحتى دخول الإسلام مرورا بالدولة الأموية والعصر العباسي الأول، عصر ازدهار الحضارة العربية-الإسلامية ليقفز إلى العصر العباسي الثاني، أي عصر بداية تدوين الليالي الألف ومع ذلك، يصر على أن شهرزاد "إنما هي استير اليهودية التي تزوجت الملك الفارسي "المنقذ. كما يسمى في توراة بابل. وقارن أنت عزيزي القارى بين الاثنتين اللتين ظهرتا في الكتلب الذي نحن بصدده على أنها شخصية واحدة رغم تلك الفجوة الزمنية الكبرة بين الاثنتين. من المعلوم تاريخيا أن اليهود كانوا يتمتعون بالرعاية والحرية في أي بلد عربي من دول الخلافة الإسلامية، فقد كانوا يعتبرون من أهل الذمة، يدفعون جزية رمزية ويعملون في التجارة ويمارسون عباداتهم ويدونون أدبياتهم في حرية تامة. أنه يتناسى كل ذلك، ويتناسى تلك الفترة الزمنية الطويلة ليأتي على بداية انهيار الدولة العباسية. وهو لا يأتي على ذكر هارون الرشيد إلا ليحط من قدره مشككا حتى في وجوده التاريخي، وذلك لكي يعيد إلى الأذهان المعلومة-الصدمة التي تركها مؤقتا ليتحدث عن تاريخ اليهود وخصوصيتهم ومحافظتهم على نقاء جنسهم(!) وعلى تراثهم... ويتحدث عن تدوينهم التوراة والتلمود والزوهار مضيفا وبجرأة فاضحة بانهم دونوا والفوا "ألف ليلة وليلة". ثم يقرر معلومة-صدمة في فصل آخر بقوله: "العهد القديم" هو الأول، "العهد الجديد"-الإنجيل- هو العهد الثاني و"الف ليلة وليلة" هي العهد الثالث (ص78).. ويواصل كلامه بقوله "وسواء كانت ألف ليلة وليلة هنا أو ذاك، فإنها بحق عهد ثالث متجدد يرقى إلى ما قبل، مكانة وتأثيرا وارتباطا باليهود واليهودية".

ويترك تلك المعلومة-الصدمة تفعل فعلها مؤثرة في عقلية القارئ غير المطلع، ليعاود على طريقته في إيراد الآراء ويقوم بمحاولة فاشلة في مقارنة كتابة الليالي بتوراة اليهود مدعيا "إنها تشبه تقسيمات الكتاب المقدس في تقسيمها إلى أسفار وصحاحات تتناول قصة أحد الأنبياء أو حادثة ذات دلالة تاريخية أو دينية". ويعاود الادعاء وفي إصرار مريض بأن روح التوراة والتلمود البابليتين قد انتقلت إلى الف ليلة وليلة. وهو يورد كل تلك الآراء الغريبة بقوله نظن، نرجح...إلخ. ولتأكيد ذلك يحاول حشد معلومته-الصدمة بآراء غريبة عن وراثة الموقع والأفكار وتقبل

الأجيال لذلك، عبر العصور وعبر تلك الأساطير المستقاة من واقعهم مما يؤدي إلى التحكم في توجيه الرأي والسلوك الفردي والجمعي وتحقيق جميع الأهداف ومن ثم تحويل كل ذلك إلى تبعية حقيقة مسلم بها تاريخيا ووراثيا.

هكذا يقدم تبريرا مجانيا للإدعاءات الصهيونية بأن مملكتهم تمتد من الفرات إلى النيل... وهنا يقفز من فصل خاص إلىالنسخة المصرية من الليالي حيث يقرر أن رؤساء الجالوت قد كتبوها بدورهم. فمن المعلوم أن نسخة الليالي الألف المصرية هي المعتمدة اليوم والمترجمة إلى جميع اللغات... ولتأكيد رأيه الغريب هذا، نراه ينساق في إيراد أكاذيب وإدعاءات لا تسندها أسانيد علمية أو تاريخية عندما يتحدث عن علاقة الدولة الفاطمية باليهود والتي تأسست في مصر مع أفول نجم الدولة العباسية وحيث أصبحت مصر في قلب العالم الإسلامي-العربي. ويسترسل في افتراءاته فيؤكد على أن الدولة الفاطمية قد احتضنت اليهود وعلى علاقات وثيقة معهم. ولتدعيم ذلك الرأي الغريب يعتمد في الحواشي على كتب كتبها هو و لم يطلع عليها أحد بالطبع، بل ولا علاقة لها بذلك الرأي المدسوس حيث يذكر أن موضوع الكتب في الحاشية يدور حول الأحزاب الدينية-الإسرائيلية.

إلى جانب ذلك، فهو يحاول أن يضرب عصفورا آخر بحجر لغاية في نفس الكاتب عندما أوحى بأن اليهود هم كاتبو ألف ليلة وليلة "العراقية" والتي اعتمدت في مصر واضيفت إليها حكايا من عصور تالية ومستقاة من واقع الحياة المصرية اليومية في ظل الدولة الفاطمية والأيوبية ومن ثم في ظل المماليك، وحيث تذكر تلك الليالي الألف-النسخة المصرية- قصصا عن الفرنجة وعن المماليك وعن الصعاليك والجن. ويعود ليؤكد بأن علاقة اليهود بالفاطميين قوية عندما قال "فقد ترسخت" (يهودية) ألف ليلة وليلة رسميا أكثر من ذي قبل على أيدي يهود مصر وبدعم من الفاطميين؟! أنه يريد أن يوحي للقارئ بأنه طالما أن اليهود هم أصحاب الليالي الإلف في نسختيها وطالما أن شخصيات الحكايا أوهام وخيال، إذن فإن القاهرة ومعزها وازهرها، ومن ثم صلاح الدين فاتح القدس والمرتبط بالدولة الأيوبية كلها أساطير وأوهام خلقها اليهود... هكذا!

وبنفس اللهجة والطريقة يقرر كذلك بأن المماليك الذين هزموا الصليبيين بدورهم واوقفوا زحف موجات التتار بانتصارهم على تيمور لنك؛ ماهم سوى أساطير وأوهام ذكرقم الليالي الألف في نسختها المصرية.

ألا يصب ذلك الفصل العجيب في روافد الإعلام الصهيوني المعاصر الذي لا يتعب ولا يكل من النيل من تراث مصر حديثه وقديمه منذ عصر بناة الأهرام وحتى اليوم، حيث ينسبه كله لليهود... وأنت أيها القارئ الكريم يمكنك أن تقرأ ذلك في صحفهم وأدبياقم وفي إذاعاقم اليوم... إنه الحقد الأسود على مصر وعلى المصريين الذين طردوهم وموسى من "بيت العبودية" كما كانوا يسمون مصرا حيث كانوا عبيدا في المجتمع المصري آنذاك. فأين هم من بناة الأهرام التي تفصل بين عصرهم وعصر موسى خمسة آلاف سنة قبل الميلاد. وفي عصر الدول الحديثة طردهم الفرعون "منفتاح". إن الكاتب وهو يردد تلك الأراجيف في كتابة العتيد، إنما يرفد الفعل الإمبريالي الذي تحقق بزرع إسرائيل والذي كان كان يهدف كما تقرأ ذلك في مذكرات هرتسل أو غيره من مفكري الصهيونية، إلى تجزئة الوطن العربي بفصل وعزل مصر عن سوريا ونحن العالم العربي... بل أنه يكرس الوجود الإسرائيلي الصهيوني على الأرض العربية ومساعدا بذلك في تقرير شرعية ذلك الوجود بتحقيق شقى المعادلة التي خططها العقل الإمبريالي في بداية القرن.

ليعذرني القارئ على ذلك الاستطراد فإن الشيء بالشيء يذكر. وأعود إلى الكتاب وأرى المؤلف ينتقل فجأة إلى الحديث عن المهدي المنتظر مشبها اختفاءه في سامرا بمحنة اليهود التي ابتدأت من سامراء كذلك في عهد الخليفة المتوكل بالله... وما هو وجه الشبه هذا؟ إن فكرة المهدي المنتظر نلتقى بها في جميع العقائد والأديان قديمها وحديثها لأن المنقذ القادم من أعماق القرون سوف يأتي ليملأ الدنيا عدلا وسلاما ويمحو سنوات الظلم والقهر والجور... وفكرة المهدي المنتظر موجودة في أحلام جميع الشعوب، أكان هو المسيح أو الماشيح أو جودو...

وعلى طريقة القفز على الموانع، يترك المعلومة لتفعل فعلها في نفس القارئ وينتقل إلى موضوع مختلف تماما ليتحدث عن وجود مدرسة "سورا" اليهودية الواقعة على طريق الكوفة-الحلة، حيث يقيم رأس الجالوت، والذي يدعى المؤلف أن رأس الجالوت هذا وراء تاليف الليالي ويقول..."نرجح ان الف ليلة وليلة قد تمت كتابتها في تلك المدرسة، اي مدرسة "سورا"... كيف يمكنه أن يرجح ويظن ثم يدلى بهذا الحكم القاطع؟!

ثم ينطلق ليتجول في أرجاء الليالي ويدعى بأن عالمية وكونية الليالي هي أول مشروع للدولة الأممية... ويستخدم المؤلف هنا مفردات حديثة تحوى مدلالات سياسية ومعان لاتخفى على الاريب... فهو يضرب يمينا ويسارا من أجل تبرير آرائه المساندة لليهود ولعبقريتهم مستطردا "تلك الدولة الأممية التي تتيح للفرد كل المحرمات السياسية والاجتماعية والتقاليد"، هكذا... ولك عزيزي القارئ أن تستنبط ما يريد المؤلف قوله..

وفي فصل آخر، يترك ذلك التقرير المفاجئ ليعود إلى شخصيات الليالي ويتوقف عند اثنتين منها: "البنى سليمان" والخليفة "هارون الرشيد".

وليرجع القارئ إلى أولى صفحات الكتاب ويقرأ الإهداء الذي قدمه المؤلف لتلك الشخصية العربية-الإسلامية ذات التاريخ المجيد بقولة: "إلى هارون الرشيد رمز بغداد الخالد وبطل جميع الحكايات على مدار الأيام والليالي والسنين".

قبل أن أناقش هذا الرأي، أود أن أورد معلومة صغيرة من التوراة وعن البنى سليمان.. "ويضطجع داوود بامرأة(*)." أوريا الحتى"، فتحبل وتلد له النبي سليمان! وتستطرد التوراة: أما النبي سليمان فكانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلاثمائة من السراري، فأمالت نساؤه قلبه. وكان في زمان شيخوخة سليمان قد أمالت نساؤه قلبه وراء آلهة أخرى و لم يكن قلبه كاملا مع الرب. فذهب سليمان وراء عشتروت الهة الصيدونيين".

(*) المرأة المذكورة هي "بتشع بنت بلعام" امرأة اوريا الحتى وهو أحد ضباطه الأقوياء، وقد كتب داوود رسالة ارسلها بيد اوريا إلى يؤاب.."احعلوا اوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت". [سفر التثنية-اصحاح 29].

تقول لنا التوراة أن النساء أملن قلب سليمان فكفر وعبد الأصنام. وهكذا شهد شاهد من أهلها. وأتوقف عند ذلك وأعود لمؤلف الكتاب الذي يدعى أن اليهود قسموا عالمى الليالي إلى عالم الروح والخلود الدائم الذي جسده سليمان(؟)، وعالم المتعة الفانية والترف الذي جسده هارون الرشيد. ولن أورد هنا آيات من القرآن الكريم ولكنني أحيل المؤلف إلى كتب التاريخ التي تتحدث عن هارون الرشيد رمز بغداد الحقيقي والثابت والذي كان يقضى سنة في الحج وسنة في الحرب. أي أنه كان يقضى سنة في العبادة والتبتل، والأخرى في الحرب حفاظا على حدود الدولة. كيف يتجرأ على التجريح في رمز نذكره دائما مع ذكر بغداد والحضارة العربية-الإسلامية التي بلغت الذروة في عهده؟ وكيف يقلب الآية فينعت هارون بصفات سليمان التي تتحدث عنها التوراة نفسها وليس نحن؟

وينتقل الكاتب إلى رحلات السندباد ويتوقف عند رحلات السندباد التي يصفها بإنجاز تعبير عن "صرخة الحرية" التي أطلقها اليهود بعد أن تم تضييق الخناق عليهم على حد قوله..

وهو يتوقف كثيرا عند قصة "حاسب كريم الدين ورحلته العجيبة عندما يحاول أن يأخذ منها ما يؤيد رأيه العجيب الذي لا يدلى به سواه وهو أن ورود ذكر الحاكم "ملكا" وليس خليفة هو من صميم الفكر اليهودي (كذا) وانهم أوردوا ذلك لتحقيق نص الخلافة العباسية أي أنه يعود ويؤكد رأيه السابق في أسطورة ووهم وجود الخلافة الإسلامية أصلا. وهو يصر على أن ذلك تفكير كابالى تلمودى لأن حاكم أورشليم في نظرهم يجب أن يكون ملكا وتبقى المراكز الأخرى الأقل لغير اليهود. ويحاول تأكيد رأيه بقصة مملكة الحيات. ويفسر موضوعه ذبح الحية وطبخها بأنه سلب للملوكية من اليهود ووصولها لغيرهم، أما الوريث فهو "بلوقيا"، اسم يهودي قديم... بالطبع من الممكن أن يرد اسم كهذا أو غيره من أسماء اليهود فهم جزء من مجتمع يعيش في ظل الخلافة الإسلامية وليس دليلا أبدا على أن اليهود تعمدوا ذكر اسمه في الليالي التي ألفوها كما يدعى.

أنه يبحث دونما كلل ليجد أي شيء يمكن أن ينسبه خطأ وادعاء إلى اليهود ليبرر رأيه. وحتى ما أورده هنا من قصة حاسب كريم الدين أو رحلات السندباد أو غيرها من حكايات الليالي، لا تعطيه تبريرات شافية لرأيه العجيب. أنه يدعى بأن كل ذلك "شفرة كابالية" تجعل من أسرار الليالي لغزا منيعا... وبعد ذلك يدلى برأي له وقع الصدمة عندما يقرر في نهاية الفصل قائلا "**...بأن هذا يؤكد لنا أن صيغة تأليف حكايات الليالي لم تكن فعلا فرديا بقدر ما هي نتاج جهد جماعي مشترك تحت إشراف مركزي له صيغة وراثية لأسرار (العالم الباطني) مع الاستمرار عبر أكثر من جيل وعهد**". هكذا يستنتج استنتاجات خطيرة من آراء قدمها هو وغير مسندة لا تاريخيا ولا علميا ولا دينيا ولا أدبيا حتى...

إذا ما كان اليهود بتلك العبقرية "الفذة"، فلماذا لم تكتب الليالي في عصور سابقة أقدم؟ فقد كانوا فعلا عبيدا في العالم القديم سواء في مصر عندما طردهم الفرعون منفتاح أو في بابل في العهد الشهير بالسبي البابلي... ولماذا لم يكتبوها في بداية العصر العباسي مع ازدهار الحضارة مثلا؟ ولماذا اختاروا فقط ذلك العهد؟ أنه يحاول أن يستخدم شخصيات "ألف ليلة وليلة" وأن يأخذ من بينهم من يمثل أو يؤيد رأيه سواء أكان إنسانا أم حيوانا، طيرا أم سمكا في البحر محاولا نسبتها إلى ما يمكن أن يلتقى معها في التوراة.. ليس هنا مجال لمناقشتي لما جاء في التوراة، ولكنني فقط سأحاول أن أناقش فصلا آخر قد انتقل إليه فجأة بعد ذلك بعنوان المال والتجارة. ونراه ينسب حب المال والتجارة لليهود فقط. ولأن اليهود يحبون جمع المال ويحرصون عليه فهم إذن وراء تلك القصص... وكأنه نسى أو تناسى أن العرب مهنتهم التجارة قديما وحديثا (رحلة الشتاء والصيف)... فلماذا يربط التجارة فقط باليهود..؟

من المعروف تاريخيا أن طريقة حياة العرب الاجتماعية قبل الإسلام كانت المصدر الأساسي والجوهري لعقائدهم وأساطيرهم ومحورها أسطورية التجارة... وظل الحال كذلك في معظم المجتمعات الإسلامية في العصر الوسيط حيث كانت التجارة بدورها جوهر تراثهم ومحورا أساسيا يتحكم التاجر به في صميم العلاقات الاجتماعية آنذاك.

وقد عكست "ألف ليلة وليلة" أسطورية التجارة تلك في حكايات يدور معظمها حول الجنس كمحور أساسي يتحكم في ا لتاجر... وتذكر الليالي نماذج مختلفة للتجار فمنهم الحكيم والفقيه والولهان حتى الموت، والعنصري والنخاس والسندبادي والكسلان وحتى التاجر الخليفة... إن وقائع الحياة تلك بكل صورها وصراعها الطبقي والعقائدي قد تحولت إلى أمثال وحكايات تتحدث رموزها وألغازها عن الأوضا ع الاجتماعية السائدة آنذاك.. وتتحدث الليالي عن العلاقات المتبادلة بين المرأة والتاجر في إطار سلطوى استبدادي موضحة القمع المتسجد في عبودية المرأة-السلعة التجارية في أيدي التجار وذوى السلطان والمال والقوة العسكرية القمعية... أنها تتحدث كذلك عن الليل الشرقي في المجتمعات الإسلامية في العصر الإسلامي الوسيط، أي المجتمع العباسي آنذاك... وتعبر أساطير الليالي كذلك عن قوة الإنسان المتسلح بالقوى الغيبية فهي تمثل من وجهة النظر تلك الشمول والكونية عبر عملية تقنين العملية الاجتماعية اقتصاديا ومن ثم سياسيا.

لقد تمت كتابة "ألف ليلة وليلة" على مراحل زمنية مختلفة. ومن هنا اختلاف شكلها وأسلوبها رغم الوحدة الدرامية الداخلية... فالليالي الألف قطعة من الحياة الاجتماعية-الاقتصادية في العراق العباسي الذي استوعب الموروث الأدبي والعقائدي في العصور السابقة، مضافا إليها الكثير من الموروثات التي حملتها المجتمعات التي انخرطت في دولة الخلافة الإسلامية بمختلف أقوامها، من دخل منهم الإسلام ومن كان يدفع الجزية... إن الليالي الألف صفحة من تاريخ المجتمع العربي-الإسلامي بأوضاعه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعقائدية في أرجاء دولة الخلافة الإسلامية المترامية الأطراف والتي تضم بين جناحيها شعوبا متمايزة مختلفة دخلت الإسلام وحملت معها ارثها الحضاري العريق. ومن طبيعة الأشياء والحياة أن تتلاقح الثقافات والحضارات تؤثر وتتأثر... وانصهرت الأساطير والآمال والطموحات والأحلام والرغبات وآلام تلك الشعوب المختلفة بجميع طبقاتها في حكايات الليالي الأسطورية... واليهود، وهم جزء من ذلك المجتمع، فمن الطبيعي أن يرفد كل ذلك الموروث فكرهم ولكنه لا يجعله أبدا بالمقابل المرتكز والأساس... من الطبيعي أن يتأثروا وأن يستقوا من ذلك الموروث ما يريدون، ولكن ليس من الطبيعي أن يكونوا هم

القلة التي تقف وراء موروث تلك الكثرة من الشعوب والأقوام. ولا مجال هنا للحديث عن تلك الحقبة المزدهرة من تاريخ الحضارة العربية-الإسلامية... فالكل يعرف تأثير تلك الحضارة والفكر الإسلامي-العربي الفلسفي والعلمي الذي كان كثيرا كبيرا ومؤثرا مما أدى إلى ظهور عصر النهضة الأوربية... ويعترف بذلك مؤرخوهم ومستشرقوهم...

إنني لم أصادف في حياتي من كتابات المستشرقين الذين تناولوا الليالي بالدراسة والتحليل، ولا من مقدمات الترجمات المختلفة لـ"ألف ليلة وليلة" ولا في الدراسات الفلسطينية والعربية الحديثة أو القديمة السياسية أو الدينية أو الأدبية من يدعى ما أدعاه مؤلف الكتاب الذي نحن بصدده الآن. وحتى اليهود أنفسهم لم يستطيعوا أن يقرروا ذلك بل لم يتجرأوا ليقولوا ذلك. ولكن الكاتب جاء ليقدم لهم كل موروثنا الثقافي مع الليالي الألف على طبق من ذهب. فإنه لم يتوقف فقط عند الليالي بل أورد رأيا في منتهى الجرأة العجيبة مؤكدا على رأيه غير المسند كالعادة بقوله..."**إننا نجد كثيرا من المتشابهات الأدبية لمؤلفين سابقين أو معاصرين لليالي قد تمت صياغة كتاباهم بأسلوبها بعد أن تعاملت معهم جهة تأليف الليالي بطريقة ألف ليلة وليلة**"... ويعدد الكثير من الأسماء المعروفة كما قصص السماء وقصص البحر وذاكرا كذلك أسماء القاص التنوخي أو مسكويه ويستطرد قائلا "**وهكذا انتشر العديد من كتب النوادر والفروسية والعشق والحيوان والبخلاء والظرفاء والسمار والشعراء والأمراء والصوفية والبطولة**". أنه لا يوفر شيئا ولا أحدا... كل ما لدينا ليس لنا، وأن وجد شيء ما فهو بوحى وتوجيه اليهود... هكذا وبكل بساطة...

وأنا أقول للمؤلف، كيف تسمح لنفسك بتقديم تراث بلادك وكل ماضيك وكل ثمار حضاراتك القديمة لاعداء بلادك؟ فهل يعقل مثلا أن يقوم المصريون القدماء بتقديم تراثهم الفرعوني الخالد كما نصوص الأهرام وكتاب الموتى وملحمة الفلاح الفصيح وغيرها من النصوص في عصورها المختلفة القبطية والإسلامية إلى اعدائهم وأصدقائهم؟ وهل يعقل للعراقيين أن يقدموا ملحمة جلجامش أو قوانين حامورابي مثلا إلى أعدائهم أو حتى إلى اصدقائهم؟

وبعد ذلك التساؤل أعود إلى الافتراءات التي تملأ صفحات كتابة الغريب والتي تبعث بالسأم والألم إلى نفس القارئ... أنه لا يَنِي يؤكد بكل قواه على أن اليهود هم أصحاب الليالي خاصة عندما يتحدث عن الإسرائيليات في "ألف ليلة وليلة" ولا يكتفي بأن اليهود هم أصحابها وكتابها بل ذهب إلى أن العنوان أي الاسم "ألف ليلة وليلة" ليس عربياً أبداً!!

ويعود ليورد رايا خطيراً بأن الطرق الصوفية وذلك النتاج الفكري الثري الذي تتميز به تلك المرحلة ظهر في نظره بتأثير الكابالية اليهودية!! ومتناسيا بأن الكيالي الألف ما هي إلاّ نتاج الظروف التاريخية والصراعات العقائدية والسياسية والحضارية عامة... ولكنه تناسى ذلك وقفز على جميع الموانع وجاء ليقرر في آرائه غير المسندة والفوقية وبإحكامه القاطعة التي لا يمكن أن نجد لها مستندا تاريخياً أو دينيا... ويواصل قوله بأن حكام المشرق العربي-الإسلامي قد استساغوا قبول السيطرة الأجنبية أو التبعية لهما، بل ويشكلون حلقة ارتباط بالقوى الخارجية على حساب الداخل...كذا!! وأن الشعب العربي بعيد ويرى نفسه مسلوب الإرادة لأنه في داخله-كما يورد المؤلف- قد ورث القدرية الاستسلامية، لأنه ورث حكايات وسمات ألف ليلة وليلة؛ أي أنه يقلب الهرم ويقرر بان اليهود كانوا قد خططوا لذلك الاستلاب. أن ما يقرره المؤلف جزء فاضح من الحرب النفسية الموجهة ضد الشعب العربي منذ أن زرعت إسرائيل في محيطه، وعلى وجه الخصوص بعد حرب أكتوبر. أنه عمل مدروس ومتواصل للنيل من رموزنا وموروثنا وحتى ما هو حديث ومعاصر فيها. أنه يستطرد في استخفاف بعقول معاصريه فيقول

> ..."ولعلنا لانتجاوز المعقول لنقول أن مدارس دينية واجتماعية لعبت دوراً مؤثراً في توجيه الأحداث الخطيرة التي تعرض لها المشرق العربي-الإسلامي، وهي توجيه تجسيد لتصورات باطنية كابالية مغروسة في (اللا شعور الجَمْعي) للإنسان في منطقتنا وجسدتها الحركات والفرق الصوفية والباطنية المتقاطعة مع أصول الإسلام الأساسي".

وساترك لك عزيزي القارئ تفسير ذلك المقطع الخطير الذي يوحي بأن جميع الظواهر الدينية والفرق وجميع الاجتهادات وكل الأدبيات والكتابات التي تنشر ونشرت في العصر الحديث كلها من تأثير الكابالية... لماذا يصر على أن اليهود هم الأصل؟ أو ليس

القرآن والإسلام خاتم الأديان؟ أو ليس العرب المسلمون هم ورثة جميع الحضارات في المنطقة وموروثها الثقافي واستطاعوا بذلك خلق تلك الحضارة العربية-الإسلامية المُشرفة التي أصبحت في أساس جميع الحضارات اللاحقة؟ أنه لا يتوقف مطلقا عن توظيف أية معلومة ليؤكد رأيا خطيراً مُنَافياً لكل حقيقة موضوعية وخاصة عندما يُصر على أن موضوعه السحر والأسطورة قد أعطت الليالي صيغة تلمودية رمزية. ويستمر في تضليله وإدعاءاته مُصراً ومؤكداً بآراء مزعومة بأن الليالي هي العهد الثالث...

أنه يضرب يميناً ويساراً وهدفه واحد وحيد معروف: خدمة طغيان الإعلان الصهيوني ورفد سمومه وصولاً إلى سلب العرب والمسلمين جميعاً وخاصة أجياله الحديثة مُجمل تاريخهم ورموزهم وإيمانهم بكل ما يفخرون به... أنه يرمي المعلومات جُزافاً بين سيل من المعلومات التي لا صلة لها بالموضوع الأساسي حتى يتشتت الفكر غير الواعي ويتأثر بما يذكره الكاتب...

فما هكذا تورد الإبل يا أستاذ جمال! وأنتِ أيتها الليالي الألف! كم من الجرائم تقترف باسمك!

في الأعداد القادمة

قراءات ومناقشات :

- اللغة والاقتصاد
- زبيد ومساجدها ومدارسها العلمية في التاريخ
- الموسوعة العربية العالمية